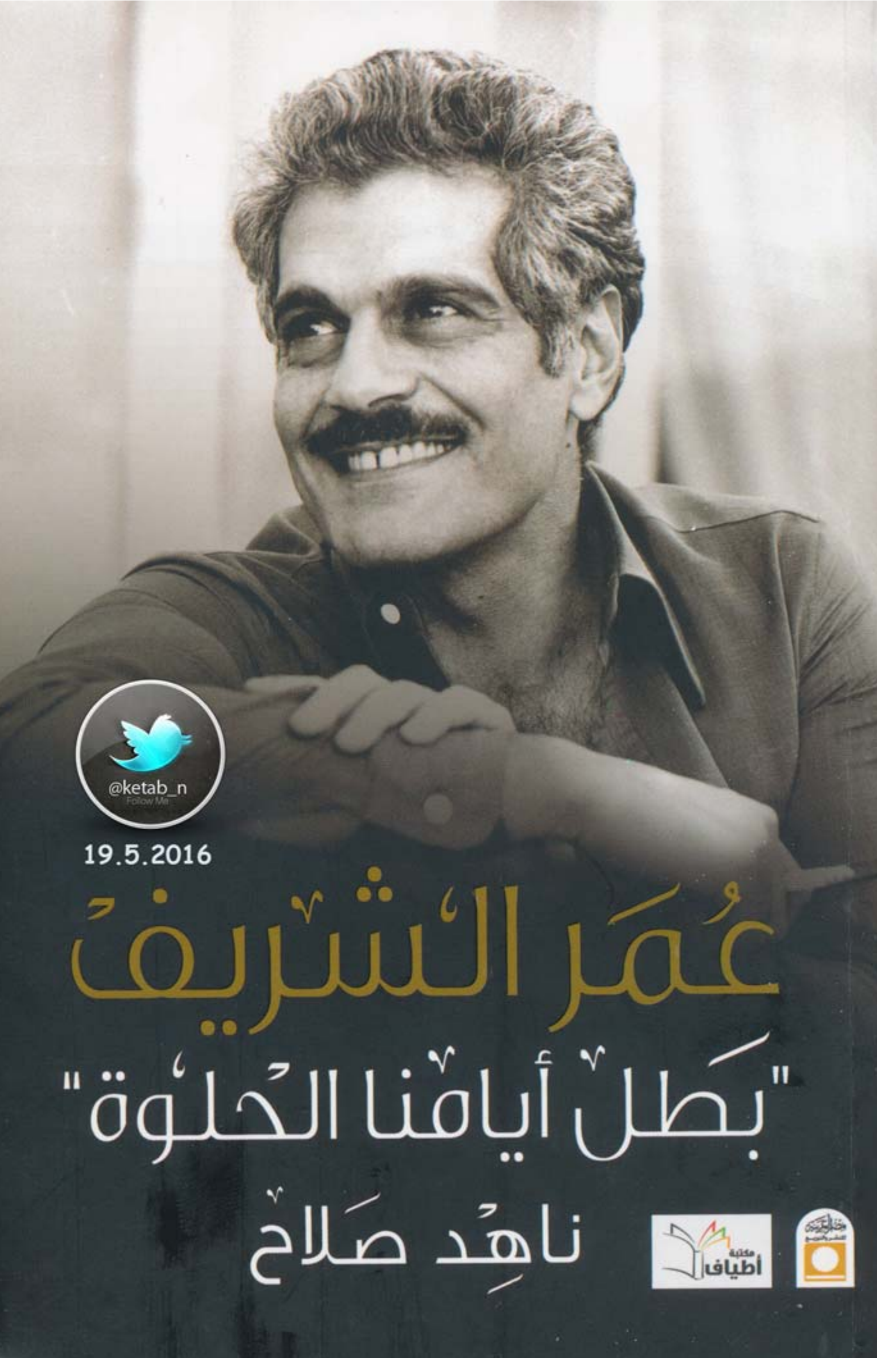


@ketab_n
Follow Me
19.5.2016
عُمَر الشّريفُ
"بَطلُ أيامنا الحُلوة"
ناهِد صَلاح
مكتبة أطياف

عمر الشريف

بطل أيامنا الحلوة

ناهد صلاح

2015

مصر العربية للنشر والتوزيع

مكتبة أطياف

عمر الشريف

بطل أيامنا الحلوة

العنوان : عمر الشريف .. بطل أيامنا الحلوة
المؤلف : ناهد صلاح
الطبعة : الأولى 2015
الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع
19 ش إسلام- حمامات القبة- الزيتون- القاهرة
تليفاكس 22562268
masrelarabia@hotmail.com

توزيع : مكتبة أطياف
1 شارع البستان السعيدي – متفرع من محمد صبري أبو علم
وسط البلد (عابدين) – القاهرة
محمول 01020097171

رقم الإيداع : 2015/1657
I.S.B.N : 978-977-428-073-3
تصميم الغلاف : كريم آدم

إهداء

إلى أمي

علمتني في الصغر أن عمر الشريف هو الرومانسي الأعظم
وأدركت في الكبر أن الأمر مختلف، لكني صدّقت أمي.

إلى هبة الله يوسف

أرادت أن أكتب عن عمر الشريف كما أحببته في الخفاء
وخفت منه في العلن.

تمثال رخامي هو النسيان.
تمثال يحملق فيك: قف مثلي لتشبهني.
وضع ورداً على قدمي.

محمود درويش

مقدمة

المسافر

- القدر أكبر مني ومنك هو اللى خلاني القاكي، والقاكي فى الكابينة اللي جنب مني كأننا على ميعاد، ما تحاوليش تهربي مني بعد كدة لأني هلقاكي، هلقاكي دايماً..

- أرجوك تسيبنى فى حالي وتبعد عني .. أنا متجوزة وليّ ابن هو كل حياتى.

- إنتِ ليكي ابن هو كل حياتك، وأنا ليّ قلب إنتِ كل حياته.

كل الذين بحثوا عن الحب وحاولوا أن يعثروا على ملمح منه في علاقة نوال وخالد في فيلم "نهر الحب"، تعاطفوا مع بطلي الرواية الشهيرة للروسي الأشهر ليو تولستوي كما قدمها المخرج عز الدين ذو الفقار، متجاوزين فكرة أن خالد يحب نوال المتزوجة من رجل آخر، لأنهما حافظا على قدسية وطهارة هذا الحب وترف الشوق وأناقة الصورة، فبينهما كان هذا الوتر الذي

يصدر أنغاماً هي مزيج من أنين مكتوم ورقة قاسية تشحذ مديح الحب حتى لو كانت نهايته الهزيمة المفجعة.

أفكر، فيما أتابع المد والجزر في رقصة نوال وخالد الشهيرة في هذا الفيلم، واتساءل: كيف أصبح هذا الثنائي رمزاً لصورة الحب؟ وهل الطيور على أشكالها تقع فعلاً؟ فلماذا إذن فرّ أحدهما؟ ولماذا ظلت قصة الحب المنتهية واحدة من الأناشيد الحارة والطيبة ترددها الأمهات لبناتهن جيلاً بعد جيل كما فعلت معي أمي؟ هل هو عطش الحناجر اليابسة للحب والاحتياج المطلق له في الفراغ الفسيح؟ وبما أنني لا أحصل، عادة، على إجابة فإنني أفكر في مسار آخر حول الصدفة التي رتبت لي أكثر من مرة موعداً مع عمر الشريف. وبدلاً من أن أحذو ظل الحائط وأمشي إلى مشاوير أخرى، كنت أجدني في حضوره: أغمد نظراتي الحادة وأتحرك ببطء شديد دون أن أدق أية أبواب، حيث كان يستقبلني بتلقائية تمحو كل القصص والروايات عن عصبيته التي قالوا أنها لازمته ليل نهار، عرفت أنه يفضل الصوت الهادئ الذي يستطيع أن يسمعه جيداً، فالتزمت بإيقاعه وتحدثت بهدوء وبطء وأصغيت له جيداً وهو يعيد شريط ذكرياته وعبرت معه لقائي الأول به في سلام وكان ذلك عقب تصويره فيلم "حسن ومرقص" (2008)، وفزت بحوار صحفي طويل تم نشره على حلقات في صحيفة الجريدة الكويتية. لقاؤنا الثاني كان في الدورة

السادسة والعشرين لمهرجان الاسكندرية السينمائي (2010)، حين رأيته يجلس في بهو الفندق الذي أقيمت فيه الفعاليات، فاقتربت منه وأشرت إلى بطلة الفيلم التركي المشارك في المسابقة الرسمية بالمهرجان وقلت له: شايف البنت الحلوة دي، هي ممثلة تركية وعايزة تتصور معاك!

قال: خليها تيجي.

قلت: لا. إنت اللي هتقوم وهناخد لكم مشهد فيديو وهي بتسلم عليك.

ضحك: عايزاني أمثّل!

وكاد المشهد أن يتم على خير لولا أن المصور العبقري انضم إلى صفوف المتفرجين ونسي أن يضغط زر تشغيل الكاميرا، فاقتربت من عمر مرة أخرى وأشرت هذه المرة إلى المصور، وقلت: شايف المصور ده، ما صدقش إنه واقف قدام عمر الشريف وراح يتفرج عليك ونسي يشغل الكاميرا.

قال: عايزاني أمثل تاني!

قلت بحذر: آه.

ضحك: ماشي.

وانتهينا من المشهد هذه المرة، ثم جلست معه نصف ساعة حكى لي تفاصيل متناثرة من حياته ورحت أفتش معه كيف

كبرت نجوميته كحبة سمسم صغيرة تناثرت في أفق سماوي لتصير بستانه المتفرد، تركته بعد أن حصلت على غنيمتي من حوار مسجل وتابعته يفرد ظهره على مقعده هادئاً حتى اقترب منه أحد الصحفيين وبمجرد أن نطق باسمه، صرخ فيه: خلاص.. كدة كفاية النهاردة.

وكنت سألته: هل أحببت فاتن حمامة؟

- نعم .. بطريقة شرقية. زواجي لم يكن زواج حب، بمعنى أنه لم يكن حباً عاطفياً، لقد كان زواجاً أساسه الانسجام والمحبة والصداقة، وأي زواج يقوم على مثل هذه المشاعر يمكن أن ينجح، ولقد نجح زواجي بالفعل لأننا بقينا زوجين لمدة عشر سنوات وخلال هذه السنوات العشر لم أخدعها أبداً.

- هل كنت سعيداً؟

- لقد كنت قانعاً.

بالضربة القاضية اختصر عمر الشريف قصة حبه الكبيرة التي لم يزل يحكي عنها الجميع ويتحاكى حتى بعد الموت، وصفها بأنها مجرد علاقة قامت على الانسجام، علاقة ود وفقط ولا حديث عن حب زلزل كيان طرفين وجعلهما يوماً ما يقفان على ضفة التحدي، وحولهما إلى أيقونة للحب في الجغرافيا العربية، فلو كنت تسأل بنات جيلي مثلاً عن فارس الأحلام، لأجابت

غالبيتهن: "عمر الشريف ولا رجل إلا عمر" ورحن يصفن عيونه الناعسة حين كان ينادي فاتن حمامة ويقول لها:"بطاطس"؟ كأنه صَنَعَ الحب بما يليق ببطل أيامنا الحلوة الذي لم يبالِ سوى بولعه الخاص، فحظي بالتمجيد العام وهو ينتقل بخفة من الظل إلى الضوء، والفتيات يعجبهن هذا التواطؤ بين الوعد وبين النصيب، كما يعجبهن شامة ترقص في خيلاء تحت العين وفلج صريح بين الأسنان يقول البعض أنه دلالة الحظ السعيد ويقول آخرون أنه علامة حُسن وحشي.

وفي لقائي الثالث والأخير معه، حضر لإجراء سهرة تليفزيونية كنت أعدها للفنان سمير صبري بمناسبة رأس السنة (2015)، كان حائراً، حذراً، محيّراً كعادته، الألزهايمر استحوذ على ذاكرته، لكن كل ما ومن حوله تدحرج في حضوره المتوّج بهالته، الكل تلهف إلى صورة أو سلام بـ"الإيد"، فلما سأله سمير صبري عن فاتن حمامة، راح يحكي عن والدته وذكرياته في مدرسته فيكتوريا كوليدج، وأبصرته الطفل الصغير الذي يحطم سياج النجومية في دقائق، ذلك الطفل الذي سلم نفسه إلى فضاء السفر وأعاده الحنين إلى أرضه ليقدم برهانه على الانتماء.

لقاء في القاهرة ولقاءان في الاسكندرية لكي يكتمل إيقاعه الـ"كوزموبوليتان"، ابن المدن التي انتصرت للجوهر واحتضنت التعددية، المسافر .. ابن البحر كأنه وُلد على مركب، صوته لم

يأت من جذور الأرض؛ بل من تأرجح الريح وجرح في الهوية، من الاسكندرية إلى هوليوود مروراً بالقاهرة، جسر مفتوح عبره عمر الشريف بجرأة المغامر الذي عرف قوانين اللعبة جيداً وتناقضاتها، ما جعل مشواره أقرب إلى القدر والخيال والغموض من الواقع وضجره وبؤسه، رحلة طويلة وحافلة رسمها "ابن العرب" وتوغل فيها بخطوات متوهجة من الخصوصية والحميمية إلى "بلاد الخواجات" حلمه وعشقه الذي سحبه خلفه حتى آخر الدنيا.

عمر الشريف "الخواجة" كما أطلقوا عليه عند إطلالته السينمائية الأولى في مصر، صاحب العينين الغارقتين في حنان عميق الحزن، ورقة وليونة أخاذة في السحر لم تمنع أبداً شجاعته واندفاعه صوب رغباته وإن جلبت عليه المشاكل، ابن الاسكندرية مدينته المفتوحة على البحر، طائر الشمال المتطلع بشغف دائم إلى الشمال، جاءت عائلته من الشام في الشمال وعاشوا في الاسكندرية شمال مصر، وحين استطاع التحليق طار على الفور إلى الشمال الأبعد، من فرنسا ولندن إلى هوليوود حيث كانت نداهة أحلامه تناجيه إلى فضاء أوسع، صار في سمائه نجماً فارقاً هادياً للآخرين الحالمين بجموح مثل جموحه، ومطمعاً للمغامرين وصائدي الأخبار، وذوي المخيلات الواسعة في إثارة الفضائح.

هل كان عمر الشريف "الشرقي" خائناً وعميلاً للـ"الغرب"، دفعته شهوة الرغبة في العالمية إلى التمسح في اليهود، وارتكابه نزوات سينمائية مناقضة لقيم مجتمعنا العربي؟ أم كان فناناً كبيراً رفع اسم مصر في السينما العالمية ومحافلها؟ الإجابة الحاسمة نجدها في مسار طويل من التحدّيات والأسئلة والتفاصيل الحياتية والإنسانية لفنان استطاع أن يصنع أسطورته الخاصة، الفاتنة.

في هذا الكتاب نبحر في العوالم الأسطورية لعمر الشريف، ونتعرف على تفاصيل غامضة في تكوينه الشخصي، وفي أسرار عائلته، وقصة حبه وزواجه وطلاقه من فاتن حمامة، وهجرته وغربته، وعلاقته بالقمار والنساء والسينما التي ترك على خارطتها عناوين كبيرة وكثيرة تؤرخ لنجوميته وتنتصر للممثل بداخله، وحيرته بين حريته في الخارج وحنينه إلى وطن تركه برغبته وكامل إرادته، ورحيله و.. أشياء أخرى كثيرة صنعت من حياة عمر الشريف فصولاً تستحق أن تُروى.

الفصل الأول

ميشيل

هنا على شاطئ بحر الاسكندرية وقف عمر الشريف شارداً، ساهماً والغيم اتسع في عينيه ورسم غلالته الشفافة، كأنه خرج تواً من هذا البحر الذي يهدر بالعجائب، صامتاً كأنه كان يصغي لأغنية قديمة عن الاسكندرية بصوت مطرب شباب الستينيات السكندري/اليوناني جورج موستاكي: (أغني لكم حنيني فلا تضحكوا إن احمرت وجنتي فذكرياتي لم تكبر وتشيخ/ ولازلت أعاني ألم فراق بلادي)، أو أغنية أخرى بصوت داليدا: (اسكندرية أحسن ناس/ ع البحر ماشية تتمختر/ من سيدى بشر لأبو العباس) أو حتى بصوت الشيخ إمام (يا اسكندرية بحرك عجايب/ ياريت ينوبني من الحب نايب/ تحدفني موجة على صدر موجة/ والبحر هوجة والصيد مطايب)، كان يشخص بنظره إلى الجانب الآخر من الشاطئ حيث البلاد البعيدة التي تغرب في موانئها ومطاراتها وفنادقها ولم تقتله عواصفه وهو يجوب دروبها

المفتوحة باندفاع يلائم أبناء البحر الذين يندمجون بمائه وملحه كأنهم يجددون عروقهم في أجسادهم التي تتشهى الحياة. وقف عمر على الشاطئ وقد ساورته بعض الشكوك الكفيلة بأن تهزم مصارع، أو هكذا أنا تخيلت لدرجة أنني سمعته يناجي نفسه وهو يحدق عميقاً في البحر: "أكان لابد من كل هذا المشوار، أكان ضرورياً الذهاب عند الشاطئ الآخر لأعود في كل مرة يجرفني الحنين إلى هذه المدينة اللغز؟". عله تذكر كيف كانت مدينته في الزمن القديم مشرّعة على البحر تصيغ علاقتها بالآخر وبالعالم دون سؤال الهوية، لا أعرف من أين أو كيف راودتني هذه الفكرة أثناء لقائي معه لإجراء حواراً صحفياً رتبته الصدفة منذ أكثر من سبع سنوات، لابد أنها انبثقت من شبكة المخاوف والأوهام التي انفردت على مجتمعاتنا في السنوات الأخيرة، لكن أجزم أنني سمعته يتحدث بهمهمة كأنه اكتشف ضياع المعجزة: "الصورة صورتها بالضبط كما أحببتها دائماً، لكن هناك ما يشوش انتباهي عندما أنظر إليها، الصورة فيها حاجة ملخبطة، إنها ليست الاسكندرية".

ارتجفت من هلع الجملة القاسية ورحت أحملق أمامي في صمت، عند هذا الحد اقتنعت أن الحوار المتخيل هو لب القضية، فمسقط رأسه الذي صنع شخصيته ونموذجه الإنساني والفني، بدا مفقوداً كآثاره المدفونة والغارقة في البحر.

ضربت الأمواج الشاطئ أمامه فانتبه عمر الشريف وفاجئني حين نطق بهواجسي:

" لا أصدق أن هذه هي الاسكندرية. بقى هي دي بلدي اللي اتربيت فيها ودخلت مدارسها. وعلموني إنها أول مدينة في الشرق الأوسط تتعرف على اختراع السينما؟ هي دي المدينة اللي حضر ليها من فرنسا الأخوان لوميير اللي اخترعوا السينما وقدموا فيها أفلامهم الأولى. هي دي البلد اللي خرج منها محمد كريم وتوجو مزراحي ومحمد بيومي وفاطمة رشدي وشادي عبد السلام ويوسف شاهين وغيرهم وغيرهم؟ .. إيه اللي غيرها كدة. النهاردة قابلني واحد وعرّفني بنفسه انه اسكندراني وقال لي إن الفن حرام .. مش معقول. اسكندراني إزاي!!".

على قدر البساطة التي طرح من خلالها عمر الشريف مشاعره تجاه مدينته أو جنته المفقودة كما وصفها في حواره معي، فإنه عبر عن التغيير العاصف في مدينته التي تغيرت ملامح الجمال فيها بسبب الانعطافات السياسية الخطيرة التي مرت بها مثل بقية الأرجاء في البلاد. والاسكندرية المثالية هي ليست من وحي خياله ولا من اختراعه. إنما هي صورة من صور المدينة المراوغة في أسطوريتها وهو نفسه ورث عنها هذه المراوغة كالريح على الشراع: مرئية وسرية معاً. أعطته من فيض سحرها وتعدديتها التي أشعلت شهوته للحياة وعلمته كيف يمسك

بلحظته المتألقة حين كانت في سلام مع نفسها، جميلة كما رسمها التشكيليون على اختلاف مدارسهم، لكن عمر لم يكن يحبها لجمالها أو لنقاء صورتها في لوحات الرسامين، إنه على الأدق عشقها لأنه اقترب من هذا الضوء المتسلل من روحها المغلفة بالشجن والأسى والقوة والصلابة وبينهما فرح يحاول أن يجتاز سراديب الخوف، رأى عمر مدينته دائماً كما أراد حرة تجنح نحو خيال لم يخطفها من واقعها المخضّم بحكايات الغيب حيث تتسع الأحرف والكلمات للموتى والأحياء، مفاتن عمارتها اليونانية والإيطالية والإنجليزية والقبطية والإسلامية تتصدر المشهد وتخفي في ثناياها رائحة بشر أغوتهم الأساطير وأورثتهم الذكرى على الحجر منذ مصر الفرعونية التي يتجاهلها المؤرخون حين يسجلون نشأة الاسكندرية بأمر من الاسكندر الأكبر مهندسه دينوقراتيس الذي حوّل (راكوتيس) أو راقودة من رقعة صغيرة محصورة بين بحيرة مريوط وميناء كيبوتوس إلى لوحة شطرنج كبيرة اسمها الاسكندرية.

نظر عمر إلى لافتات المطاعم والمقاهي والمحلات المضاءة بالنيون والتي تنوعت أسمائها ما بين العربية والإيطالية واليونانية والإنجليزية على كورنيش يعج بالزحام والعشوائية، نفس الطريق ونفس الجسر الذي يُفضي إلى شارع اختفت بيوته الصغيرة وحلت محلها عمارات كبيرة كالحة اللون، وما بقي من

البيوت الصغيرة فهو مهجور ويبدو كأنه مرتعش ومسجون داخل قفص من الخرسانة القبيحة التي حاصرته وألقت بظلالها الثقيلة عليها وحجبت عنها البحر، كم كان يحب السير في هذه الشوارع الجانبية متلهفاً الصعود مع منحدراتها، ارتبكت حركة يديه لما أشار إليها ثم قال:"**اسكندرية بقت عجوزة أوي**"، مختصراً تناقضات ومفارقات تعج بها مدينته التي شهدت على مدار تاريخها ازدهاراً وإهمالاً لا يحررها من ذاكرتها الغامضة ومن سيكولوجيتها الغرائبية، صوت كفافيس يتسلل في الخلفية:

انصت – إنها بهجتك الأخيرة – إلى الأصوات،

إلى الموسيقى الرهيفة لذلك الموكب الغريب،

وقل وداعاً لها، إلى الاسكندرية التي تفقدها.

صحيح أن الصورة القديمة الزاهية صارت وهمية، بينما في الواقع هناك اسكندرية أخرى تماماً لم يعرفها الشريف أبداً وسيطرت عليه صور الطفولة وهو يحدق فيها من خلال الضوء البرتقالي الباهت وقت غروب الشمس وجرحته حين احتك بقشورها من الخارج، فتحولت الصورة في نظره إلى نوع من الفانتازيا دفعه إلى تذكر قصص الماضي وكأن ما حدث كان شيئاً لا يخصه حدث لشخص آخر يشعر معه ببعض التعاطف، وبصرف النظر عن النظريات التحليلية المتعددة حول انكسارات المدينة وازدهاراتها في تباين واضح حملته عصوراً مختلفة، أو

حول تريف المدينة وانسحابها خلف جدار الردة الثقافية والفوضى الاجتماعية التي ضربت فيها سنين طويلة، ما عبر عنه الروائي السكندري إبراهيم عبدالمجيد في كتابه (غواية الاسكندرية.. ماوراء الكتابة) : "من قديم الزمان تشهد الاسكندرية هجرات داخلية من النهر إلى البحر أي من الريف، الدلتا والصعيد، إلى الاسكندرية، لكن المهاجرين كانوا يذوبون فيها شيئاً فشيئاً، منذ نصف قرن أخذت الهجرات تزداد بسرعة كبيرة ومنذ ثلاثين سنة ازدادت هذه الهجرة بشكل كبير مع انحطاط مستوى المعيشة في الريف وعجزت المدينة عن الاستيعاب الروحي لهؤلاء المهاجرين فعاشوا فيها ويعيشون محتفظين بثقافتهم الريفية ولهجاتهم ... يتمركزون في جنوب المدينة (هم الأغلبية 4 ملايين ريفي مقابل مليوني سكندري) .. والكارثة أنه منذ 30 سنة أيضاً حدث في البلاد كلها غزو ثقافي رجعي.. ونالت الاسكندرية مثل غيرها نصيبها منه.. وهكذا صارت المدينة مثل برج بابل".

بينما كان لعمر الشريف تفسير آخر: "**التغيير لم يكن في مدينة الاسكندرية بمفردها، بل العالم كله تغير، فالاسكندرية كان يسكنها 500 ألف نسمة، منهم الجريج، اليهود، والطلاينة، وكل منهم كان له حي يعيش فيه، لكن اليوم تجاوز عدد سكان الاسكندرية الـ 7 مليون ساكن في نفس المساحة التي لم تتغير، فبالطبع اتوسخت**"، فإن الاسكندرية أيضاً جزء من مصر تأثرت

بتحولاتها التاريخية دائماً، التي ربما مرت عليه ولم يطوقه ظلها، فتشعبت لديه الذكرى ولم يألف عمر الوضع الجديد كما صوره مخرج مثل الفرنسي نيكولاس باري في فيلمه التسجيلي "مافيش داريل"، نافياً حضور الاسكندرية كما كتبها الروائي والشاعر البريطاني لورانس جورج داريل (1912:1990) في رباعيته الشهيرة (جوستين - بلثازار- ماونتوليف - كليا) معلناً تلاشيها مثلها مثل المدن الأسطورية الأخرى، سمرقند وطنجة، مدن موجودة في الذاكرة أو الكتب، أما في الواقع فهناك مدينة أخرى؛ الأمر ليس عاطفياً ولا هو مدخلاً للتشاؤم، لكن يقودنا التأمل إلى فحص الظروف المحيطة بالميلاد والمنشأ، فما حكمة مولد عمر الشريف في هذه المدينة بالذات؟ وما هو تأثير انتمائه لهذه العائلة التي جعلها القدر من نصيبه؟ وإلى أي مدى كان محظوظاً لأنه ولد لعائلة ميسورة الحال في مدينة عابرة للأحلام؟

مشاهد متلاحقة وسريعة من حياته الحافلة تبلورت أمامه، منذ دبة قدمه الأولى على أرض الاسكندرية، ألوانها وروائحها ومتنزهاتها ومحلاتها الشهيرة وبحرها ومراكبها وجسورها وميادينها وخطوط ترامها وحشود ناسها يسيرون في شوارعها يكافحون ويسعون وراء فرصة للعيش والكثير منهم لم يحصل على قسط كاف من تعليمه، لكن كان هناك دائماً إتيكيت خاص بالمدينة لابد من تكريسه ليثبت أنهم أهل الاسكندرية وأبناء البحر وهو

الفرار من القيود، يتسارع شريط مشاهداته لتمر مشاحناته الأولى مع والده المتشدد دينياً ووالدته الجميلة المتحررة ورفضهما لعمله بالتمثيل وأول قصة حب اكتشف خلالها حماسه المتزايد للحياة، وأحلامه الأولى بالتمثيل والسفر والحرية والإنطلاق، وصورته الأولى كفنان وسيم له نظرة وابتسامة ساحرة، إلى صورته الأخيرة حينذاك كنجم عالمي حقق كل الأحلام وصار أكثر نضجاً وتسامحاً مثل أفلامه الأخيرة التي حملت هذه المعاني ونُسجت كالدانتيلا بخبرة سنين طويلة زادت شعره شيباً وزاده شيبه وسامة أكثر، أغوتني هذه الحالة وأصغيت لعمر حين تشبث بنظراته المتسائلة للبحر.

"أكيد لو ماكنتش اتولدت في اسكندرية كنت هخسر حاجات كتير، أنا بحب البلد دي لدرجة الغرام، ومش عارف هي اسكندرية اللي عملت في كدة ولا أنا أصلاً إتخلقت كدة، ولكن في الحقيقة هي مدينة تمشي معايا في كل مكان، أروح وآجي، أسافر وأرجع وهي كدة ملازماني كأنها في دمي، وأنا كمان عارف إني في دمها".

ميشيل ديمتري جورج شلهوب المولود بالاسكندرية في العاشر من ابريل في العام 1932، شاء القدر أن يكون عام مولده هو نفس العام الذي نطقت فيه السينما المصرية بأول فيلم ناطق قام ببطولته يوسف وهبي وأمينة رزق هو (أولاد الذوات) في الرابع عشر من مارس أي قبل أقل من شهر من مولد ميشيل، كما شهد نفس العام ثاني فيلم ناطق (أنشودة الفؤاد) في الثالث عشر من أبريل قبل مولده بثلاثة أيام، بينما تكرست نجومية محمد عبد الوهاب في فيلم (الوردة البيضاء) في نهاية هذا العام في الرابع من ديسمبر آخر شهوره، وبذلك أحاطته البشارة السينمائية من حيث لا يدري.

انحدر الصغير ميشيل من أسرة ارستقراطية لها أصول لبنانية وفي أقوال أخرى سورية، المهم أن الجذور شامية لعائلة فاضت بماضيها الذي حدد خطوط مستقبلها، درس والداه في مدارس الرهبان والراهبات، وسعى الأب؛ وهو كان أحد أكبر تجار الأخشاب في مدينة الاسكندرية، إلى إعداد ابنه ليكون شخصاً مرموقاً في عالم التجارة والمال، فأدخله المدارس الأجنبية واجتهد ليحسبه على أبناء الصفوة والطبقة المخملية، وحين ازدهرت تجارته غادر الاسكندرية واستقر مع أسرته في حي البرجوازية القاهرية يومئذ: جاردن سيتي، ليتباهى بالشكل ويجمع من التجارة ثروة كبيرة بمقاييس ذلك العصر.

والأم "كلير" الفاتنة التي تنتسب إلى عائلة مسيحية كاثوليكية، كانت قد أحرزت بالنسبة إلى جيلها ثقافة عالية وذكاء براق، وكان الابن ينتسب إلى المدارس الأجنبية التي لم يعي فيها حضوراً عربياً تقليدياً، فمن بين زملائه قليلون من أبناء الأثرياء العرب وصفوتهم بجوار آخرين أرمن ويونانيون ويهود مصريون وأقباط، وربما عدد غير قليل من أولاد الإنجليز، ولم يكن طفلاً فضولياً أو خائفاً، لكنه كان يعاني من أعراض الحصار العائلي وتقاليدها، ولعل هذا ما خلق جانب التمرد الذي كان يتوق بشدة للتحرر من سلطة العائلة الطاغية، إلا أنه شعر ببعض الأسى والرغبة الملحة في السخرية من كل شيء حوله إلى حد القسوة، صحيح أنه التزم بمواعيد النوادي الرياضية الراقية، وصحيح أن عائلته جعلته يمارس كل المظاهر الشكلية لبرجوازيته بالإضافة إلى ممارسته التنس وركوب الخيل، وتوزع برنامجه اليومي بين المدرسة والنوادي الرياضية وزيارة الكنيسة، لكنه حين يأتي المساء كان ينفرد بنفسه في غرفته ويلعب لعبته الفانتازية بأنه قبطان مركب يزهو بقيادته الحرة له، مركب لا يحمل أحداً غيره ويواجه فيه كل العواصف، وكان يدين بهذا الخيال للسفن والمراكب التي كان يراها تمر في بحر الاسكندرية سواء حين كان يراها أثناء مرور عابر بالميناء أو مراكب الصيد

الصغيرة المتناثرة في أكثر من موقع، فلا ملاذ له إلا الخيال الذي يقوده للتمرد.

"عشت مع عائلتي حياة مرفهة منذ طفولتي حيث أرتاد الأندية الكبرى التي كان لا يدخلها سوى الأثرياء مثل نادي الرياضة الملكي ونادي محمد علي، ولا زلت حتى اليوم أتذكر هذه العمارة المؤلفة من طابقين وتقع وسط حديقة رائعة في حي كليوباترا بالإسكندرية ورغم الحب الشديد الذي كنت أحظى به من أبي وأمي إلا أنهما كانا حريصين على أن لا أنشأ مدللاً وأنانياً، لأنهما كانا يريدانني شخصاً مستقلاً وقوياً لا ضعيفاً واتكالياً، وأعتقد أنني كنت عند حسن ظنهما وكنت عند حسن ظني أيضاً لأنني أحياناً لم أستسلم كاملاً للجمود أو الحياة بوتيرة واحدة".

نشأ ميشيل إذن، في أسرة ارستقراطية محظوظة نعِم أفرادها برفاهية العيش، علاقاتهم بالثقافة الغربية مفتوحة، وعاشت في الاسكندرية ثم في القاهرة في بيئة الأقلية المسيحية النازحة من بلاد الشام، هذه النشأة الأولى التي تعد في الوقت ذاته جزءً من تأريخ حياة فئة اجتماعية معينة من عرب بلاد الشام هاجرت إلى مصر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وانقسمت إلى: مثقفين شوام أجادوا اللغات الأجنبية، وكان لهم دور رائد في تاريخ الترجمة والصحافة بمصر، وتجار أثرياء،

وهم من المسيحيين العرب الذين عرفوا بعلاقاتهم القديمة مع أوروبا، وأمريكا عبر التجارة، ومدارس الإرساليات التبشيرية، فمن الطبيعي إذن أنهم كانوا يرسلون أبناءهم إليها لتعلمهم اللغات، وتربيهم على روح الانضباط والطاعة، وتقديس الكنيسة. ووفق هذه المعادلة تلقى ميشيل شلهوب تعليمه في أرقى المدارس الخاصة، مثل "فيكتوريا كوليدج" المدرسة الانجليزية التي دفعته للفن كما أهلته لإتقان اللغة الانجليزية كتابة وقراءة وتحدثاً إضافة إلى الفرنسية التي كان تعلمها من قبل التحاقه بها، والإيطالية والأسبانية واليونانية التي تعلمها فيما بعد خلال أسفاره وتعرف على أصولها في مدينته الاسكندرية التي كانت أيضاً انطلاقته الأولى نحو عالم التمثيل والنجومية والعالمية.

وقد أنشأت فيكتوريا كوليدج في العام 1897 وهي المدرسة التي أُطلق عليها إيتون الشرق تشبيهاً لها بكلية إيتون البريطانية التي تخرج فيها 18 رئيس وزراء بريطاني، بفكرة من السير تشارلز كوكسون القنصل العام البريطاني حينذاك الذي التقى بأعضاء الجاليات الأجنبية في الاسكندرية وطرح عليهم فكرة إنشاء مدرسة انجليزية، وكان من بين هؤلاء الأعضاء السير هنري باركر الذي أصبح فيما بعد رئيس مجلس إدارة المدرسة لمدة 30 عاماً، وكان المشروع قد تعثر في البداية بسبب التمويل حتى وفاة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا وأيرلندا في يناير 1901، ما أدى إلى إحياء

الفكرة مرة أخرى ومنح المدرسة اسم الملكة فيكتوريا تخليداً لذكراها وتم بناء المدرسة بأموال التبرعات وقطعة أرض تبرع بها جورج أندرسون وفتحت أبوابها رسمياًعام 1902 وبقرار من الحاكم البريطاني لمصر آنذاك ايفريل بارينج والذي كان أيضاً رئيسا لبنك بارينجز (ظل بنك بارينجز أكبر بنوك بريطانيا التجارية منذ إنشاءه عام 1792 حتى انهياره عام 1995)، حيث كان للبنك وقتها استثمارات كبيرة في مصر بحكم استقرارها مقارنة بدول أخرى من العالم، وانتهت التبعية البريطانية للمدرسة في العام 1956م. وهي السنة التي شهدت نهاية التعاون بين بريطانيا ومصر مع بداية أزمة السويس، وصارت تابعة لوزارة التعليم المصرية، لكنها استمرت في التدريس إلى يومنا هذا وبمنهج يعتمد على اللغة الانجليزية في معظمه.

حين يعتاد المرء السفر والرحيل قد تصبح كل الأمكنة سواء، ولا تستسلم لشبق حنين يغص بالقلب، إلا الاسكندرية بالنسبة لعمر الشريف التي منحته من روحها وتعددها، حمل ملامحها وتناقضاتها وإيقاعها الذي يشرق ويغرب حسب ارتفاع أو هبوط موجات بحرها وحيث تكونت شخصية ميشيل أو عمر في ظل أسرته الكاثوليكية الحازمة والمشدودة بين وترين متنافرين: أب متشدد يعمل تاجراً للأخشاب وأم متحررة عشقت الحياة والقمار ومنشغلة بالمظاهر الأرستقراطية والطبقية، وميشيل وشقيقته

الوحيدة بينهما تأرجحت روحهما بين الظل والضوء، الشقيقة كانت تشبه الأب في تشددها الديني ولم تمل من السكون وثبات الأشياء، أما هو كوالدته كاد البحر أن ينكسر على صخرة تمردهما وشغفهما بسحر الغامض والمجهول، يصعب على ميراثه هذا من أمه وعزلته ووحدته في سنوات طفولته الأولى أن تحدد ملامح واضحة وقوية لشخصية ميشيل، بين هدوئه الأول المطبق الذي كان يغيظ الأم وبين الوسيم المقامر الذي تطلعت إليه أعين النساء في شوق أقرب لنسج حكايات الحب والعشق القديمة، وأميل إلى أن شخصيته هي عجينة مختلطة من الطفل الشاطر المهذب المنزوي في غرفته، والطفل الشقي الذي يهبط السلم "زحلقة" على الدرابزين في غياب أمه مطلقاً صرخة المتعة قبل أن ينزرع في الأرض على رأسه غالباً مثل مرساة مركب، وفي كل الحالات كان يتطلع إلى أمه في شيء من الرهبة والحب اختصر شكل علاقته بسيدة طوعت روحها لتنجو من صدأ الملل ورتابة العيش على إيقاع واحد، كان إيقاعها منفرداً لا يشبه الإيقاع التقليدي للأمهات الأخريات، كانت سيدة الإطار الكامل: الشكل البهي الذي لا يجب أن يجرحه النقصان، وقد كلفه ارتباطه بأمه كثيراً؛ لكنه كان مدخله لحياة أكثر صخباً من منزل العائلة حين كانت تدعو الأم الأثرياء والصفوة لحفل عشاء أو لسهرة على المائدة الخضراء، وهو الصخب الذي كان يهرب منه أحياناً في

صغره فيلجأ إلى وحدته وعالمه الخاص، ولا يعود ذلك إلى أنه لم يكن سعيداً؛ بل على العكس تماماً كان يشعر كطفل مهذب بحب كل من قابلهم تقريباً، وإذا كان من سبب للضيق فهو أنه كطفل متمرد حين كان ينظر من شرفة غرفته لا يرى امتداد البحر والسماء جيداً، فقط كان يرى جزءً صغيراً يمنحه بعض الطمأنينة ويدعم روحه الحرة.

"عشت وتربيت في بيت برجوازي، والدي كان عنده شيء من المال مش غني جداً إنما كان الحمد لله غني، فوالدي كان أحد أكبر تجار الأخشاب في مدينة الإسكندرية، وعشت مع عائلتي حياة مرفهة منذ طفولتي، كان المركز المالي لوالدي في ازدهار، وبالتالي فقد كان دورنا اجتماعياً في الازدهار نفسه، وكانت أمي سعيدة جداً لأنها مع كل صعود على درجات السلم كانت تستطيع أن تقامر أكثر".

الدنيا تتغير والولد يحلم بالبحر والموانئ البعيدة، ويحب كل ما يحرره من الجدران والتقاليد، لكن الخيوط لا تفلت من يد الأم؛ فحدسها لا يخذلها في الغالب وتعرف كيف تعوض القليل والكثير في حياة ابنها حسب مقاس أحلامها، لذا كانت تعرف كيف تجعل اليوم الذي تخرج فيه مصطحبة ابنها معها حدثاً عظيماً، وهو بالفعل كان الحدث العظيم بالنسبة له، كان ذلك يتجلى بوضوح بمجرد مغادرتهما لمنزلهما المكون من طابقين في

منطقة كليوباترا التابعة لحي شرق الاسكندرية والتي أغلب سكانها من اليونانيين والإيطاليين، كانت توقفه فجأة أمه قبل الخروج من البوابة الكبيرة وتتفحص ملابسه وتتأكد من إغلاق كل أزراره وتضع اللمسة النهاية لأناقة ابنها، وبمجرد أن يخرج الابن يصرخ فرحاً :"الشارع". الشمس والضوء والهواء المنعش يدهشه ويحرره من كلاسيكية البيت وعيناه تتابع كل تفاصيل الشارع بافتتان وهو يمسك بيد أمه، فهو بهذا الخروج كان يتنفس ويهرب من جدران اعتادها وخطط من ورائها استراتيجيات عدة حتى لا تزعجه التفاصيل الصغيرة في عائلته، فانتظر خلف زجاج نافذته وراح يعد السيارات في الشارع ويتحين الفرصة ليرى مركباً ولو من بعيد، بغض النظر عن القلق أو التوتر الذي كان تسببه له تلك الطريقة، وكان في هذه الأوقات يحلم بحدث عظيم يهز حياته ويخرجه من دائرة الملل، ربما لصغر سنه لم يفهم الأمر بشكل أفضل ليستطيع أن يشرح عادة عد السيارات والمراكب لما كبر، لكنه كان يستطيع رؤية البحر من فجوات بين الأبنية التي تحيط بيته في كليوباترا، قضى طفولته الأولى يراقب البحر من شرفته ولا يتطلع إلى أكثر من ذلك، والقدرة على رؤية البحر بالنسبة لأهل الاسكندرية لها طابع روحاني، لعله يفسر صعود الكثير من كبار نجوم الفن عبر هواء بحر الاسكندرية.

وعـودة للصغـير ميشـيل الـذي لـم تُصـور لـه طفولتـه أنـه سيكون واحداً من هؤلاء الكبار، فكانت بهجته الكبرى حين تأت اللحظـة الـتي تقـوم فيهـا أمـه بتدليلـه وتهـتم بـه، فتسـمح لـه بـالجلوس بجوارهـا حـين تـتزين وتتركـه يعبـث بمرآتهـا وزجاجـات عطرهـا ويفـتح أحـد أدراجهـا ويخـرج مـا بداخلـه ومنهـا الصـور العائلية التي يتأملها حيث يركز على إحدى هذه الصور التي يظهر فيها جالسـاً على مقعـد كـبير وأمـه تمسـك بيـده الصغـيرة، وهمـا الاثنان يبتسـمان نفس الابتسامة، كانت هـذه اللحظة تفوق فيها سعادته أكثر من خروجـه مع عمـه المهتم بالشـعر والأدب والفـن التشكيلي والمسرح والسينما.

" أمي، تفتحـت عينـاي وأنـا طفـل صغـير على بـراءة وجههـا وحنـان قلبهـا، بمجـرد أن كنـت أجلـس بجـوارهـا أشعـر بدفـء غـير عـادي يتملكـني إحسـاس بالأمـان بفضلهـا كانـت طفـولتي مثاليـة وكنـا أسـرة سعيـدة تعيـش في الإسكنـدرية وسبـب السعـادة أن أبي وأمي جمعـت بينهمـا قصـة حـب لـذلـك علمتـني أمي ماهيـة الحـب منذ نعومة أظفاري".

لـم يـراوغ عمـر الشـريف ولـم يكـذب أو يتجمـل حـين اسـترجع طفولتـه متخليـاً عـن رداء "الـنجم" الـذي تحيطـه هالـة مـن القدسـية، وحكـى أن أمـه علمتـه أيضـاً القمـار، تفتحـت عينـاه ليجدها كل ليلة تلعب الورق أمامه بشـغف، وهو السر المعلن في

حياته والذي باح به دائماً في حواراته وأحاديثه الصحفية، ففي حواره مع الكاتبة الفرنسية "ماري تريز جوينشار" عن حياته وأمه وأبيه وعلاقته بالنساء والبريدج، نشر في كتاب قام بترجمته عبدالمنعم سليم، قال: "أمي كانت أنيقة، ظريفة، مثيرة للاهتمام، أيضاً كانت مغرية وتعرف كيف تستعمل هذا الإغراء، وتعرف كيف تختار الكلمة الصحيحة لكي تسيطر على نفسها".

ويضيف: "إنني أستطيع أن أراها الآن لقد كانت جميلة بمستوى الجمال في تلك الأيام، كانت تشبه ممثلات الثلاثينيات، طولها متوسط، متينة البنيان، وكان أكثر مايميزها ظرفها وجمالها، شعرها الطبيعي كان أحمر اللون، وكان لها أن تدفع ثمن بهائها، فمثل كل هؤلاء ذوات الشعر الأحمر، كان النمش يغطي وجهها، عندما كانت صغيرة حاولت أن تزيل النمش، وأحد المتخصصين في مسائل التجميل حاول ذلك ولكن هذا سبب لها ضيقاً لاحد له".

وعندما نصل إلى هذه النقطة لا يتعثر السرد، لكنه يتوغل أكثر في مساحة خاصة لا يمكن التراجع عنها لأنها تكشف جزء من شخصية النجم الذي حطم النمط العربي في شكل النجوم ومسار حياتهم، فعلاقته بأمه هي التي حددت موقفه من الحياة منذ البداية وصنعت صورة الإنسان بداخله، الأدمي الذي يبحث عن نفسه خارج الأشياء، وبينما كانت علاقته بأبيه يشوبها كثير

من التوتر ومحاولة الفكاك من قواعد والده البرجماتي المنشغل بتجارته والتي تتناقض مع قواعد عمر غير الثابتة وغير المهتمة بالمال أساساً، ومع ذلك فقد كان والده في أغلب الأحيان هو صوت العقل داخله. كان بوصلته التي يلجأ إليها حين يشعر بالتوهان أو اهتزاز الأرض تحت قدميه.

"أبي كان طويلاً جداً ورشيقاً، ولابد أنه تدرج في عمره وهو منحن، عندما أفكر فيه الآن أراه متوسط الطول. أما أنا فأقل منه طولاً، بنصف بوصة ولست أعد من هؤلاء طوال القامة وربما الحكاية لا تزيد على أنها هيئة عامة. وكان شعر أبي أسود دائماً ولكنه تحول إلى اللون الأبيض في الشيخوخة. وكان نحيفاً ولكنه تخلى عن نحافته بعد ذلك وأصبح له (كرش) وكان معدوداً دائماً بين الرجال ذوي الوسامة. كان أيضاً رجلاً طيباً، كريماً لأسرته ولكل شخص آخر. تربى أبي في مدارس الرهبان أما أمي ففي مدارس الراهبات، وكان أبواي مرتبطين ببعضهما البعض تماماً، ولم يكونا يقرآن كثيراً في مسائل الدين ولكنهما كانا صريحين وواضحين، متدينين بمعنى أنهما لا يفعلان ولا يفكران في الشر. وكان أبي بالذات حالة متطرفة من ناحية استقامته ومن ناحية مثاليته، رجل أعمال ذكي لم يستخدم أي تكنيك فيه احتيال. أما أمي فكانت ماكرة.. ماكرة إلى أقصى درجة، وهكذا فقد كانت لدينا، هي وأنا مشكلة. حتى

عندما كنت طفلاً فإنني كنت أعرف دائماً ما الذي تفكر فيه، وكانت هي تعرف أنني أعرف ذلك ولم يكن يسعدها ذلك، لقد رباني والداي بحزم".

قد يكون هذا الحزم هو السلاح الذي اتخذته أمه لتخرجه من ظلام عزلته، فهي كانت لا تريد لابنها مقعداً مهجوراً في الحياة وخافت أن يكون شخصاً حيادياً كغيره الكثيرين من الأولاد العاديين، وفكرت أنها لم تنجبه ليكون عادياً، أرادته أن يكون مثالياً على كل المستويات، حتى أنها حين تعثرت في منعه عن التهام الطعام الذي زاد من وزنه كانت لا تكف عن تأنيبه ليمتنع ولما وجدت أن الأمر صعباً، أبعدته عن التعليم الفرنسي وألحقته بمدرسة انجليزية صارمة ليخضع للنظام الكلاسيكي ويتدرب على الالتزام. الأمر كان على هذا النحو من الشدة التي تتنافى مع التدليل، فالأم لم تكن تريد مجرد صبي صغير مدلل وأفزعها أن وجدت ابنها الوحيد التي أرادته أن يكون جميلاً دائماً وقد أصابته بدانة مفرطة وملفتة لدرجة أنه صار محط التعليقات الساخرة من كل المحيطين به، ما تسبب في قلقها الشديد وقررت في لحظة حاسمة أن يفارقها ابنها بأن تلحقه بمدرسة داخلية تبدي عناية بالرياضة وفيها حصص رياضية إلزامية وكذلك ملاعب متنوعة لممارسة هذه الرياضة ليستعيد ابنها رشاقته ويصبح قوامه رياضياً، وبالفعل قامت بإلحاقه بـ (فيكتوريا كوليدج) أشهر

مدرسة انجليزية في مصر، وهي المدرسة التي تركت في نفسه وتكوينه أثراً بالغاً ففيها تعرف على ملوك ومفكرين ونجوم من الملك حسين إلى المفكر إدوارد سعيد مروراً بالمخرج يوسف شاهين، ولو لم يلتحق بهذه المدرسة لكان شخصاً آخر غير عمر الشريف الذي عرفناه.

"أنا يوم ما اتولدت قررت أمي في مخها كدة إني أنا راح أكون راجل مشهور في العالم كله، وراح أبقى أحلى واحد في العالم، ولذلك كانت مثلاً لما ابتدأت أروح المدرسة لو ما جبتش الأول في المدرسة تحطني على السرير كدهو على بطني وتقلع الشبشب وتعطيني علقة على المؤخرة بتاعتي، ما بتوجعش قوي يعني تلسع شوية، لكن ضرب الحبيب زي أكل الزبيب، فما كانتش تقبل مني إلا إذا كنت ممتاز في كل شيء، وبعدين أنا ما كنتش راح أبقى ممثل مشهور ووسيم زي ما الناس بتقول عني، ولا كنت داخل دنيا التمثيل خالص إلا بعد اللي حصل لي وأنا في سن 11 أو 12 سنة. كنت في السن دي بحب الجلاس، الأكل والحلويات والشوكولاته والحاجات الحلوة كلها، وكنت باكل منها بشراهة عجيبة فطبعاً تخنت. أمي صرخت وقالت: الواد وحش، الواد تخن، بقى وحش قوي ما ينفعش، فهي كانت مش مثقفة والدتي، كانت ست متعلمة لكن مش مثقفة يعني ما بتقراش كتب وحاجات كده، فقالت:

فين أوحش أكل في العالم عشان أبعثه عنده، عشان ما ياكلش؟ عشان يخس، لأن الأكل في البيت كان جنان، فأكلنا كان سوري ولبناني، يعني بناكل أكل ثقيل مش أكل خفيف، فتة بقي وحاجات زي كده، فقالت أمي: إنجلترا، أوحش أكل في العالم الأكل الانجليزي، وماكدبتش خبر فراحت بعتتني على طول لمدرسة إنجليزية داخلية، ما قدرش أخرج يعني آكل الظهر وبالليل في المدرسة أكل ما يتاكلش، طبعاً بعد الأكل اللي في البيت ما قدرتش آكل الأكل ده فخسيت وكنت بلعب رياضة، المدارس الإنجليزية فيها رياضة كتير ألعاب كرة وألعب كريكت، كريكت لعبة إنجليزية، وكده فخسيت فانبسطت، وفي نفس الوقت تعلمت انجليزي، لو ما كنتش تعلمت انجليزي ما كانوش أخدوني عشان لورانس العرب ولا شفت العالمية ولا غيره".

أول ما تعلمه في فيكتوريا كوليدج هو أن بعض الناس حمقى، كانت انتهت طفولته واكتشف أن العالم أعقد وأصعب بشكل أكثر إزعاجاً مما توقع، قضى طفولته كلها مع عائلته المتشابكة التي وفرت له الرعاية والاهتمام وكان هو بالنسبة لها محوراً مهماً، ولم يحرره تعليمه الفرنسي من وهم أن يكون هو وحده محور العالم حوله وأن هناك آخرون في هذا العالم، وهو ما أثاره في مدرسته الانجليزية الجديدة وربما كان سبب ضربه

لزملائه الأصغر منه كما قال المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد في مذكراته: "كان يهوى ضرب وتعذيب الزملاء الأصغر منه". لابد أنه رأى فيهم شيئاً استفزه، كأن يكونوا مثله لم يتحرروا من كونهم مركزية العالم، وهذا أمر اعتبره لا يخلو من حماقة، لكن بمرور الوقت أدركت المدرسة والزملاء أن ثمة تغيير حدث له، فقد حصل على رشاقته والصورة الجميلة التي سعت أمه لوضعه في إطارها، وأصبح أيضاً طالباً مجتهداً ومتفوقاً وترتيبه الأول دائماً حتى أنه أصيب بالدهشة حين جاء ترتيبه الثاني ذات مرة، وكانا والداه يتابعانه من بعيد ويحفزانه على مواصلة المشوار، فالأب كان يريد لابنه أن يسلك درب التعليم وينجح بتفوق ليقف فيما بعد بجواره ويساعده في عمله التجاري، أما الأم فكانت تريد أن ترى ابنها الجميل مرموقاً وسط أقرانه من أبناء الطبقات الراقية والثرية كما أرادات دائماً، أما الابن فقد أسعده أن اكتشف شيء آخر في مدرسته وهو السلطة، فيما كان لا يعرف سوى أمه مصدراً للسلطة والتحكم فيه، غير أن هذه الصورة التى تبدو مشرقة وسعيدة ظاهرياً، لم تكن كذلك طوال الوقت فمثلا كان محرّماً عليه وعلى زملائه التحدث بلغة أخرى غير اللغة الانجليزية، فإن ضبط واحد منهم وهو يفعل ذلك يُسلّط عليه عقاباً شديداً، حتى أن المفكر الراحل إدوارد سعيد الذي كان تلميذاً بهذه المدرسة في ذلك الوقت، قد

تمّ طرده من "فيكتوريا كوليدج" بتهمة "الشغب" لأنه كان يعيش هذا الاغتراب اللغوي بين هويته ولغته الأم وبين مناخ آخر تفرضه عليه المدرسة التي تنتهج النهج البريطاني، وهو نفسه الاغتراب الذي لازمه طوال حياته، منذ منحته أمه اسم "إدوارد" لأنها كانت معجبة بأمير ويلز، وارث العرش البريطانى الذى كان نجمه لامعاً عام 1935، طرد إدوارد من فيكتوريا كوليدج رغم ذكائه لأنه كان ثائراً يشعر بالارتباك بين جنسيته الفلسطينية واسمه البريطاني وإصرار عائلته على اغترابه، فبعد خروجه من فيكتوريا كوليدج أرسله والده إلى الولايات المتحدة الأمريكية لينتسب إلى مدرسة متقشفة فى الركن الشمالى الغربى من "ماساتشوستس" حيث ظل بأمريكا حتى آخر عمره محروماً من هويته العربية بعد أن حصل على الجنسية الأمريكية وهذا ما كان يؤلمه، كتب إدوارد سعيد يقول: "وقع خطأ فى الطريقة التى تمّ بها اختراعى وتركيبي فى عالم والديّ، وشقيقاتى الأربع، فخلال القسط الأوفر من حياتى المبكرة، لم أستطع أن أتبيّن ما إذا كان ناجماً عن خطئي المستمر فى تمثيل دوري أو عن عطب كبير فى كياني ذاته، وقد تصرّفت أحياناً تجاه الأمر بمعاندة وفخر وأحياناً وجدت نفسي كائناً يكاد أن يكون عديم الشخصية، وخجولاً ومتردّداً وفاقداً للإرادة غير أن الغالب كان شعوري الدائم أنني في غير مكاني".

وكان ميشيل زعيم المتكبرين، كما وصفه إدوارد سعيد في مذكراته، واستطاع أن يتجاوز ذلك الارتباك بين الهوية الأصلية والاغتراب، ومع صغر سنه في مدرسته الانجليزية المتشددة عرف كيف يتعامل مع الأمر، لم يسمح لأي عقاب أو تصرف ما فرصة كي يترك جرحاً في روحه كما حدث مع إدوارد سعيد. في البداية هاله الأمر وأفزعه أن يترك منزل أسرته وأمه التي يتعلق بها جداً ليذهب إلى مدرسة ضخمة لا يعرف فيها أحداً ولا يعرف كيف يتصرف في هذه السن الصغيرة أو ما الذي يفعله وهو محروم من كل الأشياء التي يحبها حتى الطعام هنا في هذه المدرسة سيء جداً، لكنه سرعان ما قرر أن يقبل التحدي ويواصل المشوار الذي اختارته له أمه ويثبت لها أنه شجاع يستطيع التحمل.

"لم يكن أمامي مفر، فإما أن أقبل الوضع الجديد في هذه المدرسة وإما أن أغضب أمي .. وأنا لا أستطيع ذلك أبداً، فبدأت أبحث عن مميزات موجودة في المدرسة، ومع مرور الأيام وجدتها مدرسة جميلة ووجدت أصحاب ورفاق رائعين، وبدأت حياتي تأخذ مسار مختلف تماماً".

ربما كانت فكرة تقبل ميشيل للمدرسة خطوة تكتيكية منه لأشياء وأحداث ستقع فيما بعد ولم يدركها هو نفسه لحظتها، فأمثاله من أبناء برج الحمل لا يرضون بأوضاعهم بسهولة، كما أنه شخصية شجاعة وذكية وصريحة تمتلك من الثقة بنفسها

ما يجعلها تؤثر في الآخرين بسهولة، وهنا استطاع تكوين شلة أصدقائه التي أعانته على حياته الجديدة، وصار يفعل كل شيء ليتشبع بالوضع الجديد الذي حدد مصيره المستقبلي بعيداً عن رغبة الأب وأحلام الأم، بحيث يمكن القول بأن الشيء الرئيسي الذي تعلمه في المدرسة أنه لا يكفي أن تقبل حقائق الحياة بدون التساؤل عنها، وبالتالي لا يصح أن تحقق رغبات الآخرين إذا لم تلق هوى لديك وتجيب عن كل أسئلتك. فما إن اندمج ميشيل مع أجواء الزملاء في المدرسة، وذابت السلوكيات التي كانت تغضب أمه، ثم انخرط في أنشطة اجتماعية وفنية، وتعلق بأنشطة فريق المسرح، عاد وأعلن التمرد، رافعاً راية العصيان ورافضاً الانتظام في الدراسة، وعادت الأم للتأنيب والتهديد، ثم حرضت الأب على اصطحاب الولد للعمل معه في التجارة، وفجأة وجد الفتى الحائر نفسه يعيش حياة جافة وشاقة، مع عمال وسيارات نقل أخشاب وزبائن لا ينتمون إلى طبقته وثقافته، فعاد لأسلوبه القديم، الاحتماء بالظل والانطواء والعزلة، وشعر والده بالقلق، وترك له حرية اختيار حياته كما يريد.

"دخل أبي غرفتي ومشاعر التأثر على وجهه، ضاحكني بحب، ثم قال لي: فكر في مستقبلك، وحدد طريقك بنفسك، فالإنسان يعيش الحياة مرة واحدة، فلا تضيعها في التعاسة والعزلة، وكل ما أرجوه منك أن تتصرف دائماً بعقل وحكمة".

الفصل الثاني

عمر

ساورته منذ طفولته فكرة الأصل والصورة، قوة الظل تتبع عنفوان الجسد، كان مثل الصغار يراقب ظله وربما منحه اسماً وجعله صديقه المتخيل أو توأمه أو بالمعنى الأقرب لحالته فهو قرينه، لا يهم في التوصيف سوى أنه يشبهه ويرتبط به كثيراً، نفس العينين الجميلتين تخبئ عصف داخلي لا يمكن أن يُحَسْ إلا برفة الجفن على إيقاع مستتر يستجمع عزفه حتى لا تتبدد كلماته المتباطئة حين يقرر الكلام، وحتى لا تتناثر طاقته حين تشاكسه الروح ولا تمتثل للجسد، أبيض هو كزبد البحر وعنيف هو كرياحه، وحين كانت تنتابه لحظات ضيق لأي سبب يخص طفولته، كان يلتحم بظله أو بنصفه الخفي الآخر ويتخيل متعة التحول، لم يسبب له هذا الأمر خوفاً أو يجعله فريسة سهلة لفخ الأوهام، لكنه اعتاد الدوران في هذه الثنائية مع شبحه، هو الابن المدلل لأمه والآخر ابن رغباته في التحليق، له حياته التي صنعتها

له عائلته؛ وله أيضاً حياته على قدر أحلامه وأسئلته الخاصة عن مصيره في غد رآه جميلاً لا تنتقص فوضويته من هذا الجمال.

ميشيل الاسم الذي اختارته له العائلة وعمر الاسم الآخر الذي قاده من المجاز إلى واقع منحه فرص القفز من على الأسوار، الاسم الأول (ميشيل) انجليزي يدل على معنى ديني للرجل الكنسي كامل التجربة، والاسم الثاني (عمر) عربي وهو اسم تفاؤلي وإشارة للحياة الطويلة والعمر المديد، وهو بين الاسمين يصارع كنورس بحر يغطس في المياه ويحمل نفسه بين موجتين.

فيكتوريا كوليدج كانت جسره للصعود ووضع النقاط على الحروف، فقد نجح ميشيل فيما سعت وراءه أمه وحصل على رشاقته وجسمه الرياضي، وتعلم أيضاً أن تكون أحلامه كبيرة، وتحول من تلميذ مشاغب إلى طموح يهتم بقواعد مدرسته، كان مسرح المدرسة هو ما ألهمه. حيث لعب دوراً صغيراً فى أول إنتاجه، الدوق الخفيّ، مخفي فى صندوق صغير على خشبة المسرح أغلب المسرحية. وكانت الإثارة عندما فاجأ المشاهدين بخروجه المفاجئ وهو ما جعله مدمناً للتمثيل منذ البداية.

"لقد انسجمت بسرعة خاصة أنني قررت أن أتمتع بكل ما حولي وألاحظه بمنظور مختلف يسعدني، وهنا اكتشفت أنني أريد أن أكون ممثلاً حيث تعرفت على المسرح المدرسي وقدمت

عليه العديد من التجارب والمسرحيات العالمية وكان عمري لايتجاوز الثانية عشر، وكل يوم كان يزداد ولعي بالتمثيل، وكنا ساعات نتجمع أنا وأصحابي ونمثل أي فصل من مسرحية عالمية، كانت دي مسألة بتسعدنا أوي، يوسف شاهين نفسه كان بيعمل كدة برضة ساعات، مرة حكى لي بعد كدة لما اتعرفنا وبقينا اصحاب، انه راح المدرسة في يوم واستعرض مواهبه ووقف قدام فصل من 30 تلميذ وراح مقدم لهم مونولوج هاملت أحد أبطال تراجيديا شكسبير. قدمه حلو أوي وأنهى المشهد بالدموع وراح كل يصقف أوي، أعتقد أن يوسف شاهين يومها اكتشف اللي أنا اكتشفته ان الفن طريقة من طرق إثبات الوجود".

الفن طريقة من طرق إثبات الوجود، هي اكتشاف مذهل لصبي في مدرسة انجليزية متشددة، وطبيعي كان من الصعب أن يتنازل عن هذا الاكتشاف، فراح ينميه ويعمق من إحساسه به، وساعده على ذلك عمه المحب للفنون والذي كان منارته لاكتشافها بشكل آخر.

"عمي كان يدفعني لمرافقته دائماً ويصطحبني من يدي لندوات الشعر والرسم وكل ما هو جديد في عالم السينما والتمثيل، وزرع في نفسي عشق الأدب، فكان ينتقي لي مجموعة كتب لأدباء عظماء مثل أناتول فرانس والفونسي دوريه وكان

يشجعني على القراءة بصفة منتظمة، وساعدني كثيراً على تذوق الروائع، وعن طريقه تعرفت على السينما الفرنسية وأصبحت شغوفاً بها ومن هنا كنت أنتظر يوم الاثنين من كل أسبوع لكي أذهب معه إلى السينما لرؤية فيلم فرنسي جديد والغريب حقاً أنني كنت لا أشاهد السينما المصرية فكانت هناك شبه قطيعة بيني وبينها ولم أعرفها إلا بعدما صرت ممثلاً وكان لا بد أن أتابع كل ما يجري من حولي".

وكما كانت فيكتوريا كوليدج هي بداية مسار التحولات في حياته، فإن هجرته الأولى من الاسكندرية إلى جاردن سيتي في القاهرة كانت التحول الثاني الأعظم، لكن هل كان ميشيل يعبأ بهذا التغيير؟ هل ارتاح للفكرة؟ صحيح أنه كان لا يملك سوى الانصياع لقرار والده والسفر مع عائلته، فهو في أول الأمر وآخره مجرد صبي صغير لا يستطيع أن يستقل بدربه، وإنما السؤال الذي وجهته له كنت أحاول من خلاله أن أخمش روحه وأفهم علاقته بالأماكن، فإذا به يحكي عن تأملاته السريعة لمدينته الجميلة على ساحل البحر المتوسط، وعن البحر نفسه الذي يعيد الروح للمدينة، وعن الزمن المتغير بين المياه والشاطئ الرملي، اعتاد ميشيل الصغير المنزل القديم والبحر والشوارع والطرقات المؤدية له، كأنه مشهد متكرر في فيلم أبيض وأسود قديم، تفاصيل حميمية من الصعب إسقاطها أو إهمالها، فهي

إما تقود إلى قصة رومانسية أو نهاية مرعبة أو رحيل في أبسط توقع، ولكل هذا انجذب ميشيل لهذا العالم الصاخب والباهت في ذات الوقت، الصيف والشتاء، الإثنان سوياً دون فرق وهو ما يصعب أكثر الإمساك بملمح ثابت لشخصية هذا الصغير المحيّر الذي ينتابه شعور عميق بالألفة في منزل كليوباترا القريب من البحر يكاد ينسدل كدانتيل ناعم في ضوء مصباح غرفته الخافت، فيما إن غادر المنزل كان يتلهف على الآخر الجديد ولديه هذا الشغف لمعرفة وتحركه رغبة في استكشاف آفاق جديدة للحياة.

قرر الأب أن ينقل أعماله إلى القاهرة واختار جاردن سيتي عنواناً لإقامة عائلته في شقة بعمارة حديثة مكونة من 12 طابق، إلى شقة في عمارة أخرى فاخرة، ثم كان المستقر النهائي في بيت كبير أكثر أناقة يطل على النيل بين سفارتي الولايات المتحدة وبريطانيا، وسط قصور أغنياء انحدر أغلبهم من العائلات العريقة، قصور تفاوتت فيها مستويات الإضاءة وكذلك الضجيج والهدوء كأنها متاحف تتفاوض على الحياة في هذا الحي الذي يعد واحداً من أرقى أحياء القاهرة كان في الزمن القديم برك ومستنقعات حولها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، تاسع سلاطين الدولة المملوكية البحرية، لميدان كبير زرعه بالأشجار والورود، ثم أسسه الخديوي إسماعيل لتعيش به الطبقة العليا

مـن المجتمـع لاسـتقبال وضـيافة الأجانـب عنـد افتتـاح قنـاة السويس، هذه النقلة النوعية من الاسكندرية إلى القاهرة طبعت أول إشـارة على توقـه الكـبير بالسـفر واكتشـاف سـموات أخـرى لطائر الشمال الحر الذي يعشق التحليق، كما صاحبها بداية أيام الحظ السعيد كما وصفها عمر الشريف بنفسه: **"كنت أعرف ما معنى هذا الصعود الاجتماعي. كنت أسمعهم يتكلمون في البيت بأن أبي يكسب أموالاً كثيرة، بينما كانت أمي تصرف كثيراً هي الأخرى على مائدة القمار".**

هذا المال الذي هبط فجأة على والده تاجر الأخشاب ورجل الأعمال غير حياتهم تماماً، وجعل والدته تتشبث أكثر باللعب، فبدلاً من أن تكتفي بمائدة قمارها راحت تتوسع حتى أنها صنعت ديكور البيت على هيئة كازينوهات القمار، وكان بين روادها نجوم المجتمع والباشوات وحتى الملك فاروق نفسه الذي تعرفت عليه بعد أن نقلت نشاطها في لعب القمار من البيت إلى النوادي وكان ذلك في نادي محمد علي، حيث كان الملك فاروق يجلس على مائدة أخرى ورآها ثم أعجب بها وهي تلعب على المنضدة أمامه، فأرسل إليها الملك فاروق "بوللي" سكرتيره الإيطالي ليخبرها برغبته في اللعب معها لكنها رفضت بحجة أنها لاتستطيع أن تجاريه في اللعب وفي مضارباته، لكن الملك كرر طلبه فوافقت خاصة عندما أقنعها زوجها أن تلاعب الملك.

كانت هذه هي الصورة التي شاهدها ميشيل بعدما انتقل من بيت ثري إلى بيت أكثر ثراءً في حياة مخملية عاشها، على العكس من الحياة التي عاشها المصريون في تلك الفترة والتي تميزت بشظف العيش والفقر، حيث عانى أبناء البلد من تمييز عنصري كبير في علاقتهم بالأجانب سواء على المستوى الاجتماعي أو على مستوى التفاوت الكبير في الدخل والثروة، ما أشاع موجات مختلطة من الشعور العنصري، إذ نظرت كل فئة للأخرى وكأنها تنتمي إلى "جنس" أو نوع مختلف من البشر، حسب وصف الكاتب والمفكر د. جلال أمين في إحدى مقالاته عن هذه المرحلة التاريخية في مصر وخضوع المصريين للحكم الأجنبي، حيث التفاوت في الدخول والانقسام الحديدي بين الطبقات، ما جعل ميزان العدالة الاجتماعية يميل بشكل فاق الحدود، وخرجت الصورة عن إطارها بحيث لم تعد الناس على سجيتها بل تكرس أيضاً الشعور بأن الفقير سيظل على حاله فقيراً يورث فقره لسابع جيل من أحفاده، وكذلك الثري سيظل على ثرائه حتى الأبد، فيما كانت الطبقة الوسطى في هذه المرحلة صغيرة، لا تتجاوز ٢٠% من السكان، إذ كانت الغالبية العظمى من المصريين (أقل قليلاً من ٨٠%) من الفلاحين الفقراء، ونسبة صغيرة (لا تزيد على ١% من السكان) تمثل الطبقة العليا، وعلى صغر حجم الطبقة الوسطى إلا أنها امتلكت فهماً للدين أكثر عقلانية وأقل

تأثراً بالخرافات، يقول عنه د. جلال أمين: "ومن ثم كان من الممكن جداً أن يجتمع شعور ديني قوي، مع فهم عقلاني للغاية للحياة، وتسامح رائع مع أصحاب الديانات الأخرى أو المواقف المخالفة من الدين".

لعل هذا الفهم العقلاني الذي استولد التسامح، هو ما عاشه عمر الشريف منذ أن كان الصغير ميشيل كواحد من أبناء الطبقة الوسطى شهدت عائلته صعوداً اجتماعياً منحه الثقة والقدرة على الحوار كرد فعل مناسب لوضعه الاجتماعي.

" أنا ابن مصر لن يسلبني أحد هذا الحق، لم اختر مصر وطني ولكنها سكنت وجداني، كل جزء في الاسكندرية أو القاهرة ساهم في تكويني، لم اختر عائلتي ولكنها كانت جزءاً من نسيج هذا المجتمع بناسه وواقعه الاجتماعي أو الاقتصادي، ومصر في الثلاثينيات والأربعينيات كنت أراها متسامحة تعيش فيها العائلات من أصول دينية مختلفة مع بعضهم البعض سواء كانوا يهوداً أو مسيحيين أو مسلمين".

لا يوجد في كلامه ما يثير الدهشة، ولا ما يعبر عن إحساس بمخاوف ما تتوارى وراء الكلمات كنوع من الدوران البارع حول المشهد العام الذي يتصاعد أو يتلاشى حسب الحدث، كان يدرك جيداً أصوله الشامية المرحب بها في مصر، كما كان يرى المصريون يسأمون من التمييز بينهم وبين الأغراب أو الأجانب كما

صورتهم الروايات والسينما في أفلامها التي ظهرت في الثلاثينيات والأربعينيات، وهي الأفلام التي يقول عنها د.محمد كامل القليوبي في دراسة له بعنوان (السينما المصرية 1896 - 1935 سنوات التكوين)، أنها أخذت على عاتقها الترويج لفكرة أن الأجانب هم أصل الشرور والبلاء، وهي الفكرة التي انطلقت أفلام سينمائية عدة تروج لها وأثارت ضجة كبرى خاصة بعد ما تنبه الأجانب إلى الدور الذي تلعبه السينما المصرية، فتحول الأمر من حملة تحريض في مواجهة الأجانب إلى معركة مشتعلة خارج السينما تناقلتها الصحف.

عمر الشريف حينذاك كان أصغر من أن يتذكر هذه المعارك، لكنه كان أدرك جيداً أنه مصرياً وليس أجنبياً، بالضبط كما أدرك حالة الفقر التي عانى منها المصريون: "كنت صغيراً ولكني كنت أرى الفقر في عيون كثيرن أصادفهم في الشارع وأنظر جيداً إلى عيونهم ولا أفهم لماذا هم مختلفون؟".

ربما عدم فهمه لنظرة الفقراء في الشارع عندما كان صغيراً طاردته عندما كبر ووصل إلى مرحلة من النضج الحقيقي وأراد أن يفهمها بشكل أعمق، وهذا ما عبر عنه في حواره مع الإعلامية جيزيل خوري في برنامجها "بالعربي"على شاشة العربية:

عمر الشريف: أهلي برجوازيين كانوا.

جيزيل خوري: بس أديش أنت تتحسس مع الفقير؟

عمر الشريف: أنا بحب الفقير.

جيزيل خوري: يعني ابن البلد الموجود بالشارع وبالطريق؟

عمر الشريف: أنا بحب.. ما بحب غير الفقير.

جيزيل خوري: ليه؟

عمر الشريف: لأني يمكن عشان تربيت في جو برجوازي وأبويا كان عنده شيء من المال مش غني جداً إنما غني كان الحمد لله يعني ووالدتي وكده، فأنا ولدت في مصر، ومصر بلد فيها فقراء كثير، وكنت أمشي في الشارع وأشوف الناس الفقراء، والناس الفقراء في مصر أو في البلاد العربية عموماً مش في كل البلاد إنما في مصر خصوصاً فيهم ميزة عجيبة يعني ما كنت فاهمها، أشوف واحد فقير ماشي في الشارع شايف لابس جلابية متقطعة متدهور شكله فقير جداً يعني وجهه كده ما أكلش يمكن كذا يوم أو جوعان، أقوم أنده له كده في الشارع أقوله: تعال، هم الناس بيحبوني، كان في مصر الناس اللي في الشارع كانوا يحبوني جداً يعني دائماً ييجوا يكلموني، أقول له: أنت راجل فقير؟ يقول لي: آه، أنا فقير، أقول له: طيب أنت شوف جلابيتك متقطعة كده، ولادك، عندك كم؟ يقول لي: عندي سبعة، الحمد لله، أقول له: ما شاء الله ربنا يخليهم لك، طيب وتوكلهم إزاي؟ وتكسيهم إزاي؟ بتوديهم مدارس وتعلمهم إزاي؟ فيقول لي: بص بقا أهي دي حاجة مش رح أنساها طول عمري، بدل ما يرد بكلام عمل لي كده هو

[حركات عشوائية باليدين والعيون متطلعة إلى الأعلى] أقول له: طيب إيه يعني؟ شوفي بقا ده فيها ربنا، يقول لك: ربنا موجود.

المهم أن عمر الشريف أدرك جيداً أن الفقر آفة غليظة وهو سبب كثير من "البلاوي"، وهو لا يبحث عن سبب الفقر، لكنه كسائر أبناء البرجوازية حاول أن يقترح حلاً. فحين سألته جيزيل خوري في نفس الحوار: أنت تخاف من الفقر؟ يقول عمر الشريف: لا، بس أنا عايز.. شوفي طالما الشعب العربي مش راح يلاقي يملا بطنه ويأكل ويتعلم ويتثقف راح تبقى حالتنا دائماً كده هو، يعني مش راح نقدر نتقدم، لازم الناس الأغنياء يعملوا مجهود في التعليم خصوصاً. أنا عايز أنا مش بطلب من الناس يعطوا فلوس أو يعملوا حاجات منهم، بس يبنوا مدارس، يسعوا في تعليم الشعوب العربية الإسلامية أو الغير إسلامية، إنه لازم الناس تتعلم عشان تقدري تعملي ديمقراطية، ده الوقت عايزين يتكلموا عن الديمقراطية، ده شيء مهم جداً، لأن الديمقراطية استحالة طالما الناس جاهلة يعرفوش يقرؤوا ويكتبوا ينتخب مين؟ هو شو عرّفه في الانتخاب أو البرلمان، البرلمان يقول لك: مين في البرلمان؟ ما هو ناس حرامية..

جيزيل خوري: أنت ما انتخبت؟

عمر الشريف: إحنا عندنا الناس الفقراء يقول لك: دول حرامية، كل الناس الأغنياء حرامية، تفكير الشعب كده، يقول

لك: حلال عليه يغتني إحنا ما عندنا مثلاً في كل البلاد العالم تلاقي الفقير يحقد على الغني إلا في البلاد العربية، يقول لك: حلال عليه، ربنا يزيده ويزيده..

جيزيل خوري: في مصر؟ مصر هي يمكن وضع كثير خاص إذا هيك يعني.

عمر الشريف: بس برضه في الإسلام كده، يعني في الإسلام التفكير كده، يقول لك: ربنا قال إن عملتكم أغنياء وفقراء عشان الغني يقدر يكسب الجنة على قد ما يعطي الفقير، لو ما فيش فقراء مش راح لاقي أحد أعطي له فلوس، ما هو ده من ضمن الأساس بتاع الدين..

جيزيل خوري: بس أنت ما رأيك أن هيدا الفقر اللي حكيت عنه هو اللي وصّل العالم العربي إلى التشدد الديني؟ إلى الإرهاب؟

عمر الشريف: قطعاً..

جيزيل خوري: إلى صورتنا الإرهابية اللي موجودة في كل العالم؟

عمر الشريف: 100% ، 100% اللي بطنه مليانة، والمبسوط قادر يوكل ولاده ويعيّش عيلته ويكسيهم ما يعملش كده، ما يعملش إرهاب.

***

القدر منح ميشيل ضربة الحظ الفني التي حولته من تلميذ خائب الرجا إلى نجم سينمائي بعد استقراره في القاهرة وتغيرت برامجه، هناك سطعت شمس جديدة في حياة ميشيل ولم يعد هناك مفر من هذا الطريق، فقد وقع في هوى الفن ولا يملك سوى أن يتوغل فيه أكثر، وأعد نفسه لمعركة كبيرة مع والديه، فهو بهذه الخطوة خان آمال والده في ابنه الذي يعده ليكون رجل تجارة، وكسر تطلعات أمه في رؤية ابنها في نفس صف أبناء صفوة المجتمع، فعشقه للتمثيل دفعه للمساهمة في نشاطات الجمعية المسرحية في الكلية، وشعر في المسرح بمتعة كبيرة، خصوصاً حين وجد زملائه وأساتذته يثنون على أدائه مما ضاعف من ثقته بنفسه، فشعر أن التمثيل هو قدره الذي اعترض عليه والديه، والتحق بجامعة القاهرة حيث درس الرياضيات والفيزياء، وبعد تخرجه في الكلية، عمل لمدة 5 أعوام بتجارة الأخشاب مع والده قبل أن يقرر دراسة التمثيل في الأكاديمية الملكية للفنون الدرامية بالعاصمة البريطانية، لندن.

"كان أبي معترضاً تماماً فقد كان حريصاً على متابعة تحصيلي العلمي خاصة بعد حصولي على البكالوريا بتفوق فأصر على أن أستكمل دراستي الجامعي، وأمي كانت مؤيدة تماماً لأبي فكانت ترى أن أتخصص في الرياضيات بعد ظهور كفاءتي في هذه المادة، ومن هنا كانت تصر على ضرورة حصولي

على شهادة عالية لكي تكون جواز مرور لحياة أفضل وأنا كنت عنيداً لأقصى درجة، وأدى بي ذلك للانقطاع عن الدراسة ولم يستسلم أبي وأمي لرغبتي وعنادي، فعاقبني والدي بمساعدته في تجارة الأخشاب، وفي المتجر علمني أبي أسرار المهنة وقدمني إلى زبائنه، والعمل كان شاقاً جداً بالنسبة لي وبدأت أشعر أن الزمن يسير ببطء شديد".

كانت أمه هي المفتاح لحل الأزمة حيث أفلح ميشيل في اللعب على عواطفها، وعرف أن ينفذ إليها وهي المرأة التي كانت لا تحذر من المغامرة طالما ستنقلها إلى النقطة التي ترغبها، رأى في غضبها وقلقها رغبة في حمايته، شعر بذلك في توسلاتها حيناً وأوامرها أحياناً والتي كانت تحمل قدراً هائلاً من عدم الاكتفاء بحد معين من المتعة في الحياة، تلك الرؤية لم تكن لتساعدها على فهم السبب الذي يجعله يترك المدرسة أو يهدد بالانتحار ليحقق اختياره ويكون ممثلاً، ويدمر حلمها الطبقي في أن يكون مثل أولاد العائلات الكبيرة مؤطراً في شكل نمطي للهوات، كان في نظرها مخطئاً وكانت تريد أن تقول له أنه ليس من حقه أن يقرر مصيره بدونها، لكن أمام إصراره وعناده كان لا مفر من الرضوخ حتى لا تفقده نهائياً.

" أمي ما كانتش بتفكر في التمثيل، هي زعلت لما قلت لها: أنا عايز أكون ممثل، زعلت و قالت لي: إيه ممثل ده؟ أرتيست

يعني لا، كان عيب أيامها، أنا لما كنت صغير كان وقت ثاني، كان التمثيل ده حاجة عيب عند الناس، رحت قلت لها: أنا بحب التمثيل، قالت لي: لا، قلت لها: بصي يا ماما يا راح أمثّل، يا راح أموّت نفسي، راح اقتل نفسي، راح انتحر، طبعاً ما كنتش ناوي أنتحر ولا حاجة، لكن أنا قلت أخوّفها، قالت لي: إزاي تعمل ده؟ فراحت لأبويا اللي كان مش راضي خالص هو كمان وكلمته، قالت له: لا، الواد راح ينتحر، خليه بقى يمثل، فخلوني .. لأن أبويا هو كمان بدأ يشعر بحالة الانطواء التي فرضتها على نفسي فشعر بقلق شديد وبدأ يتراجع عن أسلوب تعامله معي وترك لي الحرية في اختيار ما أريد ولكن بشروط".

لم يصدق ميشيل أنه حصل على موافقة والديه وراح يعد نفسه لكي يكون ممثلاً متذكراً نبوءة عرافة يونانية ذاع صيتها في الاسكندرية عام 1944 قالت له بأنه لن يعيش في مصر وسوف يلمع ويتألق في حياته، ويحصد أموالاً كثيرة، حينذاك استقبل ميشيل هذه النبوءة بثبات وهدوء في منتهى الدهشة والغرابة هو نفسه لم يعرف سببهما، لكن كان هناك هاجساً بداخله يقول له أن هذا سيحدث، بعد موافقة أهله على عمله بالتمثيل قرر أن يتعلم في انجلترا، وبدأ يجهز أوراقه وحاله لمرحلة جديدة في حياته، كان كل تفكيره يخص هذه الرحلة المجهولة التي أصبحت وشيكة، لكن قبل السفر بعشرة أيام حدث ما قلب كل أوراق

خطته وحول رحلته إلى اتجاه آخر، حيث قرر أن يبقى في مصر بعد أن هبطت عليه فجأة فرصة سينمائية لم يكن يتوقعها على الإطلاق، حين كان يجلس في جروبي بوسط القاهرة مع رفيق طفولته وصديقه أحمد رمزي يشربان الشاي قبل أن يأتي إليهما المخرج يوسف شاهين الذي رتب موعداً للقاء أحمد رمزي عبر صديق ثالث رشح له أحمد رمزي للحصول على دور في فيلمه الجديد، فراح شاهين يطيل النظر إلى ميشيل ورمزي وقال أنهما يمتلكان قدراً كبيراً من الوسامة للعمل في السينما، وكانت الوسامة من الشروط المهمة للسينما في ذلك الوقت، وسألهم أسئلة متقطعة لم يعرفا ماذا يعني بها، عن هوايتهم وإذا كانوا يعرفون ركوب الخيل ودراستهما وسهراتهما، وسأل ميشيل إذا كان يستطيع أن يجسد شخصية صعيدي يرتدي الجلباب الصعيدي، فأجابه: أقدر، ثم خرج ميشيل إلى الشارع فوجد رجلاً يرتدي جلباباً فطلبه منه مقابل مبلغاً من المال وارتدى ميشيل الجلباب ودخل على شاهين الذي فاجئه المشهد وأكد له أن هذا الشاب مستعد للمغامرة بأية طريقة حتى يدخل عالم التمثيل، بعدها ترك شاهين رمزي وميشيل وعاد بعد يومين وأخبر ميشيل أنه اختاره لبطولة فيلماً سينمائياً أمام فاتن حمامة.

"جاء يوسف شاهين قال لي أنا عندي فيلم راح أعمله مع أكبر ممثلة في العالم العربي فاتن حمامة، لو عايز تمثل أنا

أعمل لك تيست، أعمل لك تجربة كده، بس لازم هي تقبل، لازم تقبل أنها تمثل معاك فلازم تروح تشرب شاي عندها في البيت".

في البدء ارتبك ميشيل، إنها فرصة كبيرة لا تتكرر كثيراً، لكن ماذا عن مشاريع سفره ودراسته في الخارج؟ سؤال لم يؤرقه كثيراً لأنه قرر تأجيل أو بالأحرى إلغاء أية مشاريع أخرى والوقوف أمام نجمة كبيرة مثل فاتن حمامة، وبالرغم من أن الاختيار احتوى على مغامرة كبيرة خاصة وأنه سيطر عليه هاجس أنه قد ترفضه فاتن ولا ترغب أن يشاركها في فيلمها الجديد، لكنه قبل به بروح الشخص المقامر الذي يعرف قوانين اللعب ومخاطره، ثم أنه اعتبر أن نبوءة العرافة اليونانية قد تكون في طريقها للتحقق وأن المشاركة في فيلم مصري ربما تكون خطوته الأولى للسفر والمشاركة في السينما العالمية، أو ربما أن القدر نفسه يصالحه بعد أن أخفق في أول قصة حب، فقرر أن يدير دفة حياته كلها في اتجاه آخر.

***

كان قد مر بتجربة حب استمرت ست سنوات، بدأت حينما سافر إلى باريس مع والدته وهو في الخامسة عشر، وهناك تعرف على فتاة فرنسية كانت تصغره بيوم واحد فهو من مواليد (10 أبريل 1932) وهي من مواليد (11 أبريل 1932) وأسعده جداً أنه

علـم أنهـا أيضـاً في زيـارة لبـاريس وأنهـا تعـيش في الاسـكندرية، فتوطدت علاقتهما ووعدها بالزواج.

"اسـمها يـان لي مـور وكانـت أعـز صـديقة عرفتهـا، أحببتهـا ذلـك الحب "العيالي" الـذي بدأ في الصيـف ثـم تطـور إلى حـب خيـالي، لقـد أصـبحت حبيبهـا الأول لمـدة سـت سـنوات. كنـا نتقابل في الاسـكندرية في عطلـة نهايـة الأسـبوع، ونقضـي أيامـاً بطولهـا على الشـاطئ، وفي المسـاء كنـا نـذهب إلى الـرقص .. ووالـدا "يـان" كانـا يعرفـان تمامـاً طبيعـة علاقتنـا. كانـا لطيفـين مـعي جـداً ويطلبـان مـني البقـاء للعشـاء معهمـا في البنسـيون الـذي تـديره أمهـا، ووالـد يـان كـان مـدرب سـباحة في القصـر الملكي، عنـدما كبرنا وبلغنـا الواحـد والعشـرين عامـاً أردت أن أتزوجهـا ورفـض أبي لأنـني كاثوليكيـاً وهي بروتسـتانتية وأصـر والـدي أن أقطـع علاقـتي بهـا. وبعـد مـدة قليلـة عرفـت أنهـا تزوجت رجلاً من الاسكندرية وسافرت معه إلى فنزويلا".

لقد أصيب والـده حينـذاك بانهيار عصبي لم يتحمل أن ابنـه المسيحي الكاثوليكي أراد أن يتزوج من فتاة مسيحية بروتستانتية ليست على ملته، وبعد هذه الحكاية بثمانية شهور كان على الابن أن يخـبره بأنـه تـرك دينـه المسـيحي نهائيـاً مـن أجـل يـتزوج مـن مسـلمة هي فـاتن حمامـة وأنـه لـم يعـد منـذ تلـك اللحظـة اسـمه ميشيل بل عمر الشريف.

الفصل الثالث

النجم

كان يروق للكثيرين معايرة عمر الشريف، أو بتوصيف أقل وطأة يذكرونه بأنه لولا النجمة المحبوبة فاتن حمامة ما قامت له قائمة ولا التفت إليه أحد من الأساس مهما فعل، وكانوا ينكرون عليه طموحه السابق على لقائه بفاتن في دخوله عالم التمثيل، ومحاولته لدراسة التمثيل خارج مصر، كما أنكروا عليه "الحتمية التاريخية" التي دبرت هذا اللقاء واعتباره كحدث ضروري يواكب تغيير كبير يحدث في المجتمع وبدأ ينسحب رويداً إلى السينما التي راحت تجدد دماءها مع مخرجين جدد مثل يوسف شاهين، الحدث هنا أصبح ضرورة وفرصة مهمة لتغير النجمة الكبيرة هي الأخرى من وضعية الثبات عند نقطة معينة والخروج النسبي عن إطار النمطية التي حددت طابعها الفني، ليزيد فيما بعد حضورها المغناطيسي كوجه حالم ناعم وروح تتراوح بين الهدوء والتحفز، صوت شديد الأنوثة والألفة، عينان سودوان تأسران من يشاهدهما. يستقر في الذاكرة سكون وجهها

الغامر بالحب المُرسل من تلك العينين، ومن جبين كالأفق الصافي يتصدر وجه يهجس ويهدر بالكثير من الأسرار وإن بدا ساكتاً، ثم تتحول من أيقونة الرومانسية إلى صور أخرى متعددة ومسكونة بحيوية جعلتها تترأس جمهورية التمثيل النسائي، مدفوعة بذكائها الذي رصده عمر حين قال:" الحضور العقلي عند فاتن كان يطغى على حضور الجسد"، وهو ما شعر به منذ اللحظة الأولى التي جمعتهما وصار الأمر ملتبساً بين الحب والطموح.

كان لابد أن يفتح يوسف شاهين قوس المعادلة، زميله في فيكتوريا كوليدج الذي درس التمثيل في معهد باسادينا بكاليفورنيا ثم ترك التمثيل إلى الإخراج، فلا يمنح الفرص إلا مغامر لا يستند على شيء سوى حدسه الذي يحجل حول الخيال حتى يلتقط غصنه، لا أظن أن شاهين ذاته بالرغم من جسارته حين اختار مغموراً ليقف أمام نجمة كبيرة مثل فاتن حمامة كان يتصور أنه صنع ثنائياً فاق التصورات والتوقعات على الشاشة وفي الواقع.

لابد أن شيئاً ما في وجه عمر الشريف هو الذي صنع بدايته السينمائية بهذه الطريقة، شيئاً ما جمع بين الشفافية والصلابة، شيئاً ما انتبه إليه يوسف شاهين بخبرته وعينه الفنية الثاقبة فمنحه فرصة العمر ورشحه بطلاً في أول إطلالة سينمائية، وجعله يغير مسار خطواته من أحمد رمزي إلى عمر الشريف زميله

الذي كان يجلس معه يشرب الشاي في جروبي في وسط القاهرة، تلك القصة الشهيرة التي يعرفها الوسط الفني جيداً، فأحمد رمزي كان رفيق صبا وشباب ميشيل أو عمر الشريف وصديقه الذي لازمه دائماً. الاثنان فهما شيء مشترك ربما اختيار نسق مختلف في الحياة والتعايش بأسلوب يُشيد لفرد يبصر ما حوله بشكل مغاير، وربما دراستهما في فيكتوريا كوليدج ثم في كلية التجارة أو ربما لأن أحمد واسمه الحقيقي رمزي محمود بيومي من عائلة ثرية، فهو ابن لطبيب مصري على درجة كبيرة من العلم والثراء؛ والأم اسكتلندية لها عاداتها وتقاليدها الغريبة عن المجتمع المصري، ومن هنا نجده ينتمي لنفس الطبقة الاجتماعية التي انتمى إليها صديقه عمر تقريباً. المهم أن العناصر المتشابهة بينهما كانت كثيرة لدرجة أن كل من يراهما سوياً كان لابد أن يتصور ارتباطهما كشقيقين، ولا يتخيل أن لأحمد شقيق آخر يكبره بنحو عشر سنوات يُدعى حسن لا يشبهه كما عمر، عُرف الشقيق الأكبر "حسن" بتفوقه في دراسة الطب وسافر إلى بريطانيا حيث أكمل دراساته العليا في الطب وتزوج واستقر فيها، أما أحمد فبالرغم من عدم تفوقه في الدراسة أصر والده على إلحاقه بكلية الطب، وهي الرغبة التي لم يكن رمزي متحمساً لها واضطر للإذعان لوالده فلم يستمر فيها سوى سنتين فقط، ليتركها يعد ذلك مفضلاً دراسة التجارة في جامعة القاهرة، حيث

بدأت علاقته بعمر وتوطدت أكثر باتفاقهما على حب التمثيل. علاقة أحمد رمزي بالتمثيل في البداية لم تكن تتعدى مشاهدته لأفلام السينما والتردد عليها بين الحين والآخر، حسب اعترافه وتصريحه بذلك أكثر من مرة، إلا أنه أثناء وجوده في فيكتوريا كوليدج، أحب متابعة بروفات المسرحيات المدرسية وتقليد أبطالها من باب التهريج، وفي إحدى المرات كانت المسرحية التي تتدرب عليها فرقة التمثيل المدرسية وهي "الرجل والسلاح" للكاتب البريطاني الساخر برنارد شو، كان قد حفظ المسرحية من كثرة مشاهدته لها وفي اليوم الرئيسي للعرض غابت الممثلة التي افترض أنها تجسد شخصية الخادمة، فجن جنون مدرب التمثيل وكان انجليزياً، فعرض عليه أحد الزملاء أن يستعين برمزي ليقدم الدور، ورغم غرابة الموقف أرسل له المدرب وعرض عليه إنقاذ الموقف فوافق من باب الشقاوة، إلا أنه فوجئ باستحسان الجمهور وإعجاب المدرب بأدائه، حتى أنه تنبأ بنجاحه ونجوميته في التمثيل، ومع ذلك لم يكن هذا بداية خيط علاقته بالتمثيل وإنما كان صديقه عمر هو السبب، حيث جعله ولعه بالتمثيل يشاركه إياه ويذهبان سوياً إلى السينما لمتابعة أحدث العروض الأجنبية، فبدأ رمزي يشعر أن تحولاً بدأ يحدث في حياته وأنها تتخذ شكلاً جديداً غير الذي رسمه له والده أو حتى الذي رسمه هو لنفسه، شكل فرضته عليه صداقته بهذا

الصبي المتمرد مثله، والغريب أنه أحب هذا التحول جداً، وحين قابلهما يوسف شاهين وأشعل لديهما شرارة الحلم، تمنى رمزي أن يكون البطل الذي يبحث عنه شاهين وكان ترتيب اللقاء بالفعل من أجل ذلك، لكن كانت المفاجأة التي لم ينسها أبداً حين جاءه عمر ليخبره أن المخرج يوسف شاهين نجح في إقناع المنتج جبرائيل تلحمي، بمنحه دور البطولة في فيلم "صراع في الوادي"، المشهد كان ميلودرامياً بدرجة كبيرة أربكت رمزي الذي اختلطت مشاعره بين فرحته لصديقه وهو على وشك أن ينال فرصة عمره، وبين شعوره هو بمرارة شديدة لضياع الدور منه، لكن رمزي استطاع أن يسيطر على الموقف بسرعة ولا يشعر صديقه بألمه وحبس دموعه.

كانت المفاجأة صادمة لرمزي والخسارة أكبر من احتماله وهو الشاب الصغير الذي حاول أن ينهض من هاوية الولد الفاشل وينفض عنه صفة الفشل التي كادت أن تلتصق باسمه، لكن على قدر قوة الصدمة كان صمود رمزي في مواجهتها حتى لا تؤثر في علاقته بصديقه، بل أنه لازم عمر أثناء التصوير، بعد ما طلب من يوسف شاهين السماح له بمرافقتهم أثناء التصوير، وبدأ التعرف على كل صغيرة وكبيرة في تكنيك العمل السينمائي من خلال تعرفه على العاملين الذين منحوه أسرار المهنة، يقول رمزي نفسه في أحد حواراته الصحفية: "أردت أن أبرهن لعمر عن حبي

له وسعادتي بالدور، بأن طلبت من يوسف شاهين الذي كان يقيم لأسرة الفيلم معسكراً في صحراء سقارة فعرضت عليه أن أقيم في المعسكر معهم حتى أعيش في جو السينما فوافق وبعد يومين من ذهابي معهم للمعسكر قال لي مدير الإنتاج أنني لا بد أن أجد لنفسي عملاً يسليني فليس من المعقول أن أمكث في المعسكر شهراً كاملاً بدون عمل، فقلت له أنني مستعد أن أعمل أي شيء فذهب وغاب بعض الوقت ثم عاد ومعه اثنان من الرجال الأقوياء ومعهما آنية للكيروسين والزيت، وطلب مني أن أغسلها وأملأها من قرية سقارة فذهبت مع الرجلين إلى القرية التي تبعد عن موقع المعسكر ثلاثة كيلومترات ولم أجد مكاناً أغسل فيه الآنية فقال لي أحد الخفراء أن المكان الوحيد الذي أجد فيه طلمبة هو نقطة الشرطة فذهبت إلى النقطة فوجدتها موصدة الأبواب وطفت ببيوت العزبة أبحث عن خفير النقطة حتى عثرت عليه وبدأ الرجال يخرجون الماء من الطلمبة وأنا أغسل الآنية وأملأها وقضيت اليوم (مرمطوناً) وقضيت الأيام الأخرى أعمل أي شيء وكان الفنيون في مقابل هذا لا يبخلون بالإجابة على أي سؤال أوجهه وعرفت الكاميرا وكيف تعمل وعرفت السيناريو والإلقاء وعمل كل جهاز سينمائي فكنت أقف وراء يوسف شاهين واستوعب ما يقوله للعاملين في الفيلم وكان لكل هذا تأثير شديد على مشواري فيما بعد".

حين سمع عمر هذه الحكايات ابتسم ممتناً وتذكر صديقه حيث كان الزمان أقل جموحاً، ما جعل الماضي تجربة أشبه بمعجزة تثير الدهشة والفضول ولا تصفي الحسابات مع النوازع البشرية، فأحمد رمزي كان الوجه الآخر لصورته، الوجه الحيوي الذي لا يكبح البهجة وهشاشة الفرح.

" رمزي من الحاجات الحلوة اللي حصلت لي في حياتي، فهو صديق بجد وجميل وإنسان أحببته جداً ".

أما حين كان يستعيد كيف حصل على هذا الدور الذي رشحه له شاهين وبعد مقابلة حاسمة مع فاتن حمامة بطلة الفيلم والنجمة التي كانت ملء السمع والبصر، فإنه لا يمر عليها مرور الكرام، كانت هذه المقابلة هي الأولى بينهما، نجمة كبيرة وممثل يتحسس طريقه إلى عالم التمثيل، رشحه المخرج بديلاً عن شكري سرحان الذي اعترضت فاتن حمامة على مشاركته لها بطولة معها (صراع في الوادي) حتى لا تقع في فخ الثنائيات، لأنها مثلت أمامه في فيلم (ابن النيل) وكان المخرج هو يوسف شاهين أيضاً، وقبل المقابلة حاولت فاتن أن تعرف اسم هذا الممثل الجديد، لكن شاهين كان يرفض ويقول لها: "هتشوفيه.. هو شاب رياضي ومهذب وعنده قبول"، فأصرت فاتن أن تعرف اسمه بعد أن كاد صبرها ينفد، ولم يجد شاهين مفراً من إخبارها باسمه، فقال وهو يتهته: "إيه.. اسمه ميشيل شلهوب.. إيه المشكلة؟"،

فضحكت فاتن بصوت عال وقالت: ميشيل إيه؟ هو أجنبي؟ ..
أجاب شاهين: لأ .. مصري وأنا سميته عمر الشريف خلاص.

وتمت المقابلة في بيت فاتن حمامة بناءً على رغبتها حتى تتأكد من هذا البطل المغمور صاحب الاسم الغريب الذي سيقف أمامها وهي النجمة الكبيرة والمشهورة، وعندما ذهب عمر مع يوسف إلى بيتها طلب منه أن يؤدي مشهداً أمامها فمثل أمامها قطعة من مسرحية "هاملت" بالانجليزية وهو الذي كان واثقاً من أنها لا تعرف الانجليزية جيداً، لكنه خدعها وأوهمها، أو بمعنى أدق "لعب" معها، فوجدها توقع عقداً لبطولة الفيلم، وكان على يوسف شاهين أن يدربه تماماً لمدة طويلة فجعله يقرأ مسرحيات شكسبير إذ كان يعرف أن شكسبير يملك كل ظلال التعبير.

"أخذني يوسف شاهين ورحنا لفاتن حمامة في البيت نشرب شاي عندها، وإحنا قاعدين قالت لي: مثّل حاجة عشان أشوف، فأنا قلت: الله؟ إيه قلة الأدب دي؟ إيه أمثل حاجة؟ يعني إيه أمثل حاجة وأنا جاي يعني تختبرني كده بقى و لا إيه؟، فمثلت لها حاجة بالإنجليزي من رواية هاملت، قلت: هي غالباً مش راح تفهم كويس وراح تختشي تقول إيه إني أنا ما فهمتش فراح تقول كويس قوي، وفعلاً حصل قالت: ده هايل، عشان ما تقولش ما فهمتش حاجة".

ربما تكون فاتن حمامة شعرت بالانبهار تجاهه في نهاية المقابلة التي بدأت عادية إلى حد ما باستثناء شعورها برقته اللافتة في كلامه وسلوكياته خاصة بعد ما أثنى على صورتها المعلقة على الحائط والتي رسمها لها الفنان التشكيلي صلاح طاهر، تسمرت فاتن في مكانها بضع دقائق وشعرت بوخزة خفيفة لم تفهمها وهو لم يرتعش وراح يتكلم بثقة ويؤدي دور هاملت كأنه متأكداً من قبوله، أو لعله كان يتحرك ويتكلم بهذه الطريقة مدفوعاً بنبوءة قديمة وشت له بأن انتصاراته وفتوحاته في عالم الفن قادمة لا محالة فلا داعي للارتباك أو القلق أو الارتعاش في حضرة فنانة ونجمة كبيرة مثل فاتن حمامة.

فاتن حمامة التي تنتمي إلى عائلة بسيطة من مدينة المنصورة، حيث الأم زينب هانم توفيق الأب أحمد حمامة أفندي كان موظفاً في وزارة المعارف (التعليم حالياً) في مصر، لكنها ولدت في حي عابدين بالقاهرة عام 1931 واحتار أهلها في اختيار اسم لها، وكان لأخيها منير الذي يكبرها بعامين (عروسة) أطلق عليها من بنات أفكاره اسماً جميلاً ولم يكن متداولاً بكثرة في هذا الوقت وهو (فاتن)، وهو الاسم الذي قطع خيط الحيرة حين وضع منير (فاتن العروسة) بجوار شقيقته المولودة هدية منه لها، وعلى الفور أطلقت أمها اسم العروسة عليها.

فاتن المشهورة التي حصدت إعجاب الجميع منذ طفولتها وخاصة أبيها الذي رآها طفلة مختلفة، وجدت نفسها فجأة تقف أمام شخص غريب لا تعرفه يؤدي دوراً بالانجليزية التي لا تفهمها ووجدت نفسها تشرد بعيداً عنه ثم تعود إليه ثم تشرد وتتوغل في حياتها التي مرت أمامها سريعاً كشريط سينمائي عابر، فتذكرت حين فازت بمسابقة أجمل طفلة في مصر فأرسل والدها صورة لها إلى المخرج محمد كريم (1896 - 1972) الذي كان يبحث عن "أنيسة" تلك الطفلة التي تسكن مع الموسيقار محمد عبدالوهاب في ذات المنزل وتمثل له أقرب أصدقائه بحلو حديثها في فيلم "يوم سعيد". (1940)

ما روته فاتن عن هذا الفيلم أنها لم تنس أبداً الموسيقار محمد عبدالوهاب عندما مثلت معه في (يوم سعيد)، فكانت كلما أتت بحركة أو تلفظت بكلمة ينطلق عبدالوهاب ضاحكاً، وشعرت هي بغيظ شديد منه فصرخت في وجهه قائلة: ما تبطل ضحك بقى، عيب كده، فنظر لها عبد الوهاب بدهشة شديدة ثم استغرق في الضحك ثانية، غضبت منه بشدة وقامت برفع إصبعها الصغير في الهواء وقالت لعبد الوهاب بصوت عالٍ (أنت راح تشتغل كويس ولا نجيب غيرك) فضحك أكثر مما جعلها تشعر بالضيق منه وتمضي إلى المخرج محمد كريم، تشكو له عبد الوهاب وتطلب منه استبداله بشخص آخر، إلا أن كريم أفهمها

بأنه شريكها في التمثيل وأنه لا يسخر منها، بل إنه سعيد بقيامها بهذا الدور، وأعاد محمد كريم كتابة السيناريو لتزيد مساحة دورها كما أنه استعان ببعض كتاب الحوار ليضعوا حواراً يتناسب مع عمر هذه الطفلة الصغيرة التي شبهتها الصحافة بطفلة هوليوود الشهيرة وقتها" شيرلي تمبل"، وأصبح المخرج محمد كريم مقتنعا بموهبة الطفلة فاتن حمامة التي قال عنها في مذكراته التي أعدها الناقد محمود علي:" من النظرة الأولى، أعجبت بالطفلة وجلست أتحدث معها ساعات، فأيقنت أنها لا تصلح للدور مائة في المائة فحسب بل أيقنت أنها أكبر من الدور الذي رشحتها له، ورجعت إلى السيناريو لتكبير دور أنيسة في كل جزء من أجزائه، لقد كانت شيرلي تمبل، أغظم وأشهر أطفال السينما في العالم في أوج مجدها في ذلك الوقت ولكن كنت أقول لأصدقائي وعن إيمان ويقين وعقيدة أن فاتن حمامة تفوقها بمراحل". وصل لإيمان محمد كريم بموهبتها إلى حد أنه قام بإبرام عقد مع والدها ليضمن مشاركتها في أعماله السينمائية المستقبلية وبعد 4 سنوات استدعاها نفس المخرج مرة ثانية لتمثل أمام محمد عبد الوهاب في فيلم "رصاصة في القلب" (1944) ومع فيلمها الثالث "دنيا" (1946) نجحت أن ترسخ قدمها في السينما المصرية وانتقلت العائلة المكونة من الأب والأم والأشقاء الأكبر هو منير حمامة وكان ضابطاً بالجيش وليلى

حمامة والأصغر مظهر حمامة، إلى القاهرة تشجيعاً منها للفنانة الناشئة، وأقاموا بشارع إسماعيل أبو جبل بحي الناصرية، ثم انتقلوا للإقامة بحي الدقي حينما تحسن دخلهم المادي، ودخلت فاتن عام 1946 المعهد العالي للتمثيل الذي افتتحه زكي طليمات آنذاك بشارع نوبار وكانت الدفعة الأولى تضم نعيمة وصفي وفريد شوقي وحمدي غيث وشكري سرحان وعبد الرحيم الزرقاني، وكانت هي أصغرهم سناً، وأولاها زكي طليمات اهتماماً خاصاً وبدأ يدربها على حرف الراء حيث كانت تعاني من لثغة في لسانها فتنطق الراء (غيناً) واستفادت كثيراً من هذه التدريبات.

لاحظ يوسف وهبي موهبتها وطلب منها تمثيل دور ابنته في فيلم "ملاك الرحمة" (1946) وبهذا الفيلم دخلت حمامة مرحلة جديدة في حياتها وهي الميلودراما وكان عمرها آنذاك 15 سنة فقط وبدأ اهتمام النقاد والمخرجين بها واشتركت مرة أخرى في التمثيل إلى جانب يوسف وهبي في فيلم "كرسي الاعتراف" (1949) وفي نفس السنة قامت بدور البطولة في الفيلمين، كما اشتركت في أول فيلم للمخرج يوسف شاهين "بابا أمين" (1950)، ذلك المخرج الجريء والمشاكس الذي جاء لها بشخص غريب يقف أمامها الآن ويؤدي حركات غريبة بلغة لا تفهمها ويريده أن يكون بطلاً أمامها من أول مرة، هي عرفت من أول وهلة أنه ليس له خبرة كممثل محترف لكنه كان رئيساً لفريق التمثيل في

مدرسته، والحقيقة أنه من أول لقاء كان حالها قد تغير تماماً، وهي تكاد لا تعرف السبب، لكنها اقتنعت بحديث شاهين عن مزايا الوجه الجديد، بعد أن وعدها بتصحيح مشاكل اللكنة الغريبة التي ينطق بها، واقترح كاتب السيناريو على الزرقاني الاستعانة بشقيقه أستاذ الإلقاء المسرحي الممثل المميز عبدالرحيم الزرقاني لتدريب عمر على الإلقاء، وضبط مخارج الحروف.

علاقة فاتن بوالدها كانت أقرب للصداقة، خارج إطار الشكل المألوف للأب والابنة وإن لم يخل من مسئولية، فكان هو مرشدها وتعلمت منه أشياء عظيمة لا تنسى خاصة عبر مواقفه التي كانت تلاحظها مع الآخرين وأول شيء تعلمته منه الالتزام والصدق والتمسك بالقيم والأصول دائماً واحترام المواعيد والوفاء بالوعد واحترام الناس بصفة عامة ومن هم أكبر منها بصفة خاصة، ما كرس صورتها كنجمة ملتزمة، والمشهد الذي كان أكثر تأثيراً في ذاكرتها حينما كان عمرها 6 سنوات لما أخذها والدها سينما (عدن) بالمنصورة حيث جاءت الفنانة آسيا داغر لمناسبة عرض فيلم لها، فشاهدت فاتن هذه السيدة الجميلة والفنانة التي أفنت حياتها في السينما والإنتاج الراقي، ولفت نظرها وقتها تصفيق الجماهير لها بحرارة فانتابها إحساس غريب

وحلم أكبر من سنها فتخيلت أن كل هذا التصفيق كان لها وأبلغت والدها بهذا الشعور فاحتضنها بشدة.

وبالرغم من نجاحها في أول أفلامها (يوم سعيد) إلا أنه شعر بقلق شديد ورفض عروضاً سينمائية كثيرة في ذلك الوقت حرصاً عليها، خاصة وأن ابنته حين عادت إلى المدرسة بعد عرض الفيلم أصبحت طفلة مشهورة جداً، ووجدت المدرسين والمدرسات وكذلك زميلاتها الأطفال يعاملونها معاملة خاصة ورغم صغر سنها تعمق في نفسها الشعور بأنها فقدت الاحساس بأنها طفلة عادية فأينما ذهبت أو ظهرت يلتف الناس حولها.

حرص الأب أن يكون بجوار فتاته الصغيرة طوال الوقت حتى عندما تلقت بعد عرض فيلم (ملاك الرحمة) أول رسالة من معجب وكان من سوريا أسهب كثيراً في وصف نفسه، وتحدث عن ثروته، ثم أنهى الخطاب بطلب الزواج، فأسرعت إلى والدها وهي خائفة جداً وأعطته الرسالة فقرأها بهدوء ثم ابتسم وقال: توقعي أن يصلك كثير من هذه الرسائل بعد الآن، ونصحها ألا تهتم بالمضمون ولكن لابد أن ترد بأدب ولباقة، وقال لها هذا واجبك نحو المعجبين وحقهم عليك، ثم اصطحبها إلى مصور معروف التقط لها عدة صور في أوضاع مختلفة وطلب منه والدها أن يطبع 500 نسخة من كل لقطة فسألته عن سبب هذه الكمية الكبيرة فقال: إن خطابات المعجبين ستزداد كل يوم

عن الآخر وسوف يطلبون صورك، ويجب ألا تتأخري عنهم، وتحققت توقعات والدها بالفعل بعد مشاركتها في خمسة أفلام دفعة واحدة عام 1946 هي (ملاك الرحمة) و(ملائكة في جهنم) و(الملاك الأبيض) و(الهانم) و(دنيا) وثلاثة أفلام أخرى عام 1947 هي (نور من السماء) و(القناع الأحمر) و(أبو زيد الهلالي) فأصبحت فنانة مشهورة وراحت الصحف والمجلات تنشر صورها وأخبارها وأصبح لها جمهور عريض، وصارت تتلقى كل يوم عشرات الرسائل، وكانت أغلب الخطابات التي تصلها من معجبين تحمل عروضاً للزواج حتى وصل عدد العرسان في عام واحد هو 1947 حوالي 3000 عريس، لكنها لم تتزوج سوى من المخرج عز الدين ذو الفقار الذي تعرفت به لأول مرة في (بيت الفن) وهو النادي الذي أنشأه بعض الفنانين ليجتمعوا فيه، وكانت تردد عليه هي ووالدها وكان عز الدين ذو الفقار أيضاً من بين المترددين ونشأت بينه وبين والدها علاقة قوية وبينما كان يستعد لإخراج فيلم (أبو زيد الهلالي) لحساب المطرب محمد أمين، والذي رشحت إلهام حسين لبطولته فشلت الشركة في الاتفاق مع إلهام حسين، فبدأت تبحث عن بطلة جديدة تصلح للقيام بدور البطولة، فأسند الدور لفاتن الذي حقق لها هذا الفيلم نقلة كبيرة في حياتها الفنية، فبعد نجاحه لمع اسمها أكثر وأصبحت نجمة من نجمات الصف الأول، وبعد انتهاء عرض الفيلم تقدم عز الدين

ذو الفقار طالباً الزواج منها فوافق والدها بشرط أن يؤجل كل الإجراءات إلى ما بعد انتهائها من الدراسة الثانوية وراح عز الدين يتردد عليهم بكثرة في البيت خاصة بعد أن اتفق مع والدها على تكوين شركة سينمائية كبيرة، وبالفعل قدموا سوياً فيلم (خلود) واقتربت فاتن من عز الدين أكثر أثناء تصويره هذا الفيلم، واتفقت معه أثناء التصوير اختصار الطريق بالزواج فوراً، وكانت مفاجأة للأسرة حيث عادا من عند المأذون زوجين، ثم نزلا في فندق الكونتيننتال لقضاء بضعة أيام من شهر العسل.

تزوجت فاتن من عز الدين ذو الفقار وأحبته رغم فارق السن الكبير بينهما، وهي التي لم تعرف عن الحب سوى بضعة حكايات من زميلاتها بمدرسة الأميرة فوقية بالجيزة أو من قصص وروايات وأفلام عاطفية، وبعد الزواج انتابها شعور جديد، هو الشعور بالمسئولية رغم صغر سنها، فقد أصبحت مسئولة عن بيت تدير شئونه، وعكفت على قراءة كل ما كتبه الكتاب والأدباء عن السعادة الزوجية، وضحت بدراستها لكي تتفرغ للفن والحياة الزوجية، وأشرفت بنفسها على تأثيث شقة الزوجية في مصر الجديدة ورزقت بابنتها نادية، وأسست شركة إنتاج خاصة بها، وكان أول فيلم أنتجته لحسابها هو (موعد مع الحياة) وتولى إخراجه عز الدين ذو الفقار، وحقق نجاحاً فنياً ومادياً واعتبره

النقـاد مـن الأحـداث الفنيـة المهمـة، ووصلـت بعـده لقمـة المجـد وأطلق علها لقب سيدة الشاشة العربية.

مرت الأيام وهي منهمكة في العمل، وذات ليلة كانت وحدها في البيت في انتظار عودة عز الدين الذي كان بدوره عاشقاً للفن ويقضي معظم ساعات اليوم في الاستديو، وسألت نفسها: هل أنا سعيدة؟ وكانت هذه هي أول مرة تبحث فيها عن إجابة لهذا السؤال، واكتشفت أن علاقتها بعز الدين كانت علاقة تلميذة مبهورة بحب الفن وانجذبت لأستاذ كبير يكبرها بأعوام عديدة، تزوجت التلميذة من الأستاذ مدفوعة بدوافع أخرى ليس من بينها الحب، وضاعف من إحساسها بالحرمان من الحب، الفراغ الذي كانت تعانيه في ظل غياب عز الدين، وبدأت حياتهما تعرف طريق الملل والخلاف والصدام المستمر، ولم يكن هناك بديل عن الطلاق بعد أن دب الفتور في حياتهما، كما أنه كان عنيداً ومعتزاً بنفسه إلى درجة مثيرة أدت إلى تعثر استمرار حياتهما الزوجية.

"هل أنا سعيدة؟" .. السؤال يعاودها الآن مرة أخرى ويرن في أذنها بإلحاح، لم ينقذها منه سوى صوت هذا الغريب الذي أتى به يوسف شاهين إلى بيتها ويقف أمامها الآن يمثل دور هاملت بالانجليزية، فتنتفض وتقف وكأنها تحجز حياتها كلها وراءها وتنظر إلى أمامها في ذهول وهي تقول:" برافو.. انت بطل الفيلم"، ربما قالتها بسرعة حتى لا يلحظ أحد ارتباكها وشرودها وربما

حتى تسابق صوتاً خافتاً بداخلها يتردد ويقول: "لعله أيضاً بطل أيامك القادمة".

مرت الأيام سريعة حتى بدأ تصوير أول فيلم جمع بين فاتن وعمر سوياً (صراع في الوادي)، وفي الاستوديو لم يواجه عمر مشاكل مع الممثلين أو الفنيين فقد كانوا يعرفون أنه صديق المخرج، أما فاتن فعاشت صراعاً عنيفاً عصف بهدوء بالها، فأثناء التصوير تأكدت أثناء التصوير من حبها له وكان عمر لا يستطيع أن يبتعد عنها أو حتى يبعد تفكيره فيها عن عقله، كانت المرة الأولى التي يواجه فيها كاميرات السينما، ويضع قدمه على أول درب الرحلة الى عالم الأضواء كما قالت له نبوءة العرافة اليونانية، هو الآن يصنع لنفسه مصيراً مختلفاً بعيداً عن خطط والده وتجارة الأخشاب، مهنة والده التي اختارها له وربما يصبح فتى الشاشة الأول في السينما المصرية بعد هذا الفيلم، كل هذه الأفكار كانت تدور في رأس عمر قبل أن يعلو صوت يوسف شاهين ويقول (دوّر) ليبدأ التصوير الذي استمر بهدوء ودون مشاكل حتى جاء مشهد قبلة بين بطلي الفيلم، فالسيناريو كان فيه "قبلة" تطبعها فاتن على شفاه عمر وهو في حالة إغماء وينزف بعد إصابته برصاصة أطلقها عليه حمدي غيث، وللمرة الأولى توافق فاتن على أن تُقبل بطلاً أمامها وهي التي لم تسمح لنفسها من قبل أن تكون محل إغراء في أي فيلم، والغريب أن هذه

القبلة أعادها المخرج إحدى عشرة مرة حتى يحصل على التأثير المناسب وقد كان له ما أراد قبلة طويلة وحقيقية أذهلت الجميع بما فيهم يوسف شاهين نفسه، فبدا المشهد مدوياً وصادماً، سكت شاهين ونظر إليهما مذهولاً، فقد عرف أن نجمته الرقيقة قد تمكن منها الحب. شاهين أحب فاتن دون أن تعرف وكتم مشاعره عنها ولم يعترف بهذا الحب، وهو يتعامل معها كمخرج وهي بطلة لأفلامه، لكنه اكتشف أنها أحبت عمر وهو الذي عرفهما ببعضهما قبل التصوير. ودفعه حزنه وغضبه إلى التفكير في الانتحار، وحاول بالفعل قطع شرايينه، لكن تم انقاذه وظلت هذه القصة سراً مطوياً حتى كشفه شاهين نفسه في حوارات صحفية وتليفزيونية بعد أن أتم الثمانين من عمره وتحرر من الحرج: " أحببت فاتن حمامة جداً وشعرت بجرح كبير عندما وجدتها مع عمر الشريف وشعرت بأن الخيانة جاءت من الطرفين".

المهم أن القبلة المفاجأة أو الصدمة اقتنصتها عدسات مصوري الصحف الذين كانوا موجودين في الاستوديو وقتها ونشروا صورة فاتن وهي تقبل عمر، وكانت الفضيحة التي رسمت ظلالها على حياة فاتن وعمر وحولتها إلى جحيم، فأينما ذهبوا تطاردهم الشائعات، وكلما فتحوا صحيفة أو مجلة وجدوا صورة القبلة تحيطها تعليقات وتنبؤات حول علاقتهما، حصار

من التأويلات سجن الإثنين ولم يعرفا أبداً أن يتحررا منه، خاصة فاتن حمامة وهي النجمة الرقيقة التي حافظت على نقاء وبراءة صورتها طول الوقت، بل وتشبثت بهذه الصورة الفنية الثابتة التي أحبها جمهورها ولم يفصلا بينها وبين شخصية نجمتهم المحبوبة، فبراءتها التي اعتادوها على الشاشة لا يجب أن تجرحها أو تلوثها ولو كانت مجرد قبلة تمثيلية على شفاه رجل غريب وإن كان حبيبها في الفيلم.

"خلال يوم واحد أصبحت الرجل المدنس الذي أهان مثلهم الأعلى، كل مصري أحس بالغضب الشديد، وأنه قد خدع بهذه القبلة، وضرب الفيلم الرقم القياسي في التوزيع، وكانت هناك صفوف من الناس أمام شبابيك التذاكر، ولكنني عملياً "صودرت" من الشاشة في بلدي، فلم يجروء أي منتج أن يستخدم الرجل الذي سبب الفضيحة، وهذه القصة خلقت بيني وبين فاتن موقفاً مهماً، كان علينا أن نتجنب بعضنا البعض، وكان ذلك صعباً لأننا نتحرك في الدوائر نفسها، نذهب إلى الأماكن نفسها، وإذا كان هناك صديق مشترك يدعو واحداً منا إلى بيته فلابد أن يتأكد من عدم دعوة الآخر، وإذا كانت فاتن وزوجها في مكان عام فإن شخصاً ما كان يحضر لي ليقول لي ألا أدخل هذا المكان، ثم ذات يوم وفجأة التقينا في مطعم، والذي حدث أنني دخلت وجلست على مائدتي وجاءت

فاتن لتقول لي: هاللو .. كانت فاتن قد بدأت تفكر في باستمرار، وأنا فشلت في إبعاد وجهها عن تفكيري، فمن أول يوم التقينا فيه حدث شيء غريب لي ولها ولكن كان الأمر صعباً جداً لكونها متزوجة من المخرج عز الدين ذو الفقار فظللت أسيطر على نفسي وأنظر لها نظرة خاصة مملوءة بالاحترام والاعتراف بالجميل. وكانت حياتها مع عز الدين تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكان هذا اللقاء العابر وغير المرتب دفع مخرجاً جريئاً أن يفكر في جمعنا مرة أخرى على الشاشة، وانطلقت الشائعات عن العلاقة بيننا تملأ الشوارع، كانوا في البداية يتحدثون بحرج ثم دفعونا بعد ذلك إلى أن يحتوي كل منا الآخر، وتم طلاق فاتن وتزوجتها في الخامس من فبراير سنة 1955".

تطلقت فاتن حمامة وعز الدين ذوالفقار، وذات ليلة اختفى عمر وفاتن عن أعين الفضوليين وشائعات المغرضين، في فندق "مينا هاوس"، حيث تزوجا هناك وأمضيا أسبوع العسل بعد أن أشهر عمر إسلامه أمام "باشكاتب" محكمة مصر الشرعية ونطق بالشهادتين، وعدل ديانته كشرط للزواج، ومراسم عقد القران والزواج تمت على نطاق محدود وفي هدوء شديد، وشهد على قسيمة الزواج كل من المخرجين صلاح أبو سيف وفطين عبد الوهاب، حيث دفع عمر الذي كان قد بلغ 22 عاماً مهراً قدره 2000 جنيه، وسجل في أوراقه الرسمية أنه مسلم الديانة، ولم

يطالبه أحد بإثبات إسلامه إلا بعد أن سنوات طويلة حين بلغ عامه الـ 75، حينما ذهب إلى السعودية في صفقة عمل للقاء عدد من رجال الأعمال السعوديين، وقرر أن يؤدي العمرة، وعندما أبلغ مضيفيه بذلك، اتصلوا بالسلطات السعودية التي فاجئتهم بطلب أن يشهر إسلامه، فرد عمر: "لكني أشهرت إسلامي بالفعل قبل نصف قرن"، لكن السلطات السعودية أصرت على طلبها وقالت: " ليجدد نيته على الأقل ويشهر إسلامه من جديد"، واستجاب عمر ونطق بالشهادتين، مشهراً إسلامه للمرة الثانية وأدى العمرة التي أرادها رافضاً أي ضوضاء إعلامية أو حتى التقاط صورة وقال: "هذا أمر بيني وبين الله وحده".

على أي حال فإنه بزواجه من فاتن حمامة لم تكن قد انتهت الصعوبات التي واجهتهما عند هذا الحد، فأسرة عمر الشريف قاطعتهما وغضب والده غضباً شديداً وتدهورت صحته حتى أصيب بنوبة مرضية حادة خاصة أنه كان رجل مسن ومصاب بالسكر، كما أنشأ بعض الشباب جمعية حملت اسم (جمعية مقاطعة أفلام فاتن حمامة)، لقد كان موقفاً غريباً يعبر عن ثورة هؤلاء الشباب واعتراضهم على زواج فاتن وعمر، لكنه كان مستمداً من موقفها جمهورها الذي أغضبه زواج فاتن حمامة التي كان يعتبرها ابنته أو شقيقته ولم يعجبه أن تترك زوجها المخرج الذي صنع نجاحها من أجل شاب جديد.

هدأت الضجة بعد فترة وصار فيلم (صراع في الوادي) هو المفصل بين حياة عمر الشريف الماضية كواحد من أبناء الطبقة الثرية في الاسكندرية، ينحدر من أصول غير مصرية ويتحدث بطلاقة الفرنسية والانجليزية إلى فنان يبدأ علاقته بالسينما العربية بدور شاب من الصعيد ينثر رومانسيته في أرض احتاجت الحب والقوة، وهو دور لم يكن يوفره له إلا يوسف شاهين المخرج شديد الطموح الذي شاركه نفس الجذور، وقدمه في صورة جديدة وغير تقليدية للبطل السينمائي الرومانسي، كما أورد د. أحمد شوقي عبدالفتاح وحليم ذكري مليكة في كتابهما (نجوم الرومانسية.. مقدمات ونماذج): "فهذا الشاب الوسيم للغاية، ذو العينين الساحرتين الحالمتين، والقامة الفارعة والرشيقة، لا يشبه أبطال الرومانسية كثيراً، ولكن الأخطر بكثير أنه ينفعل بقوة، ويبكي ويتألم كرجل، ويظهر بثياب عادية أو ممزقة، ويهاجم محبوبته بعنف، ولا يشعر بالانكسار أو الضعف الذي يتميز به أبطال قصص الحب الرومانسية عادة، وعلى الشاشة غالباً."

الكاتبان يقصدان أن ظهور عمر الشريف في (صراع في الوادي) قد غير في مسار الرومانسية في السينما المصرية وشكل أبطالها المألوف من أمثال عماد حمدي أو فريد الأطرش أو كمال الشناوي، لكن في حقيقة الأمر أن فيلم (صراع في الوادي) في حد

ذاته هو انقلاب على الرومانسية القديمة في السينما المصرية وربما بداية مرحلة جديدة ارتبطت بالتغيير السياسي والاجتماعي في مصر بعد ثورة يوليو 1952، وهو التغيير الذي استوعبه يوسف شاهين وحاول التفاعل مع التغيير الذي أحدثته الثورة في بنية المجتمع المصري، كما يقول الناقد اللبناني وليد شميط في كتابه "يوسف شاهين .. حياة للسينما"، وعلى مستوى الشعارات الاشتراكية والآمال الكبيرة التي فجرتها جماهير الشعب في الريف وفي المدينة.

وهنا جاء (صراع في الوادي) ليقدم صراعاً بين مهندس زراعي شاب ومعه الفلاحون من جهة وبين الباشا الإقطاعي الذي يرى فى نجاح المهندس بتحسين أساليب زراعة قصب السكر عند الفلاحين خطراً على محاصيله، فيعمل على إغراق أراضي الفلاحين، هو صراع اجتماعي تنشأ على ضفافه قصة حب تتأثر وتتطور حسب تفاصيله المتصاعدة، قصة تجمع بين أحمد ابن ناظر العزبة وآمال ابنة الباشا صاحب العزبة يقدمها يوسف شاهين في عذوبة لدرجة أنها تسيطر على بناء الفيلم الذي كتبه علي الزرقاني مؤلفاً وحلمي حليم كاتباً للسيناريو الحوار، كاشفاً للعلاقات الإقطاعية داخل القرية المصرية في تلك الفترة والتي تزايد فيها بؤس الفلاحين وفقرهم مقابل الثراء الشديد للباشا الذي يمتلك أرضاً تزيد عن إجمالي الأرض التي تملكها القرية

كلها، ولم يكتف بذلك بل حرص أن يظل متسيداً للفلاحين ويخضعهم له حتى ولو بالقتل والتخريب، لذا فإن (صراع في الوادي) الفيلم الإشارة على ثورة يوليو وتأثيرها على الوعي السينمائي، وعلى تطور ما في المسار الفني والفكري لمخرجه الذي أشهر مفاجأته في اختيار بطل جديد على العكس من كل التوقعات.

(صراع في الوادي) الخطوة الأولى في قصة الحب التي جمعت بين بطليه فاتن حمامة وعمر الشريف، والتي منحت بطله بشكل أو بآخر أول إطلالة على المحافل السينمائية العالمية، بعد ما شارك الفيلم في مهرجان كان السينمائي الدولي، حيث رأى المتابعين صورة جديدة للمشهد الرومانسي وبطله الذي تلقفته السينما المصرية، وجاءت خطوته الثانية في نفس العام مع يوسف شاهين أيضاً بفيلم (شيطان الصحراء) مع مريم فخر الدين وتوفيق الدقن ولولا صدقي عن سيناريو وحوار كتبه حسين حلمي المهندس، وتناول فيه صراعاً آخر بين والي ظالم يتحداه عصام أحد فرسان القبيلة، أما خطوته الثالثة فقد حققها في العالم التالي مباشرة (1955) مع فيلم (أيامنا الحلوة)، وكان في ذلك الوقت عمر الشريف يشتعل أوج حبه لفاتن حمامة، وينسج خيوط السعادة التي افتقدتها في زواجها السابق حتى أنها لم تتوان في التصريح حينذاك: "سعيدة كأني أعيش في حلم لا أريده

أن ينتهي". طوّقها تماماً واقترب منها لا يفارقها لحظة، ظلان يتكئان على بعضهما ويقفزان في اللاوعي، محاولة للتحرر من أوجاع سابقة، هكذا تابع الجميع قصة حبهما تتنامى وكيف استطاع عمر أن يمد يده إلى السما ويحصل على نجمته وهي تشتعل حباً وامتناناً للرجل الذي احتوى ابنتها نادية كأب بديل، خصوصاً بعد وفاة والدها المخرج عز الدين ذو الفقار، مضى مع نادية أوقاتاً طويلة يستذكر معها دروسها ويتسامر معها، مما أشعر فاتن بالأمان وقررت أن تحافظ على حبها وحياتها الجديدة، فساندته ووقفت إلى جواره في بداية مشواره الفني وفي مواجهة طوفان الشائعات الذي طاردهما منذ انتهاء شهر العسل وأبرزها شائعة انفصالهما بسبب غيرتها الشديدة عليه، حبهما الغامر أثمر (أيامنا الحلوة)، الفيلم الذي رتبه القدر ليجمعهما مع صديقه أحمد رمزي، اصطحب عمر رمزي في أحد نوادي البلياردو حين رآهما المخرج حلمي حليم، ولفت نظره بنيان رمزي الرياضي وأسلوب حديثه، الذي كان يمتاز بخفة الظل، فذهب إليه وعرض عليه العمل في السينما فوافق رمزي بلا تردد، لتكون بدايته في دخول هذا العالم بفيلم (أيامنا الحلوة) مع صديقه عمر الشريف، فاتن حمامة، عبد الحليم حافظ وزينات صدقي، وهو الفيلم الوحيد الذي ظهر فيه باسمه الحقيقي "رمزي" الذي صار فيما بعد أحمد رمزي، جسد في هذا الفيلم شخصية الرجل

الخشن القوي الجسور 'البرم' الذي يوقع البنات برمش من عينيه وهي نفس الصفات التي رسمت صورته السينمائية طوال مشواره السينمائي.

فيلم (أيامنا الحلوة) جعل صداقة عمر ورمزي أكثر حميمية وأزال المرارة التي شعر بها رمزي بعد ذهاب بطولة فيلم (صراع في الوادي) لعمر، وكان الصديقان لايفترقان لدرجة أنهما تعاهدا ألا يمثل أحدهما فيلماً إلا إذا كان الثاني شريكاً له فيه، وكأنه ميثاق غير مكتوب بينهما، وهو الأمر الذي أثار غيرة فاتن حمامة نفسها، لكن العمل في الفيلم خلق حالة من الترابط أكبر بين فاتن وعمر وبقية الفريق، وهو ما قال عنه عمر نفسه "كنا شلة ظريفة"، مرت أيام التصوير دون أن يعطلها حتى مرض عبدالحليم حافظ الذي كان قد اشتد عليه في ذلك الوقت، لكنه تحامل على نفسه، كما يقول صديقه الإعلامي وجدي الحكيم، وواصل التصوير في ظل هذه الظروف مدفوعاً بحبه للعمل ورغبته في خروجه بشكل جيد.

"كان كل شيئاً جميلاً حينما صورنا هذا الفيلم، فأيامنا كانت حلوة فعلاً أنا وفاتن ونادية كنا في منتهى السعادة، ازددت ارتباطاً بهما وانسجاماً ومحبة وصداقة، لأن فاتن صديقة جميلة، وكذلك كان أحمد رمزي بجواري طول الوقت، في غير مواعيد التصوير كان رمزي يأتي إلى بيتنا ويظل معي أنا

وفاتن أو نخرج للسهر في أي مكان، أما عبد الحليم حافظ فقد كان لا يحب السهر ويفضل أن يكون في بيته إذا لم يكن لديه عمل أو تصوير، كما أنه يفضل النوم مبكراً، وكانت زينات صدقي شريكتنا في بطولة هذا الفيلم سيدة جميلة وإنسانة رائعة، تضيف جواً من البهجة والسعادة علينا جميعاً".

حين تحدث عمر بهذه الطريقة الحميمة عن فيلم (أيامنا الحلوة)، تدرجت نبرة صوته بدفء يدنو من مرحلة استحقت عنوان (أيامنا الحلوة). فعلى الصعيد الشخصي تغيرت حياته، وعلى الصعيد العام بدأت ملامح مصر كلها تتغير وتتخذ شكلاً مغايراً بعد ثورة يوليو 1952 في أجواء بشرت بمجتمع جديد يكرس لفكرة تحالف قوى الشعب العامل، كان قدر عمر الشريف ابن طبقة الأثرياء وابن الاسكندرية والعالم المفتوح أن يبدأ مشواره السينمائي في ظل هذه الأجواء التي شهدت فيها السينما المصرية تطوراً في شكلها وموضوعاتها، وإن كان هذا التطور قد بدا عقب الثورة مباشرة بطيئاً، لكنها راحت تقدم إنتاجاً يحاول أن يلحق بالمرحلة الجديدة، عموماً فإن فترة الخمسينيات في السينما المصرية، بكل إيجابياتها وسلبياتها، كما يقول الناقد د. أحمد يوسف في دراسته التي حملت عنوان "صفحات من تاريخ السينما المصرية" ضمن كتاب مائة سنة سينما، هي الفترة الحقيقية التي صنعت لهذه السينما تراثها،

ليس التراث بالمعنى الذي نتحدث فيه عن أفكار موغلة في الزمن البعيد، ولكنه الميراث الذي يتركه لنا الآباء نفيد منه ونستثمره لكي نصنع لأنفسنا تراثاً جديداً ونترك لأبنائنا ميراثاً متجدداً.

جاء فيلم (أيامنا الحلوة) ليصنع خطوته على طريق تغيير لم تكتمل ملامحه بعد، من خلال حكاية عن ناس فقراء، ثلاثة شباب "أحمد وعلي ورمزي" يعيشون فوق السطوح في حارة شعبية يظللهم الود والحب وشقاوة عمرهم الصغير، يتصارعون في خفة على قلب هدى الفتاة الصغيرة التي تأتي لتشاركهم السكن في السطوح، لم يخل الصراع من المواقف اللطيفة التي صنعت مباراة رومانسية، وهي فكرة على قدر بساطتها على قدر ما عبرت بشكل واضح عن تطور ما حدث في صناعة السينما في تلك المرحلة، فالموضوع جديد والممثلون الثلاثة الجدد يقفون في مواجهة نجمة كبيرة هي فاتن حمامة ويجتهدون من أجل كسب إعجاب الجمهور أثناء التعبير عن خططهم ومقالبهم وشقاوتهم وعند الكشف عن مشاعرهم للإيقاع بالبطلة، وعندما تختار "هدى" أحدهم "أحمد" (عمر الشريف) في ضربة قاضية حسمت هذه المباراة لصالح أسطورة "الحب من أول نظرة" التي حدثت عند تبادل النظرات حين ظهرت هدى لأول مرة أمام حجرتها فوق السطوح، فهي بدت الجميلة، ست الحسن كما في الحواديت التي اختارت الشاطر حسن أو "الألفة" كما وصفته "زنوبة" (زينات

صدقي) صاحبة البيت، الطالب المجتهد، المهذب، اليتيم، الذي ينتمي إلى أسرة ريفية عريقة تظل الصداقة قائمة وقوية ويتسابقون أيضا للتعبير عنها، فالصداقة عاطفة لا تقل قوة عن الحب في السيناريو الذي كتبه علي الزرقاني عن قصة لحلمي حليم المخرج وهذه الصداقة بقيت ضمن عناصر الجذب بالاضافة إلى قيم الخير والمودة فالفقر لم يفسد لهم قضية، ولا الصراع حول المحبوبة، ولا أي شيء سوى الموت الذي خطف هدى في المشهد الأخير الذي نفذ بشكل جيد، حيث نتابع من زاوية مرتفعة ومن وجهة نظر هدى مسيرة الثلاثة الذين أحبوها بعد أن فارقوا المستشفي في آخر زيارة لها فارقوها على أمل اللقاء، و"هدى" في حجرتها تطل من النافذة تلقي نظرة وداع في نهاية ضمنية ليست سعيدة تنبئ بحتمية الفراق ولعل هذا المشهد الأخير، من أجمل المشاهد المعبرة على المستوى البصري عن مضمون الفيلم وعن مصير علاقات الحب والصداقة والمودة التي جمعت أبطاله.

هي قصة رومانسية جميلة، كما وصفها عمر الشريف، لكن لا شك فيها عفوية وبساطة اختلفت بشكل كبير عن رومانسية فيلم (صراع في الوادي) التي اتسمت بوعي أكثر اختلط فيه صراع الحب مع صراعات الواقع الاجتماعي لتلك الفترة، فأحمد بطل (أيامنا الحلوة)، الطالب الفقير المجتهد لم يكن هو البطل

العاصف في (صراع في الوادي)، بل البطل الهادئ الذي يتكلم بحساب ويكتم غضبه ولا يتمرد على الفقر أو على خاله الذي نهب حقه، نجح الفيلم لأنه امتلك توليفته الخاصة للنجاح وروعة نجومه الذين صنعوا صورتهم بملامح تتوافق مع المرحلة الجديدة، لكن عمر الشريف صار مجرد أيقونة عادية للرومانسية منقلباً على تمرده وجموحه الذي جعله فارقاً في فيلمه الأول.

"كنت مازلت أحبو على طريق الفن ولم أكن امتلكت وعياً كافياً للاختيار، ومع ذلك ففيلم أيامنا الحلوة يمثل حالة خاصة بالنسبة لي، حالة أحبها جداً."

صراع آخر صنع قفزة جديدة في مسار عمر كممثل صار يكترث باختياراته ويتحرك حسب وعي مخرجه يوسف شاهين الذي اختاره للمرة الثالثة ليكون بطل (صراع في الميناء) (1956) مع فاتن ورمزي، اهتم شاهين في هذا الفيلم بأوساط العمال والبحث في مشاكلهم وجسد عمر شخصية رجب الونش عامل الميناء، كان الفيلم بالنسبة لرمزي فرصة كبيرة وتعويض مقبول من نفس المخرج الذي تمنى أن يعمل معه في أول أفلامه، حيث حصل رمزي على دور ابن صاحب شركات النقل والتفريغ بعد أن كان مرشحاً له ممثل آخر، ووافق المنتج والمخرج على اقتراح عمر الشريف وانضم الى قائمة العاملين حسين رياض وتوفيق الدقن

بعد أن رفض فريد شوقي القيام بدور سكرتير صاحب العمل، وبدأت جلسات التحضير لأن أغلب مشاهد الفيلم كانت ستصور بالاسكندرية مسقط رأس عمر الشريف وخاصة بالميناء، دارت الكاميرا لتصور المشاهد الداخلية باستوديو جلال بالقاهرة حيث تم بناء ديكور المقهى والمكتب على نفس النمط الذي بالميناء، وكذلك فيلا وبيوت صاحب الشركة لأن في هذه الآونة كان الاعتماد على التصوير داخل الاستديوهات المخصصة لذلك وليس على استئجار شقق وفيلات وقصور، لأن الاستديو به معداته وأدواته وعماله وفنييه المدربين علاوة على نقاوة الصوت والتحكم بالاضاءة.

بعد الانتهاء من تصوير المشاهد الداخلية بالاستوديو، جاءت المشاهد الخارجية التي سيتم تصويرها بالاسكندرية، وانتقل الجميع إلى الاسكندرية لتصوير بقية المشاهد، وراح عمر الشريف إلى منزل أهله ومعه فاتن ليقيما هناك طوال فترة التصوير، وهي خطوة حدثت بعد أن نجح عمر الشريف في استمالة أهله مرة أخرى وإقناعهم بالخطوة التي اتخذها في زواجه من فاتن وإشهار إسلامه، واستطاع أن يحصل على مباركة عائلته لهذا الزواج وخاصة بعد أن رزقهما الله بطفلهما طارق، وأصبح أخاً لنادية التي مثلت مع والدتها فاتن حمامة فيلم موعد مع السعادة أمام

عماد حمدي وعبد الوارث عسر وزهرة العلى وإخراج والدها عز الدين ذو الفقار.

عاشت فاتن حمامة أياماً سعيدة بمنزل عائلة زوجها وكان أحمد رمزي قاسماً مشتركاً أعظم من أكثر أيام التصوير بالاسكندرية بالاحتكاك بعمر الشريف وعائلته التي رحبت أيضاً بهذه الصداقة الحميمة التي تجمع بين عمر الشريف وأحمد رمزي، كان في السيناريو مشهد يكيل فيه عمر الشريف اللكمات إلى أحمد رمزي بصورة متلاحقة حتى يسقط أحمد رمزي على الأرض وتأتي الفنانة فردوس محمد التي تلعب دور أم رجب الونش (عمر) وتخلص أحمد رمزي من براثن ابنها الذي أطبق على رقبته، وقبل أداء هذا المشهد أوعز أحد مساعدي يوسف شاهين إلى عمر الشريف، يقال أنه المخرج عاطف سالم، بأنه رأى أحمد رمزي وهو يغازل فاتن حمامه في الخفاء، واندهش عمر الشريف من ذلك، كيف يفعل أحمد رمزي صديقه هذه الفعلة النكراء؟ لكن هذا المساعد أكد له ذلك وأنه أي عمر الشريف لابد أن يختار أصدقاءه جيداً، ثار عمر ثورة عارمة وأقسم أن يلقن أحمد رمزي درساً لن ينساه في حياته، وعندما أعطى يوسف شاهين إشارة البدء حتى انهال عمر الشريف بقوة وجدية وكال لأحمد رمزي اللكمات بصدق وأخذ أحمد رمزي يتراجع تجاه مياه الميناء الملوثة بمخلفات السفن من الديزل وخلافه، ويوسف

شاهين أعطى الكاميرا حرية الانطلاق رغم صراخ أحمد رمزي وهو يقول "إنت بتضرب بجد يا عمر"، ولم يتوقف عمر عن الضرب حتى سقط أحمد رمزي في مياه البحر الملوث وأصيب بحساسية شديدة وعندما تم انقاذ أحمد رمزي وانتشاله من الماء، كان جسمه قد أصيب بحروق شديدة من جراء "الديزل" الذي كان يملأ المياه في هذه البقعة، واندهش الجميع من هذا التصرف وخاصة أن عمر الشريف أخذ فاتن حمامه وترك موقع التصوير فور أن قال شاهين: "استوب .. اطبع"، وحاول أحمد رمزي معرفة الأسباب التي جعلت عمر الشريف يتصرف معه بهذه القسوة والوحشية ولكن لا مجيب، وكلما سأل أحمد رمزي عمر الشريف يترك له المكان ويتركه في حيرته، حتى فاتن حمامة أرادت معرفة الأسباب ولكن عمر الشريف لم يعطها الفرصة لذلك ولم يرد على السؤال الذي ظل حائراً على لسان كل من فاتن حمامة وأحمد رمزي، وتأكد أحمد رمزي من مقاطعة عمر الشريف له بعد سنتين حين طلبه المخرج عاطف سالم من عمر الشريف ليقوم بالدور الأول في فيلم (إحنا التلامذة) أمام شكري سرحان وكان من المفروض أن يكون ثالثهما أحمد رمزي إلا أن عمر الشريف اعترض وطلب يوسف فخر الدين ورفضت فاتن حمامة القيام بالدور الأول في الفيلم وتم اختيار زيزي البدراوي بدلاً منها، ودامت القطيعة بين عمر الشريف وأحمد رمزي ثماني سنوات

حتى تقابلا يوماً في حفل عيد ميلاد في منزل الفنان الراحل صلاح ذو الفقار وتصافيا بعد أن عرف عمر الشريف حقيقة الوقيعة التي حدثت طوال هذه المدة وكانت عودة إلى صداقة أقوى من ذي قبل حيث عرض صلاح ذو الفقار على فاتن حمامة بطولة فيلم تشارك فيه زوجها، لكن عمر الشريف تنازل عن البطولة لأحمد رمزي كعربون صداقة وكاعتذار عما فعله فيه إبان تصوير فيلم (صراع في الميناء).

لم يكن مهماً أن يجيد الشريف التمثيل بقدر ما كان يعكس صورة فتى الشاشة الوسيم الذي يفتن الجماهير العاشقة للسينما، وذلك جوهر ظاهرة النجومية التي أشار اليها بعض علماء اجتماع السينما حول فكرة النجم في المجتمعات المعاصرة، وأنه يناضل ليضع نفسه في صورة براقة ولا مانع من أن يلعب نفس الدور الذي فعله "القديسون المحليون" في الأزمان القديمة، الذين كانت صورهم تباع في الأسواق، وعلى كل فرد أن يشتري صورة قدّيسه المفضل، وبحسب تلك النظرية، يستحوذ النجم على جمهور يعيش معه الوهم كحل أمثل لحياة بديلة.

"حينما أجلس مع نفسي وأراجع أدواري القديمة، أندهش جداً واسأل نفسي، ما هذا الذي كنت أفعله. كنت أقارن نفسي بنجوم بارزين كانوا وسيظلون علامة في تاريخ السينما مثل يحيى شاهين ومحمود مرسي، وكيف تركوا لنا أدواراً

جميلة وساحرة، كنت حينها أضحك على ما أقدمه مقارنة بهم، لكنني بعد تفكير كنت أقول لا.. إنه سحر وحماسة الخطوات الأولى، وأنتم لا تدرون كيف تكون الحماسة لذيذة ودافعاً للقيام بأمور، وإن بدت عبيطة فهي جميلة".

إذن، أدرك الشريف بعد رحلته الطويلة مع عالم التمثيل أنه كان في أدواره الأولى يجسد شخصية واحدة هي شخصيته في الواقع يتنقل بها من فيلم إلى آخر بالتعبيرات والملامح ونظرة العين الثاقبة والصوت الأقرب إلى الهمهمة نفسها، فلا فرق بين ابن ناظر العزبة الثائر ضد طغيان الباشا في (صراع في الوادي)، أو الفارس في (شيطان الصحراء) أو حتى العم خفيف الظل في (لا أنام)، الممثل واحد بأداء ثابت بصرف النظر عن موضوع وقضية الفيلم، أو عن أنه لن يكون حبيب البطلة بل عمها كما في (لا أنام)، فيلمه الرابع الذي قدمه مع زوجته بتوقيع المخرج صلاح أبو سيف عن رواية إحسان عبدالقدوس عام 1957، البطلة هنا هي فتاة مراهقة تعاني مشاكل نفسية وتتسبب في مشاكل بل ومآس لوالدها وزوجته وعمها إلى أن تقع هي في فخ الشر في النهاية، كان ذلك الفيلم نقطة إيجابية تُحسب لحمامة التي تخلت عن قناع البراءة والعذوبة لترتدي قناع الشر كمراهقة تحرّكها غرائز شيطانية، أما بالنسبة إلى الشريف فقد كان مجرد دور عابر.

لم يتوقف الشريف نفسه عند فيلم (لا أنام) كثيراً وانشغل بالعرض الفرنسي الذي جاءه في العام نفسه بعد أن أدى دورين قصيرين في فيلمي (صاحبة القصر الملكي) أمام الممثلة جينا ماريا كانالي، إخراج ريشار بوتيه، و(مرحباً أيها الحزن) من تأليف فرانسوا ساجان، كان العرض الجديد الذي جاءه عام 1957 قيامه ببطولة الفيلم الفرنسي (جحا البسيط) مع المخرج الفرنسي جاك بارتييه، والذي أحيا حلمه القديم ونبوءة العرافة اليونانية بالسفر الذي تحول إلى ما يشبه الطوفان الجامح لدى الشريف، جموح دفعه لتحقيق أحلامه المستحيلة والرحيل إلى سماء أخرى حيث الأفق أكبر غير عابئ سوى بـ"نداهة" أحلامه على الضفة الأخرى، حيث أضواء النيون أكثر وبريق الشهرة أكبر وأوسع.

"بدأ حلم الانطلاق إلى أوروبا وأمريكا يسيطر عليّ بشدة بعد انطلاقاتي المحلية، وكانت أول مرة أسافر فيها عام 1957 ولم يكن عمري تجاوز الـ 25 عاماً. في باريس، تعرفت إلى الشاعر والمسرحي الفرنسي من أصل لبناني "جورج شحادة" الذي كتب مسرحيات عدة من أشهرها "فاسكو" و"مهاجر بريسبان" وغيرها، وعند لقائي به كان الأديب فرغ لتوّه من إعداد نص لفيلم سينمائي بعنوان "جحا"، وتفرغت معه لإعداده سينمائياً وسافرنا الى تونس وصورناه بإشراف المخرج

بارتييه. أخفق الفيلم جماهيرياً، وعلى رغم ذلك لم تذهب جهودي هباء، إذ توطدت علاقتي أكثر بالمخرج بارتييه وعن طريقه تعرفت إلى الثراء المدهش في السينما الفرنسية".

على الرغم من أن الفيلم لم يحقق نجاحاً، إلا أنه أطلق اسم الشريف في الخارج كذلك اسم الممثلة التونسية الأصل كلوديا كاردينالي والتي كانت فازت حينذاك بجائزة ملكة جمال الإيطاليات في تونس وكانت هديتها السفر لحضور مهرجان سينمائي في مدينة البندقية، وبعد عودتها إلى تونس تلقت دعوة لتمثيل دور سينمائي في إيطاليا.

روت كاردينالي في أحد حوارتها الصحافية عن علاقتها مع الشريف: "كنت تلميذة في المدرسة الثانوية عندما جاء الشريف إلى تونس مع السينمائي الفرنسي جاك بارتييه وفريق كامل لتصوير شريط سينمائي، وعرضوا عليّ دوراً، وخلافاً لما كنت أعتقده فقد وافق والدي على أن أمثّل. تمت دعوتي في فندق في تونس لاختباري، ووصلت برفقة ثلاث من صديقاتي، وذلك من باب الحيطة والحذر، وصعدت إلى غرفة المخرج برفقتهن وهو أمر أزعجه، فطلب مني أن أمثل أمامه دوراً ففعلت، لكنه اكتفى بمنحي دوراً ثانوياً كخادمة لمغنية عربية. كان الشريف أول ممثل تعرفت اليه عندما جاء وقتها إلى تونس وكان شاباً يافعاً، وقد تجدد لقائي به بعد ذلك مراراً، وهو دائماً كما عرفته أول مرة

رجل وسيم، فالأعوام لم تترك آثاراً عليه، ففيه سحر الشرق، وهو رجل يحب النساء ويعاملهن برقة وشهامة وكرم.

ازدادت شهرة عمر، وعلى الرغم من أدواره هذه في الأفلام الأجنبية، إلا أنه استمر بالعمل في السينما المصرية، وتعددت أفلامه مع زوجته، فقدّما سوياً (سيدة القصر) (1958) من إخراج كمال الشيخ، و(نهر الحب) إخراج عز الدين ذو الفقار في العام 1960، عن الرواية المعروفة "آنا كارنينا" للروسي ليو تولستوي والتي ترجمت إلى معظم لغات العالم وأعيد طبعها مئات المرات، يفتتحها تولستوي بجملته الشهيرة: "كل العائلات السعيدة تتشابه، لكن لكل عائلة تعيسة طريقتها الخاصة في التعاسة". ومن الصعب أن نحصي عدد المرات التي تعاملت فيها السينما العالمية مع هذه الرواية، حيث تقديمها في معالجات مختلفة التزمت بأجواء الرواية وجغرافية أحداثها التي تدور في روسيا، أو معالجات رسمت تنويعات شتى لفكرة الثالوث "الزوج والزوجة والعشيق". وآنا كارنينا في الرواية زوجة وأم تقع في الحب لدرجة الهوس والخيانة، وتتحدى مجتمعها الذي يحاصرها بالرفض، فتقرر الانتحار تحت عجلات القطار. أما نوال فهي الزوجة الضحية لزوج نفعي وقاس لم تخنه، لكنها اشتبكت في قصة حبها المحرمة والمستحيلة مع خالد الذي يعاني معها كثيراً حتى يموت خالد على أرض المعركة في حرب 1948 ضد إسرائيل،

وتموت نوال على مفترق سكة الحديد، ليدوي في تلك اللحظة جرس الإنذار، مرافقاً مع صراخ ابنها الذي حرمه والده القاسي من أمه، كان صراخ الصغير يتماهى مع صراخ الحارس وقاطرة الموت تكتب كلمة النهاية، انحرف الفيلم عن مسار الرواية الروسية لأن تفاصيلها كانت من الصعب أن يتقبلها الجمهور الذي لن يتعاطف مع سيدة تخون زوجها وتنجب من عشيقها ولن يصدق أن تقوم بدور هذه السيدة نجمته فاتن حمامة التي لم يعتدها في أدوار مشابهة.

أضاف دور خالد في (نهر الحب) مسحة فنية مختلفة كأن هناك تحول ما حدث في صورته دل على محاولاته الجاهدة لتطوير مساره التمثيلي الذي قطع فيها شوطاً طويلاً حتى يتسلل إلى وجدان الجمهور، خصوصاً في أدوار لها طابعها الإنساني والقريب من أحوال البشر مثل دوره في (لوعة الحب) (1960) لصلاح أبو سيف والذي جسد فيه مساعد سائق القطار، أو يفاجئنا بواحد من أهم أدواره في (بداية ونهاية) (1960) عن رواية نجيب محفوظ وإخراج صلاح أبو سيف، وهو تجسيده لشخصية حسنين ابن الطبقة الفقيرة الذي يصعد على أكتاف أشقائه، ثم يتنكر لهم ولماضيه متخلياً عنهم ثم يخسر كل شيء في النهاية حتى حياته، أو أنه يقضي على أية حواجز باردة بينه وبين الجمهور كما حدث مع دوره الطريف في الفيلم الكوميدي (إشاعة حب)

(1960) لفطين عبدالوهاب، أو يقترب أكثر من الناس بدور الفدائي الذي يضحي بحياته من أجل قضية الوطن في فيلم (في بيتنا رجل) (1961) لبركات.

سار عمر على هذي طبيعته الحرة، يخرج من فيلم ليدخل آخر ويحقق هدفاً، لكن أكبر أهدافه لم تكن قد تحققت بعد، وقف على أرض سينما وطنه وعيناه متعلقة بسماء العالمية الأبعد، تعدّدت أفلامه المصرية بشراكة نجمات أخريات غير فاتن، نادية لطفي، ماجدة، شادية، سعاد حسني، هند رستم، لبنى عبد العزيز، زبيدة ثروت، برلنتي عبد الحميد، وعمل مع عدد من أفضل المخرجين المصريين، يوسف شاهين، عز الدين ذو الفقار، صلاح أبوسيف، هنري بركات، عاطف سالم، كمال الشيخ، فطين عبدالوهاب، وكانت إلى جواره حمامة لا تزال على عرش السينما المصرية والعربية.

"عملت أفلاماً كثيرة في القاهرة، ستة منها مع زوجتي، حققت هذه الأفلام نجاحاً كبيراً، وما المدهش في ذلك؟ إنها نجمة منذ كان عمرها خمس سنوات، لكن هل أقول سراً؟ هذا السر ضايقني كثيراً، إنها غطت عليَّ، سرقت الأضواء مني، كنت أشعر أنها بمثابة رئيستي، فاتن كانت رائعة، جمالها جمال شرقي، لكن عقلها كان أكثر إغراءً من جسدها، ذكاء فاتن يأتي من قلبها".

هكذا اعترف عمر بأن شهرة فاتن في القاهرة كانت تزعجه، فهل كان يكره تلك الشهرة؟ يعترف أيضاً أنه لم يكن يستطيع التمثيل مع أخرى ولو حدث، فإن حمامة تظل ظلالها وسيطرتها عليه الى درجة أنه يشعر بأنه التلميذ وهي الرئيسة، وكان متأرجحاً بين عمله ونجوميته وزوجته الأكثر نجومية في القاهرة، وحلمه بالسفر إلى البلاد البعيدة والسماء التي تمنحه مساحة متفردة وحرة له، بعيداً عن سيطرة أنوار نجومية زوجته، ومع ذلك كان يفكر في تكوين شركة للإنتاج السينمائي، حيث اشترى بالفعل رواية "لا تطفئ الشمس" لإحسان عبد القدوس، وبدأ يستعد للقيام ببطولتها أمام زوجته حمامة، ليكون الفيلم باكورة إنتاجه السينمائي، إلا أن بطولة مشروعه ذهبت إلى زميله شكري سرحان، ذلك لأن فرصته للانطلاق إلى العالمية حانت قبل إتمام المشروع، عندما اتصل به المخرج البريطاني الشهير ديفيد لين ليخبره أن المنتج البريطاني سام شبيجل يدعوه للقائه في الأردن لإجراء اختبار لأداء دور الشريف علي في فيلم (لورانس العرب)، فسافر إلى عمان وعاد يحمل عقداً بتمثيل الدور، بعد أن اجتاز جميع الاختبارات، كانت كل النتائج في صالحه كان ذلك عام 1962.

"أفلام ثلاثة مثلتها قدّمتني إلى أوروبا وأمريكا هي (صراع في الوادي) الذي عرض في مهرجان كان، ورشحت لجائزة أفضل

ممثل عن دوري في فيلم (صباح الخير أيها الحزن)، وحمل فيلم (جحا البسيط) اسمي إلى جمهور السينما في أنحاء أوروبا، وكانت مفاجأة جميلة حينما اتصل بي هاتفياً المخرج البريطاني الشهير ديفيد لين ليبلغني ترشيحه لي لفيلم (لورانس العرب)، فشعرت أن السينما العالمية تدق بابي. بعد عشرة أيام، عاود لين الاتصال بي ليقول إن المنتج سام شبيجل ينتظرني في الفندق، وتوجهت للقائه هو ومساعديه ورحبوا بي بشدة وأدهشتهم طلاقتي في اللغة الانجليزية واختبروني إلى أن اقتنعوا أنني ملائم للشخصية، ولأول مرة وجدت نفسي إلى جانب ممثلين كبار مثل أنطوني كوين واليك جينيس، وتوطدت علاقتي بهم وتعددت صداقاتي معهم".

عندما عاد عمر من الأردن ليزف الخبر إلى فاتن، قابلته بمشاعر موزعة بين الفرحة العارمة والخوف الغامض. أما الفرحة، فلأن الشريف سوف يكون النجم السينمائي من دون نفوذ وشعبية حمامة، وسوف يسترد معنوياته كلها ويتحرر من العقدة التي تملكت منه وأثرت في حياتهما معاً، أما الخوف الغامض فلم تكن تدري له سبباً ملموساً، مع أن السبب واضحة معالمه في قلب كل زوجة ترى زوجها يشق طريقه إلى مجتمع متحرر فيه نساء فاتنات بالمئات والآلاف، كانت فاتن الزوجة تخاف على عمر الزوج، وتفكر في ما يخبئه لها المستقبل في ما

بعد ... هل سيظل زوجها وحبيبها معها بجوارها وبجوار ابنهما طارق؟ أم ستفقده إلى الأبد وتخطفه منها "نداهة العالمية" التي لم تكف أبداً عن استدعائه إليها؟ وهاهو يلبي النداء بحماسة ومن أول مرة، للمرة الثانية تجد فاتن نفسها عاجزة عن الحركة، تتسمر في مكانها أمام عمر، المرة الأولى حين رأته وأصابها سهم الحب من النظرة الأولى، والآن حين يخبرها صوتها الداخلي أنها على وشك أن تفقده، لكنها لم تخبره بشكوكها واكتفت بأن ابتسمت وهنأته وشاركته سعادته، ثم راحت تنتظر ما يخبئه له الزمن والتطور الجديد الذي طرأ على حياتها، أما عمر فتملكت منه السعادة، لأنه شعر أن الحظ لم يزل حليفه وأن اختياراته تسير وفق هواه وأحلامه.

"وأنا صغير كنت أدخل السينما وأتفرج على الأفلام الأجنبية وأشوف الأبطال وأقول أنا عايز أكون زي فلان أو شبه علان، وأديني دلوقت بابتدي الخطوة الأولى معاهم هناك، الخطوة الأولى في طريق حلمت به كتير وأتمنى أوصل إلى نهايته وأكون زي النجوم اللي كنت باشوفهم". ابتسمت فاتن وشدت على يده وقالت: "مبروك يا حبيبي، بس ما تنساش أنت هنا برضه نجم". لم ينس الشريف أنه نجم في مصر، لكنه كان يتطلع ليكون نجماً عالمياً يعرفه الجميع. النجاح في مصر ليس على مقاس طموحاته. كان يريد ما هو أكبر وأوسع. "قبل

(لورانس العرب) كنت نجماً في بلادي، فمنذ أول فيَلم مثلته أمام فاتن حمامة، ظن البعض أنني خواجة ولا يمكن أن أنجح. حاصرتني الأقاويل أيامها، لكني رميت بكل ذلك عرض الحائط ونجحت".

الفصل الرابع
العالمي

على منحدر نجوميته في مصر، وعبر تنوع لعبة المد والجزر مع ظل فاتن حمامة، نجمة وزوجة، كان عمر الشريف يربي الأمل الساكن داخله ويتوق إلى اللحظة التي يطير فيها إلى مجرة أحلامه، مغوياً بالمجهول لا يشبعه الوضع المطمئن الذي يعيشه، كان يقيس المسافة بين أفلامه سواء التي شارك زوجته بطولتها أو التي شاركها مع نجمات أخريات، وبين لحظة فك الحصار الحريري الآمن، والتي أدرك حسب حواسه أنها قادمة لا محالة ولا شيء يمكن أن يعترضها ويمنع وقوع المكتوب الذي يغير مصيره، الحياة ماكرة وهو عرف ذلك فكان لابد من فرصة وحين أتت تشبث بها، فكل شيء يخضع للاحتمالات، والاحتمالات ذاتها تتغير. ولما كان هاجس العالمية قد أصاب عمر بعد ثلاث سنوات فقط من ظهوره كممثل، ولما عرفنا أنه شارك بأدوار قصيرة في بعض الأفلام الأجنبية، بعد ما سافر إلى باريس عام 1957 والتقى

الشاعر والمسرحي اللبناني جورج شحادة، واكتشفا أن ثمة صداقة قديمة بين عائلتيهما، حيث ولد جورج في الاسكندرية وعاش بها طفولته وصباه، قبل أن يعود والده إلى بيروت، فمن هنا بدأ عمر بدور في فيلم (جحا البسيط) من تأليف شحادة وإخراج جاك باراتييه وبدأت خطوته الأولى بالفيلم الذي قدمه في العام 1957 وعرَّف جمهور السينما فى أوروبا بعمر الشريف، حيث عرض الفيلم فى مهرجان "كان" عام 1957، وكان الفيلم الثانى لكلوديا كاردينالي، التى تمثل فيه دور خادمة تاج العلوم، وأول فيلم يشارك فيه عمر الشريف بعد أن شاهد جاك باراتييه صورة له فى مجلة وهو فى عمر الـ22، وحاز الفيلم على جائزة الفيلم الدولي فى نهاية مهرجان "كان" فى ذلك الوقت، وقام عمر الشريف بدور جحا، غبي القرية، الساذج والأُمي الذي يلتقي في الجوار بعاقل محبوب يحترمه الجميع هو تاج العلوم، يتفق الاثنان معاً ضد كل ماله صلة بالعقل، لم تحقق له أدواره الصغيرة في هذه التجارب ما كان يأمله؛ كانت مجرد ومضات أعانته فقط على اكتشاف الطريق، لكن الغواية ظلت تطارده حتى وصلته رسالة المنتج البريطاني سام شبيجل وحصل على دور الشريف علي في فيلم (لورانس العرب) مع المخرج ديفيد لين. غادر عمر القاهرة لتصوير دوره في الفيلم الجديد، الذي يروي سيرة ضابط استخبارات بريطاني أرسلته حكومته لتأليب عرب

شبه الجزيرة وقبائلها على الدولة العثمانية، وتشكيل مجموعات مقاتلة من أنصار الهاشميين للعمل خلف خطوط القتال التركية في الحرب العالمية الأولى، وتزعم السيرة الرسمية للضابط المذكور أنه أراد تحقيق الوحدة العربية في المشرق بزعامة الهاشميين، غير أن رؤسائه خدعوه عبر الاتفاق السري "سايكس - بيكو" الذي يقضي بتقسيم بلاد العرب بين فرنسا وبريطانيا فضلاً عن وعد "بلفور" الذي يمنح فلسطين لليهود، هكذا روجت بريطانيا لأسطورة لورانس وجعلته قائداً للعرب وبطلا لوحدتهم الفاشلة. كان الفيلم بحاجة إلى نجم عربي كي يستقيم ويصبح مقبولاً، فكان الشريف هذا النجم الذي أتيح له أطول مشهد دخول في تاريخ السينما الأمريكية حين أطل بحصانه وانتهى هذا المشهد الطويل بأول عبارة نطقها الشريف "إنه ميت"، وكان بيتر أوتول هو لورانس، الضابط البريطاني، وأصبح الفيلم أسطورة سينمائية تسحر البريطانيين والغربيين وتشد خيالهم إلى عبقرية ضابط صنع أمة وقادها كما تشتهي بلاده.

في المرة الأولى التي التقى فيها عمر بديفيد لين كان يقف وحيداً في انتظاره وسط الصحراء، وكان الأمر أشبه بالمن بالنسبة إلى النجم بحسب تعبيره شخصياً، إذ لم يكن في ذلك الحين أكثر من ممثل مصري شاب يشق طريقه في عالم السينما، ومن هنا كان يشعر بأن لقاءه مع مخرج (جسر على نهر كواي) سيكون

أشبه بالحلم، وعلى ذلك النحو نزل عمر من الطائرة الخاصة التي أقلته إلى قلب الصحراء ليجد لين واقفاً أمامه.

"فوراً نظر إليّ لين من رأسي إلى أخمص قدمي من دون أن يتفوه بكلمة، ثم اصطحبني إلى خيمة حيث جرّب أن يضع على وجهي شاربين ولحية، وذلك كله وسط صمت مطبق حيّرني، بعد ذلك التقط لي مشاهد تجريبية قصيرة مع الممثل الفرنسي موريس رونيه الذي كان استُدعى ليقوم في الفيلم بدور مهم، وما إن انتهينا من ذلك التصوير التجريبي، أرسل لين ما صوّره إلى كولومبيا، الاستوديو الهوليوودي المنتج للفيلم، فيما عدت أنا إلى القاهرة".

عاد الشريف إلى القاهرة وهو متأكد من قبوله للتمثيل في ذلك الفيلم الذي خسره ممثلون آخرون منهم الفنان رشدي أباظة، إذ رأى لين أن الشريف هو الأقرب إلى الملامح العربية الواضحة كذلك لغته الانجليزية كانت أفضل، بعد ذلك بفترة قصيرة تلقى الشريف وهو في القاهرة رسالة تدعوه للتوجه إلى لندن فقال في نفسه: "كل هذا من أجل دور صغير"، ثم توجه إلى العاصمة البريطانية وعلم هناك أنه اختير للقيام بالدور الذي كان من المفترض أن يمثله موريس رونيه، وكان هو الدور الثاني في الفيلم، المفاجأة أدهشت الشريف وأسعدته بالطبع.

"أخبرني لين لاحقاً أنه يحب رونيه حقاً، لكن الأخير لم يكن يبدو عربياً بما فيه الكفاية، ثم أن لين كان يريد للدور ممثلاً ذا عينين غامقتين، لإبراز عيني بيتر أوتول الزرقاوين، بالإضافة إلى أنه حينما جعلني ورونيه نمثل التجربة معاً، كان يعلم وقبل إبلاغ كولومبيا بذلك، أنني سأحصل على الدور، والأمر نفسه حدث خلال التصوير، كان لين يعرف جيداً ما الذي يريده، حتى أنه كان صاحب قرار إزالة الشامة المشهورة في وجهي".

قبل التصوير كان ديفيد لين يقبل النقاش، لذلك كان يجمع ممثليه وفريق فيلمه كل صباح كي يشرح لهم المشاهد التي ستصور خلال اليوم، ويصغى دائماً إلى اقتراحاتهم بإنصات، لكنه في الحقيقة كان نادراً ما يعمل بهذه الاقتراحات، كان انجليزياً إلى حد كبير؛ يستطيع أن يُصدِّر لمن أمامه أن لديه هذا الهدوء الانجليزي القاتل، وأنه أيضاً لا يحب الممثلين كثيراً.

"الحقيقة أن لين كان يحب الممثلين حينما يحتاج إليهم فحسب، وفي المقابل كان يفضل صحبة المخرجين والتقنيين".

لما سافر الشريف إلى الأردن من أجل (لورانس العرب)، واستمر التصوير عامين في صحراء الأردن وكان شاقاً، لكنها كانت ضريبة الأحلام الصعبة التي تستحق التعب والجهد، والتي دفعها الشريف عن طيب خاطر وإرادة سعت إلى النجاح وكان التحدي سمته التي ساعدته في الوصول إلى ذلك، سيما أن المخرج اختار

لهم أثناء تصوير الفيلم أن يعيشوا حياة البدو خلال 28 يوماً في الشهر هي مدة العمل، وفي اليوم الثامن والعشرين، كانوا يفرون إلى بيروت في إجازة مدتها 48 ساعة، يقضيها كل منهم بالطريقة التي تناسبه، وقد تعود عمر مع بيتر أوتول أن يبحثون عن ملهى ليلي كنوع من كسر حالة القيود التي تضغط عليهم.

وصلت ميزانية "لورانس" إلى أربعة عشر مليون دولار، أكبر إنتاج سينمائي شهدته الستينيات وحقق من خلاله ديفيد لين أول انطلاقة عالمية للشريف المجهول للأوروبيين والأميركيين وكذلك لبيتر أوتول الذي لم يكن تجاوز بعد الحدود البريطانية، أوتول ذلك الأيرلندي صاحب العينين الزرقاوين، قام بدور لورانس الذي استطاع أن يكسب لبريطانيا إمبراطورية، بينما قام عمر بدور الشريف علي زعيم أو رئيس قبيلة عربية يعاونه للوصول إلى ذلك الهدف، والشريكان أخذا حصتهما من الصحراء ومن شهرة غامرة تجاوزت التصورات.

"لم يكن أي منا، أنا وأوتول، ذهب إلى هوليوود، لكننا بالطبع تصورنا إمكان حدوث ذلك، وضعنا سوياً هذه الرؤية أمام من عملوا معنا، واستمعنا منهم إلى قصص، من أليك جينيس، أنتوني كوين، وديفيد لين، كان لديهم الوقت لأن يتكلموا وكان لدينا الوقت لأن نسمع، كنا نعيش جميعا تحت الخيمة نفسها وسط الصحراء، كنا مضطرين لأن نراعي

حياتنا، ننصت إلى أحاديث بعضنا البعض، كنت أراقبهم كأصدقاء وكنت أنصت إليهم ممتنًا وشاكرًا لهم بشدة، كنت أدخل من خلالهم إلى عالم فسيح، عالم التمثيل والسينما، عالم التجربة، كنا نتكلم عما فعلوا ولم أفعل، عما رأوه ولم أره، من تلك الأحاديث أخذت ما يمكن أن يتلاءم مع طبيعتي، كنا كمجموعة من الممثلين في لورانس العرب مرتبطين باهتمامات مشتركة، لكن كان هناك شعور بعلاقة قوية تربطني بأوتول، وهذه العلاقة الحميمة تكونت تحت عباءة الصداقة".

سيناريو الفيلم مأخوذ من كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" الذي ألفه لورانس نفسه، واستغرق تصويره حوالي العامين بين الأردن وسوريا، وقيل الكثير عن طبيعة العلاقة بين لورانس والشريف علي، تلك العلاقة التي أربكت عمر نفسه قبل التصوير وأدهشته بشكل كبير وراح يبحث في خلفياتها حتى يمسك خيوطها.

" كُتبت مقالات لا حصر لها عن ذلك، والسيناريو لم يحدد تماماً طبيعة علاقتهما، لقد صوّر السيناريو تعقيداتها وهي تكشف نفسها خلال الفيلم عن طريق السلوك الذي كان في الواقع انعكاساً للحياة اليومية التي كنا نعيشها أوتول وأنا".

اختار ديفيد لين مكانًا في الصحراء يبعد عن أقرب طريق بحوالي 150 ميلا، وذلك تحاشياً لظهور أي أثر لأقدام العاملين في الفيلم، كذلك اختار مكاناً يبعد عشرين ميلاً عن مكان التصوير لإقامة طاقمه الفني، وذلك حرصاً منه على أن تكون المشاهد بكراً. أما الفنانون والفنيون والبدو فوصل عددهم إلى ألف شخص، كانت إمداداتهم تصل عن طريق ثلاث طائرات وفّرها المنتج لخدمتهم، إضافة إلى ذلك كانت هناك مئات من الجمال والخيول وكان لها طعامها وشرابها أيضاً.

"كان الإنتاج ضخماً جداً لدرجة أن خيامنا كانت مجهزة بأجهزة تكييف وثلاجة، وكان هناك مساعدون لكل ممثل وفني للعمل على راحتهم، وكانوا يقومون بغسل ملابسنا ومسؤولين عن ضرورة وجود طعام وشراب في أي وقت، كذلك جهّز مطعم تحت إدارة كبير طهاة في لندن، كانت هناك منضدة لكرة الطاولة بجانب المطعم، ومساء كل سبت كان هناك جو للإجازة الذي يوجد في المدينة، فيعرضون أفلاماً في الهواء الطلق لكل العاملين في الفيلم، ولم يكن ثمة من تخلّف عن مشاهدة واحد من تلك الأفلام التي تجاوزت المائة فيلم لكنني لا أتذكر ماذا شاهدنا؟ لا أستطيع أن أذكر اسم أي من هذه الأفلام، تعودت أن أنظر إلى الشاشة من دون أن أرى، ببساطة استمتعت بعدم تتابع الأحداث في الأفلام التي شاهدتها، عدم

التتابع هذا هو الذي نسيته. استمتعت أيضاً ببعض المواضيع المستحيلة في هذه الوحدة ين كثبان الرمال ووجدت نفسي في هـذا الـركن مـن الأردن، حيـث النـاس والحيوانـات يعيشـون سوياً. ففي هـذا المكان كنت أراقب بهدوء بال كل ما حـولي، ومرتـدياً زي الصحراء مطيعـاً لقانونهـا ولسحرها. كـان هنـاك الكثيرون حـولي من الفنانين والفنيين، لكني تعلمت الإنصات والصمت ومتابعة الصحراء بسحرها اللانهائي، وتعلمت كيف أكـون وحيـدًا مـع نفسـي وسـط الزحـام، شيء أشـبه بتمـارين اليوجـا، لكنـه أفـادني كـثيراً وجعلـني أبـدأ علاقـة جديـدة مـع نفسـي،علاقة تمنحـني ثقـة بنفسـي وحبـاً للطبيعـة ولكـل مـن حولي".

أضفت الصحراء بعض الشاعرية على شخصية عمر وجعلته كمن يكتشف ذاته من جديد، ويبدو أن هذا الأمر حدث مع بقية فريق الفيلم وعلى رأسهم المخرج ديفيد لين الذي يصف عمر حالته أثناء التصوير فيقول: "اختار لين أن يعيش كما يعيش البدو، كان يعيش في عربة مقطورة في المكان نفسه الـذي يُصوّر الفيلم فيه، وفي كل صباح كنا نذهب إلى المقطورة في الساعة الخامسة والنصف ونرى المنظر نفسه كل يوم، كنا نـرى مقعـداً مزروعـاً في ذلـك الاتسـاع الصحراوي الـذي بـلا حـدود، وعلى هـذا المقعـد كان يجلس لـين يتأمـل الأفـق، وفي

الوقـت نفسـه يشـبع نفسـه بالمشـهد الـذي سـوف يخلقـه لمغـامرات لـورانس وعلي، الواقـع أنـه كان يجلـس هنـاك لمـدة سـاعتين بـلا حـراك، كـان يريـد أن يحصـل على نصـيبه مـن الصحراء كل يوم، كان ذلك الرجل يجلس وحده وسط كثبان الرمال وهي تتماوج أمامه بلا نهاية".

وفيما كان هناك ثلاثمائة من البدو يمحون آثار الأقدام من بواسطة سعف النخل العريضة، كان فريق العمل يبدأ تمارينه اليومية، ثم بعد ذلك يبدأ البدو في محو أثار الأقدام مرة أخرى ثم بروفة ثم محو، وهكذا، وعندما تبدأ الشمس في المغيب يعود الجميع إلى المعسكر، أما ديفيد لين فكان يعود إلى تأملاته. مرت أيام التصوير وكان بين الشريف وأوتول حلم مشترك تحدثا فيه كثيراً وباستفاضة، إذ كانت تتراءى لهما لحظة افتتاح الفيلم وعرضه وكيف ستكون وكيف ستظهر أسماؤهم بحروف كبيرة في كل مكان، وشكل المنتجين وهم ينهالون عليهم بعقود الأفلام، لكن الشريف كاد يخسر تلك اللحظة ويُحرم من حضور حفلة الافتتاح، وذلك عندما رفض المنتج حضوره، مبرراً ذلك بأنه من الأحسن أن يركز في الفيلم على بطل واحد فحسب، وهو بيتر أوتول، أما أن يدفع باثنين غير معروفين للجمهور في وقت واحد فإن ذلك لن يكون من صالح الفيلم، إلا أن أوتول اتخذ موقفا إيجابياً ومسانداً لصديقه الجديد الشريف حينما قال للمنتج

بلهجة قاطعة وحاسمة: "إذا لم يحضر عمر فإنني أيضاً لن أحضر".

في حفل افتتاح الفيلم دخل عمر وبيتر إلى قاعة السينما المضيئة من الخارج، في الميدان إضاءة لا حد لها، وفي الداخل النجوم الكبار: اليزابيث تايلور، شيرلي ماكلين، ريتشارد بيرتون، جريجوري بيك، هؤلاء كانوا هناك ضيوفاً على حفلة الافتتاح، لقد عرفهم عمر الذي لم تقع عيناه عليهم من قبل سوى على شاشة السينما، لقد كانوا الحلم بالنسبة إليه في سنوات مراهقته، وتلك الليلة أصبحوا حقيقة أمامي، ولم يكن أوتول أقل من الشريف غربة بالنسبة للسينما العالمية، لكن اسمه هو والشريف ظهرا بحروف ضخمة على الشاشة الكبيرة، وكانا يجلسان على مقاعد مريحة ويتطلعان إلى الناس بقلق منتظرين ردود أفعالهم، كان زمن الفيلم أربع ساعات، وعندما نزلت الستارة، وجدا أنفسهما العربي والأيرلندي في مواجهة نجوم العالم وملكة بريطانيا العظمى، وسط أوركسترا إنسانية تقدم لهما التهاني، لحظة استثنائية كما وصفها الشريف: "تبادلنا، أنا وبيتر، نظرة مرتجفة، سريعة جداً، ثم وجدنا أننا قد انفصلنا، أحسست أنني قد ولدت مجدداً بواسطة إعصار". هي لحظة ميلاد جديدة كما اعتبرها الشريف، تكللت بحضور ملكة بريطانيا التي أقيمت الحفلة على شرفها، فأضفى حضورها طابعاً خاصاً

وقد تحول المكان إلى مسرح فخم للتاريخ والتقاليد العريقة، إذ انتظم الحرس الملكي بأبواقه وأزيائه الجذابة في الأروقة والمداخل، بقيت ذكرى تلك الليلة ماثلة في بال عمر لأنها كانت بالنسبة إليه مناسبة عظيمة، رأى فيها الملكة اليزابيث للمرة الأولى في حياته وصافحته بحرارة وقدمت له التحية على أدائه، كذلك جاء الأمير فيليب بعد العرض ليحييه، فتضاعفت ثقته بنفسه. حقق الفيلم نجاحاً مدوياً وحصل على جوائز الأوسكار فيما بعد وكتبت الصحافة العالمية عن الشريف وأثنت على تجسيده لدور "الشريف علي" في الفيلم.

توطدت العلاقة بين عمر وبيتر أوتول الذي سانده وقدم له النصائح كي لا يتم استغلاله في أفلام تجارية أو دعائية هدفها تشويه صورة العرب، وساعده مادياً حتى لا يضطر إلى الوقوع في أي فخ تحت الضغوط المادية، وعلى رغم ذلك كله وقع عمر في فخ كبير، إذ وقع عقداً مع شركة "كولومبيا" من دون أن يفحص مواد الاتفاق جيداً، وكانت غلطة كبيرة دفع ثمنها باهظاً وبقي أسيرهم سبعة أعوام طويلة يمثّل خلالها أفلاماً سيئة أُجبر عليها بسبب العقد، كان من بينها فيلم (جنكيز خان) الذي اضطره إلى البقاء في يوغوسلافيا أربعة أشهر لقاء أجر بخس، وفي هذا التوقيت عُرض عليّه دور في فيلم (سقوط الإمبراطورية الرومانية) الذي حظي باستحسان واسع وكان بداية معرفته

بصوفيا لورين، ثم ظهر ديفيد لين في حياته مرة أخرى لينقذه من وضعه البائس، فانضم إلى فريق فيلم (انظر الحصان الشاحب) مع أنتوني كوين وجريجوري بيك وقدمت فيه شخصية شديدة التعقيد، ثم كانت النقلة المهمة في حياته بفيلم (دكتور زيفاجو) حيث أسند له ديفيد لين البطولة الرئيسة في الفيلم وسلمه مفاتيح الشهرة والعالمية، كما شمل ابنه طارق برعايته وإشراكه معه في الفيلم ليقدم شخصية الطفل "يوري"، وعلى الرغم من نجاح طارق، وهو طفل لم يتجاوز التاسعة من عمره وإشادة المخرج والمساعدين به، إلا أنه لم يرغب حينما كبر في الاستمرار في المجال ولم يضغط عمر عليه.

مع لورانس العرب تغيرت حياته، وتجلت صوره بأشكال أخرى فككت عُقده القديمة من انطواء وعزلة وخوف والاتكاء على ظل رفيقته، وهو كان الوجع القديم قد انسحب مَنذ تعرف على فاتن إلا المشي في ظلها الذي كان يتسلل منه رويداً رويداً، فيقضي معظم أوقاته خارج مصر، في فرنسا أولاً حيث نشأت علاقته بفنانيها وبالسينما فيها وبالطبع ظُلمت فاتن حمامة باعترافه هو: "**أعرف أنها كانت تفتقدني أوقاتاً طويلة بسبب سفري الدائم خاصة بعد إنجابها لابننا طارق**". شعرت فاتن حمامة بهذا الفقدان وسيطر شبح الخوف على حياتها وتراءى لها أن عمر ملاكها الحارس والجالب للسعادة سيذهب بعيداً ولن

يعود، وأن أسرتها ستخسر عضواً مهماً، ليس هو الزوج فقط، لكنه الصديق والحبيب والأب الحنون لطارق إبنهما ونادية ابنتها من زوجها السابق والراحل عز الدين ذو الفقار والتي كانت مرتبطة بعمر بشكل كبير، وجدت نادية في عمر صورة الأب الذي لم تعرف سواه وكان هو يحبها كأنها ابنته فعلاً، جزء منه كما كان دائماً يقول ويحرص على أن تشعر بذلك، كما حرص على أن يجعلها ترتبط بأخيها طارق وتقترب منه حتى صار الإثنان فيما بعد أقرب إلى شقيقين ربطت بينهما صداقة كبيرة وجميلة وضع لهما بذورها الأب عمر الشريف.

كانت هذه الصورة المثالية تتراءى أمام عين فاتن حمامة وتشعر أنها ستنهار بسبب العروض الأجنبية التي بدأت تنهال عليه، لكن فاتن شخصية قوية وتعرف أنه لو القدر أراد ذلك فلن تستطيع أن تمنعه أو تعانده، فرغم حبها الشديد لعمر ورغبتها الملحة في أن يظل بجوارها طول الوقت إلا أنه ليس أمامها سوى أن تسانده كزوجة محبة ومخلصة ومتعالية على أحاسيس الغيرة التي بدأت تشتعل في قلبها، وفي نفس الوقت راحت تهتم أكثر بعملها، كان هذا الاختيار دليلاً على ذكائها وتنشئتها المستقلة التي جعلتها تدخل مجال التمثيل مبكراً دون أن تمر بمرحلة طفولة مليئة باللعب والانطلاق كسائر الأطفال المحيطين بها في الشارع أو المدرسة، كما لم تمر بمرحلة مراهقة

تتسم بالمغامرة وقصص الحب التي كانت تسمع عنها من بعيد، بل أنها في هذه المرحلة العمرية والتي لم تتجاوز فيها الثالثة عشر من العمر التحقت بالمعهد العالي للتمثيل تدرس وتتدرب وتعمل في ذات الوقت مع نجوم كبار لا يشار فقط إليهم بالبنان وإنما مجرد ذكر اسمهم يشعر ناطقه بالرهبة، باختصار كانت فاتن "كبيرة من يومها" كما تقول اللغة الدارجة.

تعاملت فاتن باحتراف مع التمثيل، عمل في المقام الأول ثم تأتي بعده الأشياء الأخرى، سواء الشهرة أو النجومية أو حتى الحب، وعلى هذا الأساس جاء تشبثها أكثر بالعمل رداً على تهديد استشعرته تجاه حياتها الزوجية والعاطفية، كان هذا هو انتصارها الخاص الذي منحها إرادة صارمة على استكمال المشوار مهما كانت النتائج التي لم تختبرها بعد، فقدمت مع عمر الشريف ومع غيره مجموعة من الأفلام المهمة في هذه المرحلة التي شكلت منعطفاً مهماً سواء على صعيد حياتها الشخصية أو الفنية، كانت أمام الكاميرا تنسى عذابها وآلامها ومخاوفها من المجهول القادم من الغرب ليختطف حبيبها ومعه سعادتها، فتظهر على الشاشة إنسانة أخرى هي أيقونة للرقة والرومانسية، فراشة أو راقصة باليه تتحرك بخفة وبراعة، تبهر الجمهور الذي يمنحها مزيد من النجومية الطاغية وهو لا يعرف ما تعانيه في الواقع من آلامها الخاصة والعاطفية أو من عناء التدريب القاسي في الليالي الطويلة

على أعمال مهمة تواصلت فيها مع جمهورها ومع طموحها الفني، لم يشعر أحد بأوجاع فاتن وعذاباتها، فقط انجذبوا للصورة التي صدرتها للجميع بذكاء، إنه الاحتراف الذي انتصرت له فاتن وصار عنواناً لطريقها تسير فيه وفق قوانينه وتسعى إلى التميز، لأنها كما احترفت العمل احترفت النجاح الذي أوصلها لتكون سيدة الشاشة ونجمتها التي حصلت على مكانة لم تتوفر للأخريات.

في هذه المرحلة الحاسمة من حياتها بدأت تنضج شخصية فاتن الفنية وراحت الفراشة الجميلة الرقيقة تغير من لونها الثابت التي عرفها به الجميع إلى ألوان أخرى أكثر تنوعاً، تخلت تدريجياً عن ملامح صورتها القديمة التي التصقت بها لأعوام طويلة، وارتبطت بالجماهير البسيطة من خلال تجسيدها لشخصيات فتيات ونساء خاضعات لقسوة المجتمع أو لظروف الحياة القدرية أو للمرض، ربما كانت الفتاة المريضة هي الأكثر تكراراً في أدوار فاتن حمامة (موعد مع الحياة، أيامنا الحلوة، موعد غرام، لحن الخلود وغيرها...) حيث كان مرضها دائماً يقف عائقاً بين اكتمال حبها وسعادتها، وهي بكل ما تمثله من استكانة وخضوع وقهر وفطرة سمحة وقبول طوعي لكل ما تتوهم أنه من أجلها، هي المجتمع ذاته في تلك الفترة، الأربعينيات وحتى بداية الخمسينيات، مجتمع ما قبل ثورة يوليو، حيث كان المرض جزء من مشاكله ومآسيه الخربة يصنع مفارقات درامية عنيفة في الواقع بين عالم

الباشوات والأغنياء وعالم الفقراء الذين يمثلون أغلبية الشعب المصري، مفارقات استمرت حتى قيام ثورة يوليو التي طوقت المرض وصنعت مجتمعاً جديداً بثقافة مختلفة هي ثقافة المقاومة لا الاستسلام أو استجداء العطف في صورة فتاة مريضة خرجت من ضلع مجتمع أعوج.

فاتن حمامة قدمت في أفلامها القديمة هذه الصورة وكشفت عن الفوارق الشاسعة والمخيفة بين طبقات المجتمع المصري، لكن دون أن تنتقد الأوضاع أو تثور عليها أو تلمح، ولو إشارة، بالغضب منها، فقد كانت كما قال عنها الناقد كمال رمزي: "حمامة السلام بين الطبقات، فهي إما المرسال الرقيق النبيل الوافد من الطبقة الثرية ليهب قلبه وحبه لأحد ممثلي الطبقة الفقيرة، وإما البنت الفقيرة الجميلة كنبت طاهر يليق به أن ينتقل من تربة القاع ليزين عالم القمة، فقط عبر قصة حب تفضح بهدوء وحذر عيوب النظام الطبقي وانتهازيته. كانت تقدم صوراً متعددة تعتبر نسخة مكررة من صورة ثابتة للمرأة الضعيفة والمستكينة غير الفاعلة، وهي الصورة التي اختلفت كثيراً بعد الثورة التي انحازت إلى الطبقات المقهورة واتخذت موقفاً مواجهاً للطبقات المستغلة الثرية، وهو ما قالت عنه فاتن نفسها: "أنا لم أتعمد تقديم شخصية الفتاة الضعيفة المغلوبة على أمرها حتى أكسب عطف وحب جمهوري كما يتصور

البعض، لكن ظروف الفتاة والمرأة في هذه المرحلة كانت هكذا، فالمرأة المصرية والعربية بشكل عام لم تكن قد حصلت على حقوقها الإنسانية والاجتماعية، والقصص والروايات السينمائية كانت تترجم هذا الواقع وكنت أنا أجسده وأؤديه، وعندما تغيرت صورة المرأة بعد ذلك خصوصاً في الستينيات وما بعدها تغيرت معها نوعية الأدوار التي قدمتها".

لا شك أن فاتن حمامة قد تغيرت في هذه الفترة بسبب التغيرات التي طرأت على المجتمع المصري كله بعد ثورة يوليو؛ فهذا أمر بديهي، لكنها أيضاً اكتسبت نضجاً وذكاءً خاصاً من خبرتها جعلها تواكب التغير المتزايد في عمق الوعي الاجتماعي، كانت حياتها الخاصة مع زوجها عمر الشريف مهددة بالانهيار، وهي تحاول أن تبني حياة أقوى تقابلها في عالم السينما، هذا العالم الجديد أو الحياة الجديدة الذي رسمته في مفارقة غريبة بأحد أفلام حسن إمام المخالف للصورة المألوفة لأفلامه (لن أبكي أبداً) (1957) الذي لعبت فيه دور امرأة إيجابية تعيد الحياة إلى مزرعتها وتحاول أن تنسج علاقات محبة مع أهل قريتها الذين يعتقدون خطأ أن والدها الباشا تسبب في قتل واحد منهم، كما قدمت في (لا أنام) (1957) لصلاح أبوسيف، شخصية المراهقة الصغيرة التي تعيش صراعاً نفسياً مع العالم المحيط بها وتتسلح ببعض الشر البريء في مواجهة هذا العالم، وفي فيلم (الطريق

المسدود) (1958) قدمت شخصية الفتاة التي تبحث عن ذاتها وتدافع عنها، رافضة حياة الفساد الأخلاقي التي تعيشه أسرتها، والدتها وأختها، وتتطلع إلى حب عذري وحياة نظيفة كما تقرأ في الروايات، بالرغم من الجو الملوث المحيط بها والذي لازمها حتى في القرية التي سافرت إليها لتعمل كمدرسة، حيث قوى الشر والفساد التي أحاطتها وأفقدتها الرجل الذي أحبته هناك والذي خذلها ولم يقف بجوارها، لكنها خرجت منتصرة ومحافظة على كبريائها، وفي (دعاء الكروان) (1959) لهنري بركات عن رواية طه حسين تصل إلى ذروة النضج الفني في صراعها المرير مع واقع تسيطر عليه مفاهيم متخلفة وتعيش فيه المرأة أقسى حالات القهر من خلال شخصية آمنة الفتاة البدوية التي تتخذ من الانتقام وسيلة لمقاومة هذه الحياة بعد ما رأت ماحدث لشقيقتها هنادي التي دخلت عالم التنازلات والذي قررت آمنة ألا تطأه بقدميها أبداً ولو دفعت حياتها ثمناً لإيمانها بذلك المعتقد، حتى في (نهر الحب) (1960) الذي تشاركته مع زوجها عمر الشريف بتوقيع زوجها السابق المخرج عز الدين ذو الفقار ورغم أنه مأخوذ عن رواية عالمية شهيرة سبق أن قدمتها السينما العالمية أكثر من مرة هي "آنا كارنينا"، إلا أنه انحرف عن الرواية الأصلية وربطها بجزء من الحياة المصرية محاولاً الكشف عن فساد حياة الباشوات قبل ثورة يوليو متمثلاً في الباشا الوزير القاسي "زكي

رستم" الذي يتزوج من ابنة الطبقة المتوسطة الصغيرة والتي يقهرها ويقضي عليها عندما تحب شخصاً آخر هو الضابط الوطني الذي يذهب ضحية الأسلحة الفاسدة في حرب فلسطين عام 1948، وفي (لا وقت للحب) (1963) لصلاح أبو سيف عن قصة يوسف إدريس و(الباب المفتوح) (1963) لبركات عن رواية لطيفة الزيات، يرتبط المصير العام بالمصير الخاص، وهي تعمل على انتزاع حريتها إلى جانب مساهمتها في انتزاع حرية بلدها، وتوطأت عزيزة صدارة الكلمة والصورة في فيلم (الحرام) لهنري بركات (1965) المأخوذ عن رواية بنفس الاسم ليوسف إدريس، لتكون عزيزة شاهداً على سينما تتغير إثر تغير فعلي حدث في الواقع، وليكون الفيلم من أهم الأفلام المصرية في الستينيات، حيث تدور أحداثه في الريف وشخصيته المحورية هي امرأة فلاحة "عزيزة" تسقط تحت ضغط الحاجة، حين يعتدي عليها صاحب الأرض وهي تسرق جذر البطاطا لزوجها المريض الذي أقعده مرضه عن العمل والحركة وصارت هي تعمل مع عمال التراحيل بدلاً منه، فتموت عزيزة أثر الحمى بعد مولد الطفل الحرام فيما يشبه الانتحار خاصة بعد ما قتلت طفلها.

إذا كان هذا التنامي في مشوار فاتن حمامة دليلاً على شيء، فإنه على الأقل عبر عن فنانة حقيقية ونموذج يندر أن يتكرر في مجاله، كما قال عنها الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين، لؤلؤة كما

قال عنها الأديب الراحل خيري شلبي الذي وصفها بأنها ممثلة مركبة كالفطيرة المشلتتة، رقائق من الخبز يفصل بينها دسم.

استطاعت فاتن أن تقدم هذا النموذج "الماركة" الخاص بها، فهي لم تصنع نجوميتها وحدها، بل صنعت نجومية الممثلة الأنثى، كانت هي الشمعة التي أضاءت الطريق للأخريات وحررت صورة الفنانة من أسرها القديم الذي سجنها في الإطار النمطي للمرأة اللعوب، فصارت فاتن هي الممثلة القديسة التي تتطلع إليها الجماهير في كل مكان، وكان هذا تطوراً طبيعياً لفنانة ولدت من رحم مجتمع شهد نهضة فنية وثقافية قوية في ظل وجود طلعت حرب وطه حسين وتوفيق الحكيم وعباس العقاد ومحمد كريم وعبد الوهاب ومحمد التابعي وصلاح أبوسيف وعز الدين ذو الفقار وزكي طليمات وروز اليوسف وفاطمة رشدي ونجيب محفوظ وأحمد رامي وغيرهم كثيرون ومعهم فنانة أخرى سبقتها واستطاعت أن تكرس لصورة مختلفة للمرأة الفنانة وتكون بجوار الكبار كبيرة بصوتها وفنها وهي أم كلثوم التي صارت فيما بعد سيدة الغناء العربي كما صارت فاتن سيدة الشاشة العربية.

فتح المناخ الجديد الذي صنعته ثورة يوليو الباب لفاتن حمامة لتقدم صوراً متعددة لامرأة جديدة تبحث عن حريتها وذاتها ولا يعطلها رجل أو حب، بل يجب أن يكون الحب في حياتها دافعاً لتطورها في رحلة بحثها عن ذاتها هذه، وهو مافعلته فاتن

في علاقتها بعمر الشريف التي أرادت لها أن تكون علاقة إيجابية في حياتها وليست نقطة ضعف تحطم قلبها وتدمر نجاحها. ولعل ماكتبه الأديب خيري شلبي هو من أبرز الكتابات التي وصفت هذه العلاقة بوعي، حيث كتب يقول في مقال عن فاتن حمامة عنوانه "اللؤلؤة": موهبة فاتن حمامة في مرحلتها الأخيرة على وجه التحديد تطورت من القدرة على التمثيل إلى الحلول باقتدار، أما موهبة التمثيل فقد وصلت إلى أرفع مستوياتها في أفلام كثيرة سابقة، خاصة بعد ظهور عمر الشريف في أفق حياتها سواء كزوج أو كممثل يشاركها، أو يشارك غيرها في البطولة، فعمر الشريف قطب مشع ما في ذلك شك، ومليء بالفتوة والحماسة والذكاء ناهيك عن الثقافة والتعليم العالي وإتقان أكثر من لغة يتابع بها منجزات السينما العالمية في صحفها ومصادرها، المؤكد أن فاتن شعرت بالغيرة من عمر، وهي غيرة مقدسة لأن الفنان الحقيقي الأصيل ينزعج إذا تفوق عليه أحد، وبالأخص إذا كان هذا الأحد زوجاً أو منافساً في عمل واحد مشترك، وبهذه المناسبة فإنها تعاملت مع عمر الشريف ككبيرة، ارتفعت بنفسها فوق مستوى المحَن الشخصية التي عادة ما تتحكم في تصرفات الصغار واستطاعت بعبقرية فذة إقناعنا بأنها غير موضوعة في منافسة أو مقارنة سيما وأنها هي التي وافقت على عمر في البداية وتحمست له وأضفت عليه من بريقها ونجوميتها وخبرتها ما أتاح

فرصة التألق والانطلاق أمامها، إن الفنان العظيم هو الذي يستفيد من منافسيه حتى وإن كانوا أصغر منه حجماً وشهرة وخبرة". ويضيف خيري شلبي: الواقع أن فاتن حمامة قد سرقت النار من عمر الشريف، كان مشتعلاً بالحماسة والحرارة والرغبة في إثبات الحضور أمامها، فكشف عن موهبة ساطعة. فما كان منها إلا أن أخذت منه أقباساً من نيران الحماسة والحرارة أضافتها إلى موقدها الداخلي فضوعف حجمها وارتفعت قامتها دون أدنى محاولة خسيسة منها لإطفائه أو اللمعان على حساب ارتباكه، وهذه من شيم الكرام حقاً، وحين انطلق عمر الشريف إلى العالمية وأصبح بين عشية وضحاها نجماً عالمياً مرموقاً لم تصب فاتن حمامة بالإحباط كما كان يتوقع البعض من ذوي النظرة الضيقة، بل هي أشعرت جمهورها بأن نجاح عمر إن هو إلا نجاح لها هي لأنه بكل بساطة خرج إلى الأفق العالمي من حضنها الدافئ الوسيع حين كانت بالنسبة له زوجاً وأماً معاً". كان هذا ما قرأه الأديب خيري شلبي في العلاقة بين فاتن حمامة وعمر الشريف، حيث استطاع أن يقترب بشكل كبير من تلك العلاقة التي شكلت لغزاً عاطفياً يشبه بطلها، عمر ابن الثقافات والأحلام المفتوحة على الغرب، وفاتن ابنة الطبقة المتوسطة التي ساهمت في تشكيل وجدان أجيال كاملة من جمهورها وعلمتهم معنى الحب والحرية والنضال في الحياة.

الفراق .. فاتن على جسر الأوهام

صوت بداخلها كان يخبرها بأن هذه العالمية التي يخطو إليها زوجها ستكون فأل شؤم على علاقتهما الزوجية، لكن فاتن أرادت أن تظل كما كانت طول الوقت في صورة "الكبيرة" التي يجب ألا يهزها أي شيء، شاركت فاتن في فيلم أمريكي تم تصويره في مصر اسمه (القاهرة) (1963) مع الممثل البريطاني ذو الأصول الروسية (جورجساندرز) الذي نال أوسكار أحسن ممثل مساعد عن دوره بفيلم (كل شيء عن إيف) وكان بطولة الممثلة الشهيرة بيتي ديفز، كما شاركها أيضاً من الممثلين المصريين شويكار وأحمد مظهر وصلاح منصور ويوسف شعبان وعزت العلايلي والراقصة ناهد صبري، والفيلم المأخوذ عن رواية كتبها و. ر. بيرنت بعنوان (غابة الأسفلت) كان قد تم انتاجها عام 1950 بنفس العنوان وفي عام 1963 أعيد تصوير الفيلم في مصر وتم إعداد سيناريو (غابة الأسفلت) لتناسب أجواء القاهرة والمؤلف هو نفسه كاتب سيناريو فيلم (الهروب الكبير) في نفس العام، وقام ولف ريلا بإخراج الفيلم لحساب شركة مترو جولدن ماير، لكن الفيلم الذي دارت أحداثه في أجواء بوليسية لم يصادف نجاحاً ولم يصل بها للعالمية كما كانت تأمل حينذاك، وأعادت فاتن التجربة مع الفيلم المغربي (دماء على الرمال) وكانت النتيجة فشل مكرر.

بالتدريج بدأ عمر يعيش في أوروبا وأمريكا بسبب ارتباطاته بمواعيد تصوير أفلامه، وفاتن كانت لا تزال على عرش السينما المصرية والعربية "سيدة الشاشة العربية"، اللقب الذي كان أول من منحه لها هو الكاتب الصحفي الراحل فوميل لبيب ثم اعتمدته الجماهير بعد ذلك، حتى في الأشهر التي كان عمر يأتي فيها إلى القاهرة، كان يعرف أنه في أزمنة "ترانزيت" لن تستمر طويلاً ثم يسافر إلى بلد آخر. سافرت فاتن وراءه مدفوعة مرة بخوف النجمة من الخسارة أمام جمهورها الذي راهن على علاقتها بعمر ومرة أخرى بدافع الغيرة النسائية للزوجة التي تستعر في قلبها وتشهق بفكرة فقدان زوجها في بلاد النساء فيها جميلات ومتحررات، حاولت أن تلحق به وتستعيده حتى لا يضيع ما كان بينهما كأنه لم يكن وتصبح هي الحبيبة المهجورة، لكن كانت الهوة بينهما تتسع ولا طريق للرجوع، حدث ذلك أثناء تصوير عمر لفيلمه (دكتور زيفاجو)، حين حصلت فاتن على ورقة طلاقهما الذي تم في هدوء لا يعبر عن عاصفة الحب التي كانت بينهما واستمرت في علاقة زوجية مدتها عشر سنوات وثمرتها طفلهما "طارق".

"قد يكون ظنها وإحساسها بالغيرة صحيحاً، فعندما سافرت وأنا شاب وجدتني محاطاً بكوكبة من البنات الحلوين في أوروبا وأمريكا، فقلت لنفسي لابد وأني سأقع في حب إحدى

تلك الممثلات الصغيرات، كان زواجي بفاتن قد مر عليه عشر سنوات لكن الدنيا فرقت بيننا بحكم أسفاري المتعددة وانتقالاتي المستمرة، أنا عمري ما اتخانقت معاها بل بالعكس حبي لها لم ينقص منه شيئاً، لكنني خشيت أن أقع في حب ممثلة شابة كما يحدث عادة وأترك فاتن من أجلها، خفت أن يحدث ذلك فتكون خيانة مني لفاتن، فوجدتني أقول لها: يا فاتن بكل صراحة إحنا لازم نسيب بعض لأنني لا أتصور أن أتركك من أجل واحدة ثانية أو حتى أتزوج عليك، فتقبلت ذلك، وكانت أنانية مني ولكن يبدو أن ربنا عذبني وكأنه يقول لي: إنت بتقول إنك هتحب واحدة ثانية، طب أنا مش هخليك تحب واحدة ثانية خالص، والحمد لله تزوجت من رجل هايل وأحسن مني".

تطلق عمر وفاتن أثناء تصوير فيلم (د. زيفاجو)، والمثير أن عمر نفسه بعد عشر سنوات من الزواج وهو على أعتاب صعوده إلى العالمية سأل نفسه :

- هل أحببت زوجتي؟

- نعم .. بطريقة شرقية.

- إن زواجي لم يكن زواج حب، بمعنى أنه لم يكن حباً عاطفياً، لقد كان زواج الانسجام والمودة والصداقة، وأي زواج يقوم على مثل هذه المشاعر يمكن أن ينجح، ولقد نجح زواجي

من فاتن بالفعل لأننا بقينا زوجين لمدة عشر سنوات وخلال هذه السنوات العشر لم أخدع زوجتي أبداً.

ثم سأل نفسه ثانية:

- هل كنت سعيداً؟

- لقد كنت قانعاً.

لحقت فاتن بعمر في الخارج ثم لم تعد إلى مصر وظلت خارجها محملة بالأحزان وورقة طلاق، واكتفت بأن قالت حينذاك: "تم الطلاق بيني وبين عمر لأن ظروف العمل جعلت استمرارية زواجنا أمر مستحيل". ثم صمتت ولم تتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى، وتركت ابنهما طارق لوالده الذي تولى مسئوليته وتربيته إلى جانب عمله بالسينما، وحرص على تنشئته بشكل لا يفصله عن جذوره العربية حتى يشعره بالانتماء لوطنه الذي ربما أدرك أنه سيعود إليه يوماً.

"أنا كنت بربي ابني لوحدي، ومدام فاتن بذكائها قالت لي خد انت الولد، لأنك هاتعرف تربيه أفضل، وهاتدخله مدارس كويسة، وأنا باحب ابني أكتر من أي حاجة في الدنيا. وكنت حريص طول عمري إني أخليه يحب بلده، وكنت باجيب له شيخ عربي كل يوم ساعة عشان يعلمه اللغة العربية والدين الإسلامي والقرآن، والشيخ ده كان أستاذ فلسطيني، وهو كان

في انجلترا، والمدرسة اللي كان فيها هي مدرسة فيها مسلمين كتير وكان فيها أولاد أمراء وأولاد شيوخ وكانت مدرسة شيك قوي، فأنا لقيت مدرس فلسطيني متعمم، فطلبت منه إنه يعطي ابني دروس خاصة، زي ما كان كل العرب المقيمين هناك بيعملوا مع ولادهم، وجنب ده كله أنا كنت حريص دايماً إني أخلي طارق مرتبط دايماً ببلده وبلد جدوده وبلد أمه".

المقربون من فاتن في هذه الفترة أكدوا أنها صارت مختلفة، حاولت الاعتذار عن أية ارتبطات فنية أو توقيع أية عقود لأفلام جديدة، ثم فاجأت الجميع بقرارها النهائي بعدم العودة إلى مصر، حيث تنقلت بين بيروت ولندن وباريس، واستناداً إلى حواراتها الصحفية أشارت فاتن إلى أنها غادرت مصر احتجاجاً على ضغوط سياسية تعرضت لها في تلك الفترة، وقالت: "عند قيام ثورة يوليو كنت مؤيدة جداً لها، وبعد هذا بدأت أصطدم بأمور سيئة، مثل ظلم الناس وأخذهم من بيوتهم ظلماً للسجن في منتصف الليل، وأشياء عديدة فظيعة ناهيك عن موضوع تحديد الملكية إلى آخره، فأصبحت أكره رجال الثورة بنفس قدر حبي لهم".

ثم ذكرت فاتن قصة زيارة رجال من المخابرات يطلبون منها التعاون معهم، وقالت أنها عاشت في قلق شديد، فقامت باستشارة صديقها حلمي حليم الذي وصفته بأنه كان ضيفهم

الدائم في السجون فنصحها بالاعتذار بلباقة، فمنعوها من السفر، ثم خططت للسفر وترك مصر وبالفعل تمكنت من هذا. نفس القصة التي جاءت على لسان فاتن حمامة قام عمر الشريف بتأكيدها في رواية أخرى، حيث حكى أنه بعد زواجه من الفنانة فاتن حمامة أقاموا في عمارة ليبون بالزمالك، وجاء لزيارتهم فجأة صلاح نصر رجل المخابرات الشهير وجلس يتناول القهوة معهم وتحدث في العديد من الموضوعات والقلق كاد يقتل عمر لعدم فهمه أسباب هذه الزيارة، وكيف لا يقلق وفي بيته رجل المخابرات الأول فى مصر، وفجأة قال صلاح نصر أنه يريد منهم أن يطلعوه أولاً بأول عن أخبار النجوم في مصر وخاصة فلاناً وفلاناً وحدد لهم بالاسم عدداً من النجوم في ذلك الوقت وأنهى حديثه بجملة: "ذلك من أجل أمن الوطن وسلامته".

وحسب رواية عمر أنه كان في هذه اللحظة يرتعش ولم يدر ما يجب أن يقوله وأنقذته زوجته فاتن حمامة التي أجابت صلاح نصر بشجاعة أنها ترفض أن تؤدي هذا الدور ضد أي زميل أو زميلة لها، وبعد هذا الحادث لم يتصل بهم صلاح نصر.

الروايتان، رواية فاتن وعمر، عن محاولة المخابرات المصرية اختراق حياتهما وتجنيدهما لصالحها لم تؤكدهما سوى أقوالهما هما شخصياً أو ربما بعض الكتابات التي حاولت النيل من تلك الفترة، لكن المؤكد أن ثورة يوليو وجمال عبدالناصر لم يتخذا

موقفاً عدائياً سواء من فاتن حمامة أو من عمر الشريف، بل أن عبد الناصر نفسه كان قد منح فاتن حمامة وساماً فخرياً في بداية الستينيات، وأثناء فترة غيابها عن مصر طلب من مشاهير الكتاب والنقاد السينمائيين اقناعها بالعودة إلى مصر وقال لزكريا محيي الدين رئيس وزراء مصر في تلك الفترة: "فاتن حمامة ثروة قومية ولازم ترجع مصر"، لكن فاتن حمامة لم ترجع إلى مصر إلا في عام 1971 بعد وفاة عبدالناصر، وهو ما رواه الكاتب الراحل سعد الدين وهبة مقدماً شهادته عن موقف عبدالناصر الإيجابي من فاتن حمامة في مقال بعنوان "فاتن حمامة .. ثروة قومية"، ضمه كتاب (فاتن حمامة .. نجمة القرن) الذي قام الناقد طارق الشناوي بإعداده، والصادر عن مهرجان الاسكندرية السينمائي الدولي في دورته السابعة عشر والتي أقيمت في العام 2001، وهي الدورة التي تم فيها تكريم فاتن حمامة باعتبارها نجمة القرن.

في مقاله أشار سعد الدين وهبة إلى أنه في يوليو 1966 كان يعمل رئيساً لمجلس إدارة الشركة العامة للإنتاج السينمائي العربي والمعروفة باسم (فيلمنتاج) وأنه كان في الاسكندرية حين جاءه تليفون في الساعة الثامنة صباحاً من سمير مصلح مدير مكتب زكريا محيي الدين، يقول له أن رئيس الوزراء يريد مقابلته في أسرع وقت، وحدد له موعداً في اليوم التالي في الساعة الثانية

عشر ظهراً استعد وهبة له وعشرات الأسئلة تدور في رأسه حول سبب هذه المقابلة العاجلة.

كتب سعد الدين وهبة يقول: أخذت طريقي إلى القاهرة وأنا اسأل نفسي ما الذي يريده مني السيد رئيس الوزراء، إذا أراد شيئاً يتصل بالسينما فأنا الرابع في التسلسل الوظيفي، الأول هو الدكتور محمد عبدالقادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والإعلام والسياحة، والثاني الدكتور سليمان حزين وزير الثقافة والثالث الأستاذ نجيب محفوظ رئيس المؤسسة العامة للسينما، ثم يأتي دوري فأنا رئيس مجلس إدارة شركة تتبع المؤسسة تتبع الوزارة التي تخضع لإشراف نائب رئيس الوزراء .. ربما يريدني السيد رئيس الوزراء لشيء آخر.. طبعاً هو يعرفني جيداً وبيننا علاقة ود قديم منذ كنت أصدر (مجلة البوليس) وكنت عضواً بمجلس إدارة نادي البوليس وهو وزيراً للداخلية وطالما رأيته وحضرت معه اجتماعات كثيرة ثم هو الذي طلبت منه أن أحال إلى المعاش من خدمة البوليس لأعمل بالصحافة وهو الذي استجاب إلى طلبي، وعرض على مجلس قيادة الثورة في آخر اجتماع له في مايو 1956 طلب إحالتي للمعاش وصدر القرار مع منحي أقصي معاش رتبة اليوزباشي (نقيب) التي كنت أشغلها، وعندما تركت مجلة البوليس للعمل بالجمهورية لم تنقطع صلتي

به وأجريت معه حديثاً أعلن فيه أسراراً كثيرة منحني من أجلها المرحوم صلاح سالم خمسين جنيهاً مكافأة.

يتابع وهبة: لم ينقطع تفكيري فيما يريد مني رئيس الوزراء السيد زكريا محيي الدين .. وفي الموعد المحدد كنت أدخل حجرة مكتبه الواسعة في مبنى (الحكومة المركزية) كما كان يسمى وهو نفسه مقر رئاسة الجمهورية الآن، دلفت من الباب وقبل أن أبلغ السيد زكريا الذي يجلس خلف مكتبه.

- إنت فين ياسي سعد .. إنت بتعمل إيه في السينما.. أمال إحنا مودينك هناك ليه ..

نزلت عليّ هذه الكلمات نزول الصاعقة وكنت قد بلغت المكتب ووقف الرجل يصافحني وجلست أمامه وأنا لا أفهم سبب هذا السيل المتدفق من التوبيخ المبطن بشيء من الحنان.. وهدأ صوته بعض الشيء ولملمت نفسي ونظرت إليه فخفض من صوته بعض الشيء ولكن نبرة الغضب كانت ما تزال واضحة وسألني.

- إيه حكاية فاتن حمامة؟

ولم أفهم معنى للسؤال ونظرت إليه في دهشة وسألته بصدق ينطق به صوتي المتهدج.

- مالها يا افندم فاتن حمامة ...

وزادت عصبيته وعاد يسأل:

- سابت البلد ليه؟

وأجبته:

- ما اعرفش يا فندم هي قالت إنها راجعة بس ما رجعتش.

وعاد يسأل:

- زعلتوها في حاجة؟

ورددت:

- أبداً يا افندم دي حتي ليلة ما سافرت كنت عندها في البيت بعد نص الليل ومضيتها عقد فيلم جديد واديتها عربون 3000 جنيه وماشية مبسوطة.

وسألني:

- عقد إيه وعربون إيه؟

ورويت له ماحدث وفعلاً كنت ألح على الفنانة فاتن حمامة أن تقوم ببطولة فيلم لحساب شركة فيلمنتاج، فاختارت ثلاث قصص للمرحوم إحسان عبد القدوس، وأعددت لها العقد وكانت تستعد للسفر وأعطتني أكثر من موعد ثم اعتذرت، وأخيراً اتفقنا أن أذهب إليها في منزلها، ولم تكن من عاداتي أن أتردد على بيوت النجوم مهما كانت الأسباب، ولكن لفاتن حمامة علاقة خاصة ربما بدأت عندما التقيت بشقيقها محمد في أكتوبر عام 1947

طالباً من دفعتي في كلية البوليس، ثم قابلتها في الحياة ثم كتبت لها سيناريو فيلم (الحرام) وكذلك لم تكن المرة الأولى التي أزورها في منزلها بل ربما كانت الأولى بعد أن أصبحت رئيساً لمجلس إدارة شركة الإنتاج .. المهم أنها وقعت العقود واستلمت العربون ثم ودعتها على أن تعود بعد شهر وكانت في طريقها إلى أسبانيا لزيارة حماتها وحماها السابقين والدة ووالد الفنان عمر الشريف وكان زوجاً لها في تلك الأيام .. وبعد سفرها بشهر تقريباً فوجئت بالسيد اسماعيل المليجي زوج شقيقتها يزورني في مكتبي ويقدم لي خطاباً اتضح أن فاتن كتبته بعد أن غادرت منزلها وقبل سفرها ووضعت معه شيك العربون وسلمته لزوج شقيقتها وطلبت منه أن يسلمني الخطاب بعد سفرها بشهر .. وفي الخطاب اعتذار عن عدم حضورها وإبلاغ رقيق بأسفها وإعلان بأنها لا تنوي العودة في وقت قريب.. وتسلمت الشيك وأعدته إلى خزانة الشركة ووضعت الخطاب في جيبي وانتهى الأمر عند هذا الحد.

يتابع وهبة: رويت كل ذلك للسيد رئيس مجلس الوزراء وكنت أظن أنني قد برأت ساحتي تماماً من أن أكون سبباً أو أحد أسباب مغادرة فاتن حمامة لمصر ورد عليّ السيد زكريا محي الدين:

- الريس عبدالناصر زعلان جداً وكلمني دلوقت مرتين.

- عن إيه يا افندم؟

- قرأ في جريدة عربية إن فاتن في بيروت وحتعمل فيلم مع يوسف شاهين.

- ولم أرد إذ كنت أسمع الخبر لأول مرة.

وعاد ليقول:

- يوسف شاهين أشطر منك.

ورددت:

- إزاي يا افندم؟

وعاد زكريا محيي الدين يتحدث بلهجة قاطعة:

- إسمع الريس عبدالناصر بيقول لك فاتن حمامة دي ثروة قومية وما دام ثروة قومية يبقي لازم تكون في مصر وعوزك تعمل أي طريقة عشان ترجعها.. تسافر تسفر حد تعمل أي حاجة، هو عاوز يسمع إن فاتن حمامة رجعت مصر وإذا كانت زعلانة من أي حاجة قولها اللي هي عايزاه الريس أمر بتنفيذه.

وقلت:

- يا افندم لو كانت عايزة حاجة كانت قالت..

وعاد يقول:

- إسمع الكلام كويس.. إنت مسئول عن رجوع فاتن حمامة لمصر فاهم.

ورددت وأنا لا أعرف تماماً ما الذي يمكن أن أفعله

- حاضر.

وأحسست أن المقابلة قد انتهت.. بدأت أستجمع شتات نفسي لاستأذن لولا أن التليفون رن ورفع رئيس الوزراء السماعة وسمعته يتحدث:

- صباح النور يا افندم..أيوة عندي.. قاعد قدامي دلوقت.. قلت له يا افندم.. سامع يا سعد سيادة الريس بيقول لك فاتن حمامة ثروة قومية ولازم ترجع مصر..

وهززت رأسي..

وعاد يقول:

- خلاص يا افندم هو حيسافر بيروت.. المهم حتصرف وحابقى أقول لسيادتك مع أي تطورات.. مع السلامة يا افندم.

وضع السماعة وقال لي:

- سامع

ورددت كالمغلوب على أمره:

- أيوة يا افندم سمعت..

ويضيف وهبة في نهاية مقاله: جلست وحدي أفكر أن خطاب فاتن لي يقطع بأنها لن تعود لماذا لا أعرف.. واتصلت برمسيس

نجيب المنتج المعروف وجاءني ولم أحك له التفاصيل ولكني قلت له انه مطلوب أن تعود فاتن حمامة وطلبت منه أن يسافر إما معي أو وحده ويعرض عليها أن تعود.. واستمهلني رمسيس حتى يتصل بمن هم على صلة وثيقة بفاتن حمامة ليستطلع الأمر قبل أن نتورط في السفر ونعود بخفي حنين .. وعاد رمسيس يؤكد لي أن قرار فاتن حمامة لا رجعة فيه وأنها لن تعود على الأقل في هذه الأيام خاصة وأنها سوف تبدأ تصوير فيلم يوسف شاهين بعد أيام .. واتصلت برئيس الوزراء وأبلغته أن فاتن بدأت التصوير في فيلم يوسف شاهين ووعدته أن أسافر عندما أعلم أنها قد انتهت من تصوير الفيلم، وعندما انتهى تصوير الفيلم كان السيد زكريا محيي الدين قد ترك رئاسة الوزراء، وبعد بضعة أشهر كنت قد تركت السينما، وبعد أشهر أخرى وقعت كارثة 1967.. ولم تعد فاتن حمامة إلى مصر إلا بعد وفاة المرحوم جمال عبدالناصر.

انتهى مقال سعد الدين وهبة وشهادته عند هذا الحد، وبالفعل عادت فاتن حمامة إلى مصر في العام 1971 بعد رحيل الرئيس جمال عبدالناصر ببضعة شهور لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها.

الفصل الخامس
المغامر

نجح عمر على شاشات الغرب، وحصل على المزيد من الأدوار والأضواء وتعلم ألا يتقشف في نجوميته وسحره الشرقي الذي اتسع وشمل بفيضه النساء، وفيما توالت أفلامه: (فتاة لطيفة) لهربرت روسّ، (مايرلينج) لتيرينس يانج، (مايريج) لهنري فرنوي، دخل عالماً مبهراً كان التجلي الحر لشاب شرقي صوّرت له مخيلته ما سيحقق من انتصارات على أرض الغرب المجهول، لكنه اكتشف أنه غير قادر على الطيران؛ فقد وقع في الشرك الكبير ومضى يصعد ويهبط مع منحدرات متاهة لا تنتهي حدودها، أرهقته فيها الطرق فيها وهو الغريب الذي ضل الإشارات في خريطة لم يحفظ خطوطها، كانت حصته في النجاح والنجومية والحضور على الشاشة متباينة من عمل لآخر، لكنها حصة كبيرة بالنسبة لطائر مهاجر اتبع حدسه في الطيران إلى عالمه الجديد ولم يصغ لصوت غير هشاشته التي تدحرجت على محطات

الغربة في لياليها الفوضوية المشاكسة: بريدج ونساء وتوهان آخر في دهاليز السياسة يحاصره، وحين يعبر منه يكتشف أنه من حسن حظه أنه أفلت من خرافة أن أرضه الجديدة هي الفردوس السعيد.

"كنت أفكر لو لم أعمل في لورنس العرب، فهل كنت سأظل سعيداً. أنا كنت في مصر نجم وأستاذ وزوج سعيد، لما سافرت واشتهرت دخلت في مناخ آخر وحياة مختلفة لم أكن أنتظرها، ذهبت إلى هوليوود، كانوا يعطونني أجراً جيداً، وأصلاً هوليوود تعني كثيراً للممثلين، هي إغراء كبير لهم، كل واحد يحلم بها، لما كنا صغاراً في مصر كنت أذهب إلى السينما كل يوم وأقول أريد أن أكون مثل الفنانين الكبار الذين أشاهدهم على الشاشة نجوماً في أفلام أمريكية، ولما تحقق ذلك وصرت واحداً منهم نسيت نفسي، كان عندي وقتها 29 سنة، أي أنني عشت 29 سنة كاملة في مصر وكنت لا أعرف الخارج أبداً، وتأقلمت مع الحياة والطباع والتقاليد في بلدي، وحين خرجت إلى عالم آخر رأيت وصادفت حاجات غريبة، أنا حتى لحظة خروجي من مصر لم أشاهد التليفزيون لأنه أساساً لم يكن دخل في بلادنا، أي أنني حتى سن 29 سنة لم أعرف التلفزيون، ولا رأيته، كنت فقط أقرأ وأحلم، هذا أقصى ما وصلت إليه".

لم يقف عمر الشريف عند منعطف فيلم (لورانس العرب)، وظهر بطلاً في أفلام عديدة ، فجسد دور جنكيز خان أمام الممثلة الفرنسية "فرانسواز دورلياك"، ولعب دور الكاهن في فيلم (أنظر الحصان الشاحب) تحت إدارة المخرج الأمريكي فريد زينمان مع أنتوني كوين وجريجوري بيك، حيث صار نجمه يلمع أكثر في السينما العالمية، وبدأت وسائل الإعلام تتكلم عنه، خصوصاً بعد قيامه ببطولة فيلم (دكتور زيفاجو) أمام جولي كريستي وجيرالدين شابلن، والذي أدى فيه دور الدكتور زيفاجو الطبيب والشاعر السوفييتي البرجوازي المنشق والمناهض للثورة البلشفية، واصل صعوده وانتقل والديه للعيش في مدريد بأسبانيا، حيث كان يعمل والده وحيث تزوجت شقيقته وعاشت معهما في نفس البلد، مشوار التحول في حياته بدأ بمغامرة، كان له في مصر بيت وزوجة وابن، وعمل في السينما المصرية وله فيها مكانة، فغامر بكل ذلك وشعر أنه يدين لفيلم (لورانس العرب) بالكثير كما يدين لمخرجه ديفيد لين الذي قاده في هذه التجربة التي بدلت حياته في أوائل الستينيات من القرن الماضي، وجعلته واحداً من كبار نجوم السينما العالمية طوال أكثر من ثلث قرن، ديفيد لين الذي سانده دائماً ومنحه دور "الشريف علي" بدلاً من دور آخر أصغر منه بكثير، ثم اختاره مرة أخرى ليكون دكتور

زيفاجو في الفيلم الذي يحمل الاسم نفسه والمقتبس عن رواية بوريس باسترناك الشهيرة.

" لاحقاً حينما علمت أن ديفيد يريد أن ينفذ فيلماً انطلاقاً من رواية (دكتور زيفاجو) لبوريس باسترناك، اشتريت الكتاب وقرأته لكي أعرف ما إذا كان في العمل دور لي، وحينما انتهيت من قراءة الكتاب رأيت أنني يمكن أن أحصل على دور "باشا" الذي عاد ولعبه توم كارتناي، لذلك اتصلت من فوري بديفيد لين، وعرضت عليه أن ألعب ذلك الدور الثانوي في الفيلم، فكان جوابه الصارم والفوري "لا".. ثم، بعد لحظات صمت عميق سألني بكل هدوء ما إذا كان دور الدكتور زيفاجو نفسه يهمني، فالتزمت غير قادر على التلفظ بحرف".

كان ديفيد لين يعرف كيف يسخر الأخلاق كلها لمصلحة شخصياته. خذوا على سبيل المثال شخصية د. زيفاجو: لقد تزوج من المرأة التي كان يحبها، ثم أقام علاقة مع امرأة أخرى كانت تقيم وهي في السادسة عشرة علاقة مع وغد عجوز، هل يمكنكم أن تتخيلوا مدى تأثير هذه الحكاية في فلاحي الوسط الأمريكي؟

تساءل عمر الشريف ثم أجاب: حسناً.. **مع ديفيد لين مرّ هذا كله بهدوء ومن دون مشكلات.**

انهالت العروض السينمائية على عمر الشريف وقام ببطولة العديد من الأفلام الفرنسية أمام كاترين دينوف، وجان بول بولموندو، وغيرهم، فوقف أمام الإيطالية صوفيا لورين في فيلم (سقوط الإمبراطورية الرومانية) ، وأمام إنجريد بيرجمان في فيلم (الرولز رويس الصفراء) ، ومرة أخرى مع بيتر أوتول في فيلم (ليلة الجنرالات) ، وأمام كاترين دينوف في فيلم (مايرلينج)، كما قام بدور تشي جيفارا في الفيلم الذي حمل اسمه، للمخرج ريشار فليشر، لكن هذا الفيلم واجه عاصفة نقدية، حيث لم يغفر له أنه قدم على مدار ساعة ونصف موضوعاً مكرساً لتشويه صورة الثائر الأرجنتيني إرنستو تشي جيفارا وتوصيفه بأنه شخص فاشل، مريض بالربو ومثير للسخرية أحياناً، كما يصور الفيلم فيدل كاسترو بأنه دائماً مخمور ومثير للسخرية أحياناً، لقد كان فيلماً يشوه كل ما يمثله جيفارا من قيم جيدة، حتى أن عمر نفسه أعلن ندمه عليه فيما بعد وتراجعه عنه، كما صرح بأنه لا يفتخر سوى بعدد قليل من أفلامه الأجنبية، وهو سبق أن ذكرنا لم يكن لديه وعي أو رفاهية الاختيار بسبب عقد الاحتكار غير المدروس الذي وقعه مع شركة كولومبيا.

"ماذا تنتظرون من ممثل مصري شاب لا يعرف شيئاً عن عالم السينما في هوليوود وعرضوا عليه دوراً رئيسياً في (لورانس العرب) مع عقد يحتكر نشاطه الفني لمدة سبع

سنوات لحساب شركة كولومبيا، لقد كان هذا العقد بمثابة عقداً للعبودية".

ولم يكن يتقاضى في تلك السنوات السبع العصيبة غير خمسة عشر ألف دولار فقط عن كل دور يقوم به، لذلك ما أن انتهت مدة العقد، وكان عمره حينذاك 37 عاماً تقريباً، حتى انطلق باحثاً عن المال والمزيد من الشهرة لئلا يفوته القطار.

" كنت أنا الممثل الوحيد في العالم الذي يمتلك جنسية ليس لها مثيل في الأفلام العالمية، أي أنه كان هناك ممثلين فرنسيين يعملون في أفلام بفرنسا وأحياناً يذهبون للراحة في بلد آخر، وهناك أمريكان، وكذلك إيطاليين، لكن أنا لدي لهجة لا هي فرنسية ولا هي انجليزية ولا هي أمريكية ولا هي يونانية ولا شيء آخر، أي كانت أشبه بالأشياء غير المفهومة، فلذلك كانوا في الأول يجعلونني أمثل روسي لأن أيامها لم يكن يعرفون كيف يتحدث الروس، فمنحوني أدوار شخصيات روسية رأوا أنها الأنسب لي، مثل زيفاجو ودور ضابط المخابرات الروسي في فيلم ثمار التمر الهندي".

أدرك عمر الشريف أن شركات السينما العالمية كانت لا تريد الممثل بداخله أن يتقمص الشخصية التي يمثلها، لكنها كانت تريد أن تبيع للجمهور الغربي عمر الشريف! الممثل العربي الذي قامر بحياته وخاض معاركه الخاصة على درب الوصول العالمية

حتى وصل إلى قمتها بعد عناء طويل كلفه الكثير، ربما رأى من بعيد أن السماء ستكون في متناول يده؛ فلما اقترب وجد كل شيء واقعي والأفق الواسع الذي انجذب إليه عن بعد محفوفاً بالمتاهات التي فتحت له أبوابها ليدور فيها بعبثية ويحاول أن يكمل رحلته التي أرادها ليقفز من مخيلته إلى خطوة موجعة في فضاء لا نهائي كان يعتصره فلا يترك له سوى عقل لا ينام، يظل مستيقظاً كأنه يهرب من الأضواء الباهرة ليتفرغ لصاحب الجسد المرهق ويستعرض معه كل صور الأحداث والشخصيات التي مرت به، فيجعله يلهث في تتبعها الإجباري، وعلى هذه الخلفية عاش عمر حياته رحالاً يتنقل من مكان إلى مكان، ومن استديو إلى آخر، ومن دولة إلى دولة، يزرع زهور نجوميته الطاغية في كل سماء، ويخترق المجتمع الهوليوودي الذي كان محرماً على العرب دخوله في هذه الفترة، قد يكون ذلك بسبب نظرة الريبة التي اعتاد عليها العرب تجاه هوليوود باعتبارها جزء من معاداتهم الغرب الاستعماري، وأن كل ما تقدمه هوليوود هو بالأساس جزء من مؤامرة يحيكها اليهود والصهاينة والغربيون ضد المجتمع العربي أو الشخصية العربية، ومن هنا لم تقبل النظرة العربية هذه فكرة التعامل مع الغرب. وراح أصحابها، كما يقول الناقد والكاتب اللبناني نديم جرجورة، يتّهمون الذاهبين إلى هوليوود (وإلى الدول الأوروبية أيضاً) بالعمالة للفكر الصهيوني، متغاضين

عن إنجازات مهمة حقّقها عربٌ خاضوا معارك طاحنة لإثبات حضورهم في هوليوود، ليس بسبب انتمائهم الجغرافي أو الحضاري أو الديني، بل بسبب وجود "منافسة" حقيقية في صناعة السينما لا تختلف عن المنافسات الأخرى التي تشهدها أي تجارة أو صناعة في العالم، ولعل عمر الشريف ومعه المخرج السوري الراحل مصطفى العقاد، كانا النموذج الأبرز للفنان العربي الذي اشتغل في هوليوود، وصنع كلاً منهما اسماً لامعاً ومحترماً في المجتمع الهوليوودي، ولديهما قائمة مُشرّفة من العمل السينمائي، على مستوى الإنتاج الضخم لعدد لا بأس به من الأفلام التي حقّقت إيرادات عالية، والتمثيل الآسر والأعمال الجدّية والتجارية والشعبية.

كان مصطفى العقاد دخل هوليوود قبل عمر الشريف بسنوات، حيث ترك سوريا في العام 1954 بعد أن انحرف عن رغبة عائلته في أن يمتهن مهنة مرموقة كالعمل بالمحاماة أو الهندسة أو الطب، فاكتشف بعد سفره أن إمكانية العمل متاحة للجميع وكذلك فرص النجاح فهي ليست مستحيلة وإن لم تكن سهلة في الوقت نفسه. فاسمه العربي كان عائقاً أمام تقدمه، وكان بإمكانه التخلص من اسمه وتغييره كما فعل بعض العرب للدخول في عوالم المال والسلطة والشهرة في هوليوود إلا أن المسألة كانت بالنسبة إليه مبدئية. وكان يرد على الذين

يطالبونه بتغيير اسمه قائلا: "كيف أغير اسمي وقد أورثني إياه والـدي؟".. درس السـينما بجامعـة جنـوب كاليفورنيـا ونـال الماجستير، ما مكنه من العمل مع أشهر مخرجي السينما العالمية مثل المخرج الأمريكي سام بكنباه الذي اتسمت أفلامه بالعنف، ثم دخل حقل الإنتاج السينمائي وقدم بالتعاون جون كاربنتر سلسلة أفلام العنف والرعب التشويقي المسماة "الهالوين"، لكن الهاجس الفكري الذي شغله كمبدع عربي قاده إلى إنجاز مشروع سينمائي ملحمي ضخم يسير على نهج وأساليب السينما الهوليوودية ذات الميزانيات الكبرى، فاختار موضوعاً يحكي عن الجانب المشرق لأمته العربية عبر فيلم يحكي رسالة الإسلام ينقلها ليس إلى أبناء أمته فحسب، بل إلى العالم بأسره موضحاً وشارحاً الجذور الأولى للدين الإسلامي، ورسالته الحضارية الى العالم أجمع. فقدم فيلم (الرسالة) 1976الذي صار اليوم وثيقة ومرجعية أساسية في الكثير من بلدان العالم لدراسات العالم الاسلامي، وقدم (المختار- أسد الصحراء) (1981)، وتعاون فيه مع ممثلين كبار أمثال أنتوني كوين وإيرين باباس وورود ستايجر وأوليفر ريد، في حين أنه تعاون مع الممثل المصري الراحل عبد الله غيث والممثلة السورية منى واصف في النسخة العربية من (الرسالة)، إذ أدّى الأول دور حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول، والثانية دور هند زوجة أبي سفيان والد معاوية، في حين أن

أنتوني كوين أدّى دور حمزة في النسخة الانجليزية، إلى جانب إيرين باباس أيضاً ومايكل أنسارا وجوني سيكا.

لم يلتق عمر الشريف ومصطفى العقاد إلا مرات قليلة، وأشيع أن خصاماً قام بينهما بسبب استعانة العقاد بأنتوني كوين بطلاً لأفلامه فيما لم يطلب عمر، تقابلا في القاهرة واتفقا أن يقوم عمر ببطولة فيلمه (المطران كابوتشي) الذي لعب دوراً بارزاً لخدمة القضية الفلسطينية، لكن القدر لم يمهل هذا التعاون كي يتم حيث قتل الإرهاب مصطفى العقاد، في الاعتداء الإجرامي على فنادق عمّان، يوم الجمعة 12من نوفمبر 2005، فاغتيل معه حلم (المطران كابوتشي) وحلمه القديم (الأندلس)، ومعهما أمل التعاون بين نجمين عربيين اقتنصا مساحتهما الخاصة في هوليوود، هو وعمر الشريف.

في هوليوود بدا عمر الشريف كأنه شخصية شكسبيرية حدثت لها تحولات عنيفة قلبت حياتها رأساً على عقب، من نجومية متمهلة في السينما المصرية وأسرة مستقرة وأصدقاء أوفياء إلى نجومية مندفعة في السينما الأجنبية ووحدة رهيبة وشتات أسري، والده ووالدته في أسبانيا، وزوجته تطلقت منه، وأصدقائه الجدد هم في الغالب أصدقاء عمل يفتقدون هذا الدفء الذي كان يجده في أصدقائه المصريين، فصار عمر في ظل هذه التقلبات التي تأخذه من حال لحال وكأنه بطلاً تراجيدياً

تتحكم فيه الأقدار ويهرول في طريق يميناً ويساراً بين السعادة والشقاء.

"الغربة صعبة.. كلمة كنت أسمعها أحياناً وبالصدفة لكن لم أعرف معناها أو بالأحرى لم أحس بالشعور الكامن بحروف تلك الجملة حتى جربتها ووجدتها بالفعل صعبة جداً، وصعوبتها تكمن في الاشتياق الهائل للأهل والناس والأصدقاء ومصر وحتى الشوارع وكورنيش بحر اسكندرية ونيل القاهرة، شعور صعب عندما تكون وحيداً وشعور صعب عندما تضحك على أمر معين لوحدك وشعور أصعب عندما تحزن لوحدك".

في الغربة اكتشفت عمر أشياء كثيرة لم أكن يعرفها قبل السفر، حيث تعرف على بلاد أخرى، أمريكا وأوروبا التي لا تشبه بلاده في شيء، كل ما حوله مختلف: ثقافة الأماكن وأسلوب حياة البشر، الصداقة والمعاملة، وحينئذ أدرك أن الغربة صعبة: معنى لم يختبره من قبل وإن سمعه كثيراً وكان يصيبه بالدهشة ويتساءل: أليس هذا توصيف مبالغ فيه؟ السفر ليس غربة وإنما اكتشاف، لكن حين خاض تجربته بنفسه، لم يستأنس الوضع الجديد بسهولة وشردت ذاكرته إلى قديمه كلما شعر بالتعب حتى لا تصاب روحه بالعطب.

"الغربة صعبة جداً على المصريين بالذات، لأننا في مصر لدينا أسلوب معين، يختلف عن كل العالم، وأنا أحب الطريقة المصرية في التعامل والصداقة والعلاقات الإنسانية، وعندما سافرت وتركت مصر كان عمري 29 سنة، وقد تكونت شخصيتي واكتشفت عالماً جديداً وحياة مختلفة، ولايعني ذلك أنني أحببتها، إنما اقتنعت بضرورة التجاوب معها من منطلق إحساسي بأن هذه هي قسمتي ونصيبي، يعني لست أنا الذي اختار طريقه، إنما القدر اختار لي ذلك، هناك أشياء في حياة الإنسان لا يتدخل في صنعها أبداً، حيث يجد نفسه وقد سار في طريق لا يستطيع أن يخرج منه مثل الدوامة".

تذوق عمر الشريف حلاوة نجاحه في عالم السينما والنجومية وتجرع في ذات الوقت مرارة الغربة التي تركت بصمتها في روحه وانسحبت على ملامحه ونظرة عينيه المليئة بالحزن والشجن، هي نظرة عميقة تخفي وراءها حكايات كثيرة من الألم والقلق، كان في مصر جامحاً في تمرده وتسيطر عليه فكرة الرحيل، وخارج مصر صار كأبطال أفلامه الأجنبية غريباً يعيش في غير وطنه، وقلِقاً أصبح القلق مثله مثل الغربة جزءاً أصيلاً في شخصيته.

الغربة هي الإحساس الذي لازمه طول رحلته الطويلة التي عاشها متنقلاً بين البلاد وبين الفنادق، مجرد عابر سبيل لا تاريخ

له هنا ولا ذكريات، مشدود إلى دفء واحتواء أصدقاء حقيقيين في الوطن، رحل عنهم باحثاً عن بريق النجومية وترف الشهرة وربما رغبة ملحة في حرية أكبر، ومشدود أيضاً إلى هنا حيث أحلامه التي شاغلته وراودته ليجري وراءها بلا فرصة للجدل، هو حائر بين مصر وجذوره والوطن المغلق على طفولته وصباه وشبابه، وبين العالم الآخر المفتوح على طموحاته، حتى وجد نفسه في بلاد الأجانب هو "الأجنبي" الغريب القادم من بلاد الشرق البعيدة. ارتبك عمر بين محاولته الحفاظ على التوازن بين انتمائه لبلده وتاريخه القديم وبين طموحه الذي لا توقفه العوائق، ومع ذلك لم تكن طريق نجوميته إلى العالمية مفروشة بالورود والحرير، ففي مصر تخلى عن تاريخه الفني الذي صنعه طوال عقد كامل، وفي هوليوود المعقل الأهم والأخطر للسينما في العالم عانى كثيراً، لم يحصل على حريته التي أرادها وصار أسيراً لعقود احتكار وأدوار استغلت ملامحه العربية وقدمت موضوعات أعلن فيما بعد أنه غير فخور بها وغير راض عنها، كان العربي التائه في متاهات هوليوود وأنظمتها الصعبة، وإن نجح وصنع لنفسه سيرة مهنية تضمّنت عناوين لافتة للنظر ونجاحات متفاوتة، لكنه فهم الحقيقة وعرف أن هوليوود ليست عادلة بل ترزح تحت ثقل عنصرية تعبث بالمصائر ويتحكم فيها لوبي يهودي، يشيرون إليه بصفة "العربي" وهذا لم يجعله يشعر

بالخجل، لكن بالحسد تجاه اليهود لأنهم "لوبي" له مخططات يتعاونون على تحقيقها، كان يتمنى طوال الوقت أن يعرف العرب مثلهم كيف يطرحون قضاياهم وفنهم أمام الآخر، ويقول: "**ما يفعله اليهود ليس معجزة لا نستيطع نحن العرب تحقيقها**"، لكن أمنياته كانت تخصه وحده، ويظل عمر الشريف هو الممثل العربي الذي دخل هوليوود يبحث عن فرصة نجومية، فغرست التجربة شوكة في قلبه تحملها في صمت وواصل مشواره يتكتم آلامه التي منحته بُعداً إنسانياً مختلفاً، وأضفت على وجهه وروحه عذوبة وصفاء وعلى روحه صبراً مثل صبر أيوب.

1967 عام النكسة، جلس كعادته يتابع أخبار مصر، هذه المتابعة اليومية التي يقول أنه حرص عليها لسببين، أولهما أنها تشفي غليل حنينه لبلده، وثانيهما لأنه كان طوال الوقت قلِقاً ومتأثراً بما يحدث بلده سواء على المستوى العاطفي أو على مستوى العمل وتعاملات الآخرين معه، فما كان يحدث في مصر انعكس دائماً عليه بشكل أو بآخر، ثم أن وجوده في الخارج كان لا يعني أنه انفصل عن مصر، "لم أنس وكذلك لم ينس الناس الذين تعاملوا معي غالباً حسب الأحداث السياسية الجارية في الداخل". لكنه في هذا اليوم، في الخامس من يونيو 1967 شعر بوجع وحدته؛ وحيد فجأة في أفق مسدود ولا شيء يسانده ولا أحد، أحس بثقل الكارثة التي وقعت على رأس العرب جميعهم

والتي أغرقته هو في بحر الهواجس والاتهامات والإنكار، لدرجة أنه أقسم حين حكى عن هذه اللحظة الصعبة أنه كان يسمع أنيناً لوحدته؛ صوت يعلو ويقول له: ماذا فعلت في هذه الدنيا لتستحق ذلك، وحدك هنا تمضي إلى المجهول، وهم هناك ينكرونني ويحيلون اسمي للعدم.

" ماحدث في 5 يونيو 1967 كان كارثة بكل المقاييس، وضاعف من ثقلها النفسي عليّ أنني كنت أصور فيلماً في هوليوود، وسط اليهود، متأثراً جداً وحزيناً لشيئين، الأول أنني تأثرت لحال الجيش المصري جداً وماحدث لجنوده البسطاء الذين رأيتهم أمامي على شاشة التليفزيون في مشهد حزين ومفجع، والأمر الثاني سخرية اليهود مني ومن الجيش المصري، كان يذبحونني وهم يتسامرون أمامي، ويقولون أن جيش بلدي ترك الحرب وجري، كانت فترة عصيبة عشتها على أعصابي في مذلة وإحساس بالمهانة".

تركت النكسة أثراً أليماً في نفس عمر الشريف كما تركته في نفوس المصريين والعرب جميعاً، وأعلن جمال عبد الناصر في خطاب رسمي التنحي والعودة إلى صفوف الجماهير، فاندفعت جموعها الحاشدة متوافدة من كل صوب، تطالب عبد الناصر بالعودة وعدم الاستسلام للهزيمة ، وتصرخ "حنحارب.. حنحارب"، في ظل هذا المناخ الذي تغلي فيه مصر والوطن

العربي، كان عمر الشريف في هوليوود يواصل صعوده الفني وكان مشغولاً بتصوير فيلمه الجديد (فتاة مرحة) والذي شاركته بطولته الفنانة اليهودية (بربارا سترايسند) وكانت أحداثه تدور في حي يهودي ببروكلين حول علاقة شاب يهودي بفتاة يهودية، فتلقى عمر هجوماً عنيفاً عندما نشر في إحدى الصحف الأمريكية صورة لمشهد غرامي من الفيلم يجمع الإثنين (عمر وبربارا) في قبلة، ما لبثت الصورة أن وصلت إلى القاهرة، ومن ثم نشرت مرفقة بتعليقات مطولة ومقالات متتالية تطالب بإسقاط جنسية عمر واتهامه بأنه خائن، باع وطنه لأنه تجرّأ على تقبيل بربارا سترايسند (اليهودية!) أثناء تعرّض الأمة العربية لهذه النكسة التي شرخت قلبها، ولم ينتبه أحد بأن الفيلم كان تم تجهيزه قبل النكسة وأن عمر أساساً يعمل في هوليوود التي يتحكم فيها اليهود وليس هو، بل أنه ملتزم بقوانين هوليوود في العمل ولا يملك مصيره، لكن لا أحد أراد أن ينتهج أسلوباً منطقياً في النقاش.

"كانت فترة عصيبة، تلقيت خلالها مكالمة هاتفية من وكالة (الأسوشيتد برس) تسألني عن رأيي في هذه المقالات التي تنشرها الصحف المصرية عني؟ فأجبت بالقول : إنني لا أهتم بأن اسأل فتاة عن جنسيتها أو مهنتها أو ديانتها قبل أن أقبلها، سواء على الشاشة أو في الحياة العامة، إنني أعارض فكرة

التعصب القومي والديني، وأكره العنصرية، بل أكره أي شيء يدفع بمجموعة من الناس إلى احتقار مجموعة أخرى من الناس".

والفترة كانت عصيبة بالفعل على عمر الشريف، لأنه كما فوجيء بالهجوم العنيف الذي شنته عليه الصحافة العربية، فإنه فوجيء أيضاً بأن الطرف الآخر يتخذ موقفاً ضده، حيث باغته مدير إنتاج فيلم (فتاة مرحة)، هذا الفيلم الذي سبب له الأزمة، يطلب منه بلهجة آمرة الصمت التام وألا يدلي بأي رأي في أي شيء، حاولوا أن يغلقوا فمه على حد تعبيره، وظل بعدها عاماً كاملاً لا يصله سيناريو واحد، وعند هذه العقبة فهم ألاعيب هوليوود وعنصريتها المحمومة، وصار يصعب عليه أن يجد عملاً، وأنفق في هذه الفترة كل ما ادخره فاضطر أن يشترك في أفلام ضعيفة المستوى وصلت لحوالي 40 فيلم وذلك لسد احتياجه الماضي بالرغم من أنها جرحت رضاه الفني، كان ماحدث معه وحالة الحصار التي فرضت عليه ومنعته من الكلام أو البوح في هذه الفترة ليس فقط جزءاً من عنصرية تجاهه كفنان له أصول وجذور عربية، لكنه كان أيضاً جزء من الرقابة الصارمة المفروضة على البطل كما أسماها السينمائي بول وارن في كتابه المهم (خفايا نظام النجم الأمريكي) والذي يكشف من خلاله عن السر الخفي في قوة تأثير نظام النجوم للفيلم الأمريكي، كما يكشف أيضاً عن سر

هيمنة السينما الأمريكية عامة على المشاهدين في كافة أنحاء العالم.

الأمور لم تمض على هذا النحو طويلاً، حيث عاد عمر الشريف مطلوباً للعمل وقدم بعد ذلك العديد من الأدوار التي تفاوتت في المستوى الفني، مثل دوره في فيلم (السطو) مع جان بول بلموندو، وقيامه ببطولة مشتركة مع البريطاني مايكل كين في فيلم (القرية الأخيرة)، وأفلام أخرى مثل (رصاصة بالتيمور)، (مرارة الحب)، (الحصان الأبيض)، (الخريف)، وفيلم (الموعد) أمام الممثلة الفرنسية أنوك إيميه، وفيلم (أكثر من معجزة) مع صوفيا لورين، ثم فيلم (ثمار التمر الهندي)، حتى قام في العام 1979 بدور قصير مع الممثلين البريطانيين مايكل كين وبيتر أوستينوف في الفيلم الذي تمحورت قصته حول تجارة العبيد بدءً من مرحلة الخطف في افريقيا وتهريبهم عبر الغابات والصحارى إلى وصولهم الجزيرة العربية لبيعهم هناك، وفيما يقوم بيتر أوستينوف دور تاجر العبيد العربي الذي يشرف على عمليات الخطف، يقوم عمر الشريف بدور الأمير حسن الذي يشتري طبيبة سمراء وزوجة لطبيب من العالم الغربي تم خطفها أثناء وجودهما بافريقيا في مهمة رعاية الأفارقة صحياً، ولا يأبه لما تقوله ويؤكد لها أنها مجرد جارية، وهو أحد الأفلام التي كرست فيها هوليوود الشخصية العربية في الصورة النمطية للشهواني

الغارق في ملذاته مع جمله وخيمته في الصحراء أو الإرهابي العنيف، نوع من الكليشيهات الجاهزة، كما يفسر د. جاك شاهين الخبير الإعلامي وأستاذ الاتصال الجماهيري في جامعة جنوب إلينوي في كتابه (العرب السيئون.. كيف استطاعت هوليوود تشويه أمة) الذي رصد فيه 900 فيلماً أنتجتهم هوليوود وقدمت فيهم الصورة السلبية للشخصية العربية، ومنه أفلام مثل (الشيخ - 1921) للنجم الشهير رودلف فالنتينو، (الأم - 1932) ، (سيدة الشارع - 1953)، (نزوح جماعي - 1960)، (الحصان الأسود - 1979)، (قوة الدلتا - 1986)، (إيرنيست في الجيش - 1997)، (قواعد الارتباط - 2000)، وغيرها من أفلام وصفها المفكر الراحل إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) بأنها مثالاً لفكرة الاختراق الاستعماري، فعلى المستوى الجماعي يخترق الأوروبيون أرض الشرق وأهله ويقتحمون حتى الأماكن المقدسة، وعلى المستوى الفردي يصورون الإنسان العربي كنموذج للعنف والجنوح.

كان حظ عمر الشريف أن أول أفلامه (لورانس العرب) أظهر صورة العرب موزعة بين عرب أخيار وعرب أشرار، لكنهم في النهاية عرب يجنحون للعنف ويتمزقون بين نوازعهم القبلية، كما أوحى الفيلم بأن العرب ضعاف وعاجزون عن حكم أنفسهم بأنفسهم وأنهم في حاجة ملحة للقيادة الأوروبية، ثم يأتي دوره

في فيلم (أشانتي) الذي أثار ضده هجوماً عربياً عنيفاً وصل إلى درجة أنه تمت مقاطعته عربياً بتهمة تعاونه مع الصهاينة، خاصة وأن الفيلم تم تصوير جزء كبير منه في صحراء النقب بفلسطين المحتلة، ومثل فيه بعض الممثلين الإسرائيليين، وحقيقة الأمر أنه عرض دوراً رئيسياً على عمر الشريف في هذا الفيلم ثم سحب منه عقاباً له على رفضه السفر إلى اسرائيل، واضطر لقبول دور صغير فيه لأنه كان مقيداً بعقد.

"عُرض عليّ هذا الفيلم وفيه الدور الرئيسي الثاني، والذي أداه الممثل الهندي فيما بعد، على أساس أن الفيلم سيصور في المغرب، وفي آخر لحظة قال المنتج أنه سيصور في إسرائيل. قلت له : أنا لن أذهب الى إسرائيل، ليست لدي الرغبة في أن أصور في إسرائيل. قال: إنك مضطر لأنك وقّعت العقد، وأنا بعت الفيلم على اسمك . قلت : هذا لا يهمني، لقد اتفقنا على المغرب ولن أذهب إلى إسرائيل، فاعط الدور إلى ممثل آخر، لكنه قال: عليك أن تقوم بدور صغير حتى أستطيع أن أضع اسمك على ملصقات الفيلم . فاقترح أن نصور في مدينة بالرمو في صقلية ، ودفع - بالضبط - مبلغ مائة ألف دولار مقابل التصوير لمدة أسبوع، وكنت في ضائقة مادية حينها ".

لعل هذه الواقعة توضح مرة أخرى ألاعيب هوليوود، وهو ماقاله سام كين فيما بعد في رسالة له عام 1986 وجهها إلى

جمعية رسامي الكاريكاتير الأمريكيين: "يمكنك أن تضرب وتصيب العرب الى ما شاء الله وبحرية تامة ومجاناً، إنهم هنا مجاناً كأعداء وكأشرار، في حين أنه لم يعد بإمكانك أن تفعل نفس الشيء مع يهودي أو أمريكي أسود..."

ذلك النفوذ الذي عبر عنه أيضاً نجم مثل الراحل مارلون براندو في العام 1996 حين فجرت مقولته عاصفة من الجدل حيث قال في مقابلة مع المذيع اليهودي لاري كنج على شبكة (سي إن إن) التلفزيونية الإخبارية: "إن هوليوود تدار من قبل اليهود، ويملكها اليهود، ويتعين عليهم أن يظهروا حساسية أكبر تجاه قضايا الناس الذين يقاسون من المعاناة"".

ومن ذلك النفوذ عانى عمر الشريف كثيراً لكنه لم يتخل عن أصله واسمه العربي كما فعل ممثل شهير حاز على جائزة الأكاديمية للتمثيل (1984) عن دوره في الفيلم الرائع أماديوس (الذي يروي قصة حياة وموت موزارت) يخفي اسمه العربي، وهو فريد موراي ابراهيم، ليصبح ف. موراي ابراهام، ويقول لاحقاً :عندما ابتدأت التمثيل لم أستطع استخدام اسمي لأنني لو جئت باسمي فريد ابراهيم لما حصلت على أي دور مهم.

ولم يكن يكفيه ما يعانيه في هوليوود حتى يواجه بمقاطعة عربية اتهمته بالخيانة، تألم عمر من المقاطعة العربية له: "لم أذهب إلى إسرائيل، رفضت الذهاب، فبماذا يتهمونني؟ لأنني

صورت فيلماً لم أذهب من أجله إلى إسرائيل؟ لقد شرحت كل هذا لجامعة الدول العربية، وعلى هذا الأساس رفع الحظر، فماذا يريدون مني؟". وغضب عمر أكثر حين أراد الجانب العربي الذي وجه له اللوم، استثمار الأموال في السينما العالمية، بإنتاج فيلم الرسالة للمخرج الراحل مصطفى العقاد، ولم يفكر فيه أحد بالمرة، واستعانوا بالممثل "أنتوني كوين"، بالرغم من أن رأسمال الفيلم والمخرج والموضوع عربي، في الحقيقة، إن المقاطعة العربية ظلمت عمر الشريف كثيراً وهو الذي تمزق بين خصام أهل وطنه له وهجومهم العنيف عليه في المجلات والصحف العربية، وبين سطوة رأس المال اليهودي على السينما الأمريكية، فعندما بدأ عمر الشريف مشواره نحو العالمية، وأصبح أحد نجومها الكبار، شنت عليه الصحف الصهيونية هجوماً أعنف بعد ما أشاعوا أن عمر كان طياراً سابقاً أغار على إسرائيل وقتل أهلها.

ذات يوم فوجئ بمراسل "الاسوشيتيد برس" يتصل به تليفونياً ليخبره أن بلاده تنوي سحب الجنسية المصرية منه وأن بعض الصحف المصرية كتبت ذلك، ثم جاءه بنسخة من مجلة فنية مصرية بها مقال بعنوان: "امنعوا الجنسية العربية عن هذا الممثل الرقيع" وإلى جانب المقال صورة القبلة بينيه وبين "بربارا سترايسند"، ثم سارعت وكالات الأنباء الأجنبية التي يسيطر عليها

اليهود بنشر الخبر، فانفعل عمر الشريف وقال للمراسل الصحفي: "**إنني مصري وابني مصري، وإنني متمسك بجنسيتي المصرية وبولائي لبلدي مصر، وإنني أعمل في الخارج وأنا أحمل اسم بلادي ونجاحي في العالم هو نجاح لها**". لكن المجلة الفنية المصرية استمرت في حملتها عليه وأكدت أن هناك علاقة عاطفية بينه وبين هذه الممثلة الاسرائيلية،بل وأنه تجنس بجنسيتها".

وفي يوم آخر وقف عمر مع صديقه الفنان عبدالحليم حافظ والسفير أحمد حسن الفقي في أحد فنادق لندن، وإذا بشاب عربي يندفع نحوه ويسأله بعصبية: لماذا تركت جنسية بلادك وتجنست بجنسية اسرائيلية أو فرنسية؟.. لحظتها أحس عمر بالألم يعتصره وصاح في الشاب بعصبية أكثر: أنني سأعيش وأموت مصرياً، وأحمد الله أن جواز سفري كان في جيب سترتي. ثم أخرج جواز سفره بسرعة وهو يصيح: **انظر.. لقد جددته لثلاثة أعوام أخرى في سفارتنا في روما**. وتدخل في تلك اللحظة السفير أحمد حسن الفقي وقال له: انني هنا سفير مسئول أتحدث اليك على هذا المستوى من المسئولية لأؤكد لك أنك موضع تقدير من بلدك وأن كل ما تريده منك بلادك أن تستمر في النجاح رافعاً اسمها. في هذه اللحظة المفعمة بالشجن بذل عمر جهداً كبيراً حتى يحبس دموعه.

البريدج في ليل الغربة

أسفر المجهول عن غربة بلا ميناء خطفته سريعاً حتى أنه لم يعد يجد فرقاً بين بابي الدخول أو الخروج، وفي ليل الغربة ووحشته وسطوة معارك الاحتكار والمقاطعة، عرف عمر أن وجوده في الغرب لم يكن مجانياً، وحدته كانت الثمن الذي دفعه، ثمناً أرهق روحه التي افتقدت الأصدقاء الحقيقيين، الوحدة كانت تزعج ليله لم ينجح في الاعتياد عليها أو أن يجعل منها صديقته، خاف عمر من هذا الإحساس وقرر أن ينحاز لشخصيته الصاخبة، جاء هذا الاختيار رغم تطرفه أفضل من الاستسلام لأحزان وورطات واقع لا تتسع خاناته إلا للأرقام، فكان السهر داخل كازينوهات القمار هو البديل لحياة أخرى قاتمة لم يعد يعرف فيها طعم البيوت والحياة الحميمة وسط عائلة تحبه وتحيطه بحنانها، فقد هجر برغبته العائلة والزوجة والوطن، ووالده ووالدته، عائلته الأخرى شاءت الظروف أن تختفي هي أيضاً من حياته عندما سافرت إلى اسبانيا لتقيم هناك، كل ذلك جعله يشعر أن الدنيا بلا طعم ولا لون، ولم يكن يطمئنه سوى اتصالاته الهاتفية اليومية بوالدته، أو أن ينتهز فرصة تصوير بعض الأفلام في دول أوروبية ويحصل على إجازة ليسافر إلى أسبانيا وتأنس روحه بها ويرتوي من حنان والدته ودفء عائلته، ولكن هذا كله كان يبدو بمثابة الدواء المسكن لوحدة صارت

تتوحش في حياته الخالية من الحب الحقيقي بالرغم من زحام المعجبين والأصدقاء والصديقات، بمجرد خروجهم يجد نفسه مرة أخرى بغرفة في فندق مع وحدة ترهقه وتجهد جهازه العصبي.

- ماذا أفعل في حياتي هذه؟

عمر الشريف النجم الكبير كان يسأل نفسه هذا السؤال يومياً. يملك كل ما يتمناه: الشهرة والنجومية والنساء الجميلات، غير أن ثمة فراغاً عميقاً بداخله يعذبه، لم يبصر الشريف ما يثير أو يغير بوصلة الملل ويخرجه من براري القلق سوى أن يلعب مع الحياة ولا يلتفت لأشياء تشدد عليه الرقابة وتعيده مكسوراً لبداية الطريق، ففي صغره علمته أمه أن الحياة لعبة والبقاء فيها للأذكى، وأن الأذكى من يجلب السعادة إلى نفسه ولا يغرق في فخاخ الطاقة السلبية، وعلمته أيضاً أن يجيد لعب البوكر والبريدج، حتى صار واحداً من أبرز لاعبيها، وقد صرح عمر ذات مرة في حديث تليفزيوني أن انطلاقه في عالم البريدج بدأ بكتاب يطبق أسس الرياضيات في لعبة البريدج، قرأ الكتاب بالصدفة وهو المعروف عنه ولعه بالقراءة والكتابة أيضاً حتى أنه كان قد كتب عدة مقالات لبعض الصحف، ومن البريدج ولعب الورق حصد عمر الملايين، وتمرّس العيش وحيداً بالفنادق الفارهة فى

باريس أو لندن، والسهر حتى الخامسة صباحاً كل ليلة فى الكازينو.

البريدج كان وسيلته للهروب من الوحدة وأيضاً ليتحسس وجوده الإنساني بعيداً عن عالم الشهرة والفن والأضواء لأن الجميع في هذه اللعبة، كما يقول بنفسه، يكونون سواسية لافرق بين لاعب وآخر، بدأ عمر الشريف لعب البريدج في موقع تصوير أحد الأفلام وعمره 22 عاماً، لم يكن غريباً على لعبة الورق التي عشقها من والدته المحترفة فيه والتي كانت تلعب مع الملك فاروق الذي كان يعتبرها تميمة حظه والتي لا يمكن أن يلعب بدونها، فورث عمر عنها هذه النزعة إلى المقامرة والتحدي وحب المخاطرة، وكبرت هذه النزعة ولازمته في سنوات غربته ووحدته، فكان حين يشعر بالضيق يخرج فوراً باحثاً عن أفق أوسع يحرره من هذا الضيق أو من القلق الذي كان ينتابه أمام المجهول، فيذهب إلى كازينو القمار ليحقق شعور التحدي بداخله، وكان على استعداد لأن يفعل أي شيء يخرجه من حالات الملل.

صرح الشريف عند سؤاله في راديو بي بي سي عام 1978 عن ما هي أكثر رفاهية يريدها؟ فأجاب: **"لا أعتقد أنه يمكنني الحياة بدون مجموعة من الأوراق في يدي"**. لكن الأوراق وأندية القمار أفلساه، بعد خسارة 750 ألف دولار في لعبة الروليت، أجبر على

بيع منزله بباريس وأعلن: "لا أمتلك أي شئ عدا بعض الملابس، أنا وحيد ومحطم تماماً. كل شيء كان يمكن أن يكون جيداً لو فقط وجدت المرأة المناسبة"، واعترف أن إدمانه القمار كان جنوناً لكنه لم يقدر على التوقف. ألقى باللوم على الملل، والوحدة. اعتاد وكيله على مكالماته البائسة التي فيها يطلب منه عمل من أجل سداد ديونه العاجلة، حتى انتهت اللعبة بعد عشرات السنين بخسارة كبيرة على يد رجل إنجليزي يدعى سام بينادي، ألحق بعمر الشريف خسارة كبيرة في أحد أخطر لعب القمار "لعبة الجسر الأوروبية"، وفقد قصراً فخماً كان يطلق عليه اسم كازا، بلغ ثمنه 4.5 مليون جنيه استرليني، وكانت مساحته تصل إلى 7 آلاف متر ويقع في جزيرة لانزراروت الأسبانية، وكان القصر بمثابة تحفة معمارية من أروع الأماكن التي بنيت على المحاجر البركانية.

"كل إنسان هو هاوية، نُصاب بالدوار إذا نظرنا إليها..." جملة الألماني جورج بوشنر الشهيرة في مسرحيته "فويتزيك"، والتي تكاد تنطبق على علاقة عمر الشريف بصحافة الإثارة التي لهثت وراءه وسعت ترسم له صورة النجم الماجن في ليل الكازينوهات على طاولات القمار، صورة أرضت غريزة التطفل وأشبعت لذة التشويه لدرجة الهوس، وهو إدمان آخر يتغذى على خصوصية البشر، ولا يقل خطورة عن إدمان القمار الذي تسلل إلى عمر

الشريف، كانت هذه الصحافة تصاب بالدوار وهي تحاول أن تتسلل إلى حياته، فتجدها بئراً عميقة تخفق في الوصول إلى نهايتها فتكتفي بما ظهر على السطح، بالصورة الخارجية وهي عادة تكون خادعة. تقارير الصحف التي طاردته محاولة أن تقتنص له فضيحة أو حادثة مثيرة كتبت عنه أنه نجم يتنفس بالشهرة والمجد والمال، وأنه مدمن للقمار، ولم تنزع القشرة لتشهد غليان القلق والوحدة، فهذا شيء لا يعنيها ولا يخص طبيعتها الفضائحية، وربما تجد واحداً من روادها يصرخ في وجهك : أنا لست بمصلح اجتماعي.

"المسألة ببساطة أن حياة الفنادق التي كنت أعيش فيها كانت مملة والكازينوهات في هذه الفنادق كانت مثيرة، لذلك كنت أقامر وأخسر كل نقودي".

القمار، إذن، كان الوجه الآخر لوحدته في المتاهة التي دار فيها وحاولت أن تنال منه وتجعله مجرد حطام روح، فلقد اختاره عمر منتصراً للحظات المتعة التي حولها عنواناً عريضاً لحياته، تلك اللحظات الوحيدة التي كان يشعر فيها بأنه لم يزل ضمن قائمة الأحياء على هذه الأرض.

" فلسفتي في الحياة هي أنني أعيش كل دقيقة بكل قوة كما لو كانت آخر دقيقة في حياتي، ولا أفكر فيما حدث قبلها ولا ما سيحدث بعدها، فأنا أفكر فيما أفعله في هذه اللحظة، أما

أسوأ شيء، فأنا لا أعرف أنه بالفعل أسوأ شيء ولكن من أسوأ الأشياء التي يمكن أن تحدث هو أن تموت ويكون آخر شيء قمت به أو آخر ليلة قضيتها قبل الموت كئيبة ومملة".

لم يحسب عمر حساب المستقبل، فهذا لم يشغله وإنما كل ما اهتم به هو اللحظة الآنية التي يعيشها، كان يخاف من الحياة الكئيبة التي تخلو من مظاهر تدل على وجوده وحضوره كإنسان، والتي تحرمه من معتقداته الشغوفة بالحياة بدون تعاسة، والقمار لم يكن مجرد اختيار، لكنه أُجبر عليه بسبب ظروف عمله ونجوميته وشهرته ووحدته.

"القمار لماذا؟ .. أنا طوال الوقت كنت أعيش في فنادق وأحمل شنط وأتنقل من بلد إلى بلد فكل أفلامي كانت في بلدان مختلفة وكنت أذهب إليها وحدي، فحينما أصل إلى دولة ولا أعرف فيها أحداً، فماذا أفعل؟ أين أتناول العشاء؟ كنت أذهب إلى كازينو، فهذا هو المكان الذي تستطيع فيه أن تأكل وحدك دون أن يستغرب منك أحد أما إذا ذهبت إلى مطعم ووجدوك تأكل وحدك سيقولون عنك مسكين لا يعرف أحداً يتعشى معه، ومن هنا وجدت في اللعب تسليتي الوحيدة لأنني "بازهق" سريعاً لكن لو كان عندي أصدقاء أو شخص يعيش معي لكان الأمر أفضل والحياة في حد ذاتها مصدر سعادة، وبالتأكيد فإن القمار كان لا داعي له، كنت فقط أذهب إلى

الكازينوهات حينما أفتقد الأصدقاء ولا أجد أحداً بجواري يعيش معي، أنا لا أحب القمار ولكنه يخرجني من وحدتي".

عادة، يمثل القمار بالنسبة للاعبيه حالة من التحدي لقدرات الإنسان المحدودة، كما قال الطبيب النفسي الراحل د. عادل صادق في كتابه الشهير "أسرار في حياتك" الذي ورد فيه: "إنها حالة تحد لقدرة حواسه التي تقف عاجزة عند حد معين، فهو لا يستطيع أن يرى إلا وجهاً واحداً من العملة في وقت واحد، لا يستطيع أن يرى الوجه الآخر للورقة المقلوبة، وهو لا يستطيع أن يمد يده ببساطة ليعرف هذه الوجه الآخر، إن هذا الوجه المقلوب يشكل تحدياً له ولغيره، وكما أن الإنسان يعيش في السياق الاجتماعي مع الناس، فهو يعيش أيضاً في سباق مع الناس لابد أن يثبت قدراته فيه لكي يحظى بالتفوق، ولهذا فهو لايملك إلا أن يخمن شيئاً وليخمن الآخرون شيئاً آخر، و تكون نشوته عارمة حين يصدق تخمينه و يفشل الآخرون".

والبريدج بالنسبة لعمر الشريف كان يمثل هذه الحالة من التحدي التي وصفها د. عادل صادق، فهو كان يشعره ليس فقط بالانتصار على الآخرين بل وعلى خوفه الداخلي من المصير وحيداً، وحتى عندما كان يخسر يتولد لديه شعوراً مختلف بمتعة أخرى تحققها له أحاسيس أنه لم يزل لديه مشاعر حية قادرة على الغضب كما الفرحة، وفي كل الأحوال تغمره موجات من القلق

والتحدي تدور بداخله تتصاعد مع الخسارة أو الفشل حتي يأتي الانتصار ليزيل هذه الأحاسيس، بالضبط مثل المعادلات الرياضية الصعبة التي تستعصي على الحل بسهولة.

"منذ طفولتي كنت صاحب عقلية منطقية، أحببت الرياضيات لأن كل مسألة رياضية كانت لغزاً بالنسبة لي، لذلك أيضاً أحببت لعب الورق والبريدج بالتحديد لأنه مثل الرياضيات يحتاج لعقلية منطقية، وخلال فترة اللعب يتعين على المرء حل سلسلة من الألغاز".

طاولة البريدج منحت عمر الشريف أحاسيس الفوز والخسارة وكانت مهمة بالنسبة له، فهذا التناوب أو الانتقال من الهزيمة إلى النصر وما يصاحبه من إحساس بالنشوة واندفاع الادرينالين هو ما كان يسعى إليه ويدفعه للعب، فعندما يكون الربح سهلاً جداً أو تكون الخسارة شبه مؤكدة عندها تضعف كثيراً أحاسيس اللذة المرافقة للعب، التي كانت تتضاعف عند حصول الفوز بعد مجهود كبير وخسارة متكررة، فقد كانت تلك الأحاسيس هي الجسر الذي يعبر من خلاله إلى ضفة السعادة وينسى مؤقتاً أية تعاسة يمر بها، ولكن في ذات الوقت لم يكن البريدج ولعب الورق بالنسبة له هدفاً للحصول على مكاسب مادية كما يفعل آخرون، وإنما أكد عمر الشريف أنه لم يلعب البريدج كقمار طوال حياته، فما شده إلى هذه اللعبة ليس هو

المكسب والخسارة بل التحدي العقلي والذهني، كان عشقه لهذه اللعبة جنونياً، حتى أنه كان يرفض الاتفاق على تصوير أي فيلم تتعارض مواعيده مع إحدى مسابقات البريدج، كان لاعباً ماهراً في البريدج سعى إلى درجة الكمال، لكن البريدج مثل الجولف لا يمكن الوصول فيه لدرجة الكمال خاصة مع وجود شركاء في هذه اللعبة.

وعمر لم يحب لعبة البريدج فقط، بل لعب كل شيء يستطيع أن يراهن عليه حتى ولو كان الخيل، وبالفعل وقع في غرام الخيل فجأة، فقرر أن يقامر عليه وبعدها أصبح مالكاً لاسطبل خيول كبير، وبعد أن حققت خيوله بعض المكاسب قام بتوسيع الاسطبل الخاص به، حتى استثمر مبالغ طائلة من هذه العملية، واستطاع أن يكسب في ثلاثة سباقات مهمة، ولم لا وهو الذي تعود أن يراهن.. وأن يكسب!! زادت اهتماماته في تربية الخيول والسكرابل وظل البريدج طموحه الأكبر حتى من الطموح السينمائي.

"أمام البريدج كنت أتجاهل كل شيء فقد شكلت في عام 1968 مع ثلاثة إيطاليين أول فريق لمحترفي البريدج ومنحتني اللجنة العالمية للبريدج لقب (لاعب السنة) عملت بعد هذا ناقداً ومعلقاً على مباريات اللعبة وتمرست فيها وأتقنت فنونها في صحيفة (صانداي إكسبريس) البريطانية ومجلة (فيجارو)

الفرنسية وكنت أحلم بتكوين فريق مصري للمشاركة في بطولات البريدج العالمية".

وفي اعترافات الشريف لا ينكر أنه وقع في فخ الخسارة، حيث خسر أموالاً كثيرة، بل وخسر كل شيء من أسهمه ومدخراته، عندما انهار سوق الأوراق المالية الأمريكية، ولأول مرة في حياته بدأ يواجه مشكلات مادية، جمع ثروة كبيرة في حياته أهدرها بالكامل على طاولة القمار، أنفق الكثير من المال ولم يحسب حساب المستقبل بل كان يعيش حياته يوماً بيوم، ينهك نفسه أحياناً حتى تعرض لأزمات في الصحة العامة وتشنج في عضلات جسمه ورقبته وتكلس المفاصل ووجع الظهر بسبب الجلسات الطويلة على طاولة البريدج.

استمر عمر في تنقله من لندن إلى باريس إلى هوليوود وغيرها، حتى استقر به المقام في باريس في بداية الثمانينيات، وأصبحت السينما بالنسبة إليه مجرد أكل عيش (كما قال)، فقد كان لا يشارك في أي فيلم إلا إذا أحس بضائقة مالية، فهو يذكر - بصراحة - في إحدى مقابلاته الصحفية بأن عمله في السينما يرتبط بخسارته على موائد البريدج: **"عندما كنت أترك صالة ألعاب بعد أن أكون قد خسرت كل نقودي، كنت أتصل بمتعهدي كي يجد لي دوراً ما في أي فيلم"** ، ومعنى هذا أنه انغمس في مباريات البريدج والسهر ومراهنات سباق الخيل، لذا

انحسر نجمه لفترة طويلة، ما أشعره بضرورة أن يجتاز مرحلة حساسة من مراحل التحدي الشخصي، وضرورة إثبات الوجود، ذلك لأنه أراد أن يبرهن لنفسه وللسينما العالمية التي خذلته، أن بإمكانه النهوض من كبوته الفنية.

"كان لابد أن أذاكر وأدرس جيداً وأرجع للكاميرا والتصوير، كان لابد أن أنتهي من لعبة البريدج التي كانت تأخذ جزءاً من مخي، كنت أفعل أشياء ساذجة لمجرد دفع نفقات الكازينو، أما الآن فالأمر مختلف أنا أحب عملي جداً والتمثيل أصبح الشيء الوحيد الذي أحبه، ولذلك قلت لابد أن أركز على التمثيل فقط في الفترة الباقية من عمري".

ثم توقف عمر عن ممارسة لعبة البريدج التي كان يتمتع فيها بشهرة كبيرة على مستوى العالم حيث خاض العديد من المنافسات العالمية وقال **"لا أريد أن أنهي حياتي كعجوز يمارس البريدج".**

فتش عن المرأة

كما عشق البريدج، برع في لعبة أخرى وهي لعبة الحب والهوى، فكان ساحر النساء واعتبروه من أكثر الرجال وسامة في العالم، ثم تقاطعت خطوط حياته متقاطعة مع البريدج والحب، فبدا وكأن كل انتصار يحققه في اللعب يساويه انتصار آخر في الحب، بل أن مشاهديه ومتابعيه في مباريات البريدج كان في الغالبية من النساء.

سارت حياة عمر الشريف فترة طويلة على وتيرة واحدة، فكانت مثل ورقة اللعب، وجه للبريدج ووجه للنساء، يلعب كثيراً ويدخل في منافسات شرسة على طاولة اللعب، ويحب كثيراً ويدخل في مغامرات عاطفية عنيفة مع أجمل النساء، وكما لم يهتم بحسابات المكسب والخسارة في لعب الورق لا يتوقف كثيراً عند نهاية قصة حب، لأنه دائماً كان هناك حب جديد يطرد حباً قديماً، كما أنه كان بارعاً في إنهاء علاقاته العاطفية عند نقطة معينة، نقطة اللاخسارة بحيث يصبح في النهاية هو والطرف الآخر صديقين.

"لم أحب أي امرأة عرفتها بدليل أنني لم أتعذب في هواها!!"

غريباً كان يرى نفسه في مرايا نساء غريبات، لا يلعب معهن دور العاشق، وإنما بين امرأة وأخرى يخطو على جسر من سراب،

فهو فعلياً كان ينقصه الحاضر ولا يمتلك تصوراً لمستقبل علاقة، لكنه كان يمكن أن يصبح بعد ذلك صديقاً وفياً إذا لزم الأمر، وحين كان يدير ظهره لامرأة لا يطلب منها سوى النسيان، لأنه هو ذاته غير مطمئن وليس من شأنه أن يمنح شيئاً يفتقده. المثير أنه لم توجد امرأة أرادها ورفضته، لم يتعذب ولم يسهر ويفكر، على العكس كل شيء حدث سهلاً، ونجح في الحصول على مراده بطريقته التي تشعبت فيها الرغبة والحميمية والتراجع في اللحظة المناسبة بهدوء ودون أن يدوس أي طرف على الآخر.

"كنت أحصل على أي امرأة أريدها لأنني أعطي نفسي كلية، ومن هي هذه المرأة التي ترفض هذا الكم الكبير من الدفء الإنساني؟ فأن تعطي، أن تواسي، أن تحمي، أن ترشد. هذه هي مميزات الرجل، وإلغاء هذه الأشياء معناه إلغاء امتياز الرجل".

كما عرف عمر الفرق بين امرأة وأخرى، ودائماً كانت تعجبه امرأة معينة، امرأة تشعره بذاته دون أن تتخلى عن ذاتها وتلغي وجودها من أجل أي شخص حتى لو كان حبيبها، فهذا يسلبها ماهية وجودها ويسرق من روحها.

"أحب المرأة التي لها شخصيتها المستقلة، لا تكون تابعاً لزوجها، تعتمد على نفسها ويعتمد عليها، أحب في المرأة طريقة تفكيرها، وأحب الحوار معها، المرأة الذكية التي لها أحلام تسعى لتحقيقها تجذبني، وفي نفس الوقت أرفض المرأة عندما

تشعرني بضعفها وبأن لا حيلة لها، كما أرفضها عندما ينتصر ذكاؤها على حبها وتتعامل معي من منطق قوة الرجل، فأنا أحمل ملامح الرجل الشرقي بداخلي مائة بالمائة".

هنا يطل المزاج الشرقي لعمر الشريف الذي تعجبه وتجذبه المرأة القوية التي تستخدم ذكاءها وأنوثتها، لكنها في ذات الوقت لا تتعارض وتتناقض معه علانية، بل التي تثبت له ببعض الوسائل التي يفضل ألا يعرفها أنه مخطئ، على ألا تواجهه رأساً برأس على قدم المساواة، فهو يرفضها لأنها هنا تعطيه إحساساً بالعجز.

"فشلت المرأة الغربية في أن تحتل حياتي أو تقتحمها بالشكل الذي يجعلني ارتبط بها إلى الأبد، دائماً كنت أقارنها بالمرأة المصرية، فأجد أن الفرق كبير بالنسبة لي أنا الذي اعتدت على دفء المرأة المصرية وحنانها وتفانيها وشخصيتها التي تحمل القوة والضعف معاً، لذلك لم أستطع الدخول في علاقة حب حقيقية في الخارج رغم كل الحكايات التي كتبت عني ..لا اتفق مع السيدات الأجانب، عقليتي لاتتفق معهن، أسلوب كلامهن وأسلوب تصرفاتهن فوق قدرة احتمالي، الأجنبيات شكلهن حلو ولطيف، لكن عاداتهن مختلفة عن عاداتنا تماماً، قصة العلاقة عندهم علاقة عافية، وأنا لست من نوع الرجال اللذين يقولون بأن الرجل أهم من المرأة أو

العكس، أنا رجل متحضر جداً، لكن هناك أسلوب لابد للمرأة أو بالذات الزوجة عليها أن تعامل به رجلها، هذا الأسلوب هو أسلوب الأنوثة، أسلوب المشاعر، وليس أسلوب القوة والعافية، أنا لست معتاداً أن تكلمني الست بطريقة مستعفية".

وقعت كل بطلات أفلامه في غرامه بدءاً بفاتن حمامة وانتهاءً بأنجريد برجمان وباربرا سترايسند وكانت لكل منهن حكاية يعيشها بصدق وقوة ثم ينساها، في العام 1968، عمل مع باربرا سترايسند فى الفيلم الموسيقى (فتاة مرحة) "Funny Girl" وقال عنها :"اعتقدت أنها ليست جذابة للغاية فى البداية؛ لكن بالتدريج ألقت بسحرها عليّ أغرمت بشدة بموهبتها. وكان الشعور متبادلاً لأربعة شهور، الوقت الذى أخذه تصوير الفيلم".

تزوج عمر الشريف مرة واحدة، ولم يفكر في الزواج مرة ثانية بعد طلاقه من فاتن حمامة رغم أنه أقام علاقات عشرات المرات مع نساء رائعات الحسن والجمال، تزوجت فاتن بعد انفصالهما من الدكتور محمد عبدالوهاب وصارت صديقته حتى أنه كان يأخذ بمشورتها في أعماله الفنية في مصر، ومع ذلك ظلت فاتن المرأة الوحيدة التي اقتنع بالزواج منها.

كانت تعجبه نساء باريس بالذات خاصة بعد قصة الحب العنيفة التي حدثت بينه وبينه الممثلة الفرنسية الشهيرة "أنوك إيميه" والتي كاد أن يتزوجها ثم عدل فكرته لأسباب يقول أنه لم يعرفها، لكنه في حقيقة الأمر كان يخاف من فكرة الزواج ويشعر أنها ربما تشكل عليه قيداً، وربما يظلم من سيتزوجها لأنه لا يعيش حياة مستقرة.

"أنا رجل أعيش حياة متعبة للغاية لايمكن أن يكون فيها مكان لامرأة تبحث عن الاستقرار، حياتي غير طبيعية، غير مستقرة في مكان واحد، معظم عمري قضيته في الفنادق، لم تكن عندي مواعيد نوم واستيقاظ ولا مواعيد طعام، لم استطع أن أتزوج وارتبط بواحدة تسافر معايا العالم من مكان لمكان".

التقت "أنوك إيميه" بعمر الشريف أثناء تصوير فيلمهما (الموعد) إخراج سيدني لوميت، أحبته فأحبها، وتفانت في إظهار هذا الحب الذي أبهر عمر وجعله يتشبث بهذه الفتارة الرقيقة التي اقتحمت فجأة وبهدوء حياته حتى صارت ملمحاً أساسياً فيها لا يمكن الاستغناء عنه.

"لقد أعطاني فيلم الموعد الفرصة لأن أقابل من اعتبرها أكثر النساء غرابة وهي "أنوك إيميه". لقد كانت دون أدنى شك فتاة رائعة الجمال ذات صفات لم أجدها في امرأة، فهي تعرف

بالضبط كيف ترضي الرجل الذي تحبه وتجعله سعيداً، أنوك رفيقة مثالية. فكرت أننا يمكن أن نرتبط، لكن القدر فرق بيننا، كيف حدث هذا؟ كانت غلطتي؟ أم غلطتها؟ لا أدري ولكنني في وقت ما من علاقتنا أردت حقاً أن أتزوجها ولكن الحاجة لأن احتفظ باستقلالي هي التي انتصرت ولقد أثبتت التجربة أنني كنت على حق".

وهكذا انفصل عمر عن أنوك إيميه، ثم قابلها بعد ذلك في استوديو "فوكس" مع الممثل ألبرت فيني، لقد كانت تعيش معه قصة حب ثم تزوجته بعدها بينما كان عمر يفكر في امرأة جديدة، ومثلما صار عمر الشريف صديقاً لفاتن حمامة وزوجها، صار أيضاً صديقاً لأنوك إيميه وزوجها، حتى أنه استطاع أن يقنع أنوك بالتمثيل في فيلم كانت ترفض العمل به لأن حبيبها "ألبرت فيني" كان يعمل في فيلم آخر في بلد آخر وكانت تريد اللحاق به إلا أن عمر استطاع الاتصال بصديقها ليجعله يقنع بالاتصال أنوك، وبالفعل حدث.

وهذا التلون الرومانسي هو مما ورثه عمر الشريف عن والدته التي كان يشعر بأنها المرأة الوحيدة التي تمنحه الحرية وتجعله يتوغل بجرأة أكثر في الحياة، تلك الأم العجيبة فبالرغم من أنها كانت تبدو استحواذية، لكنها بالنسبة لابنها نافذته على العالم المتحرر، أمه التي كانت تذهب إلى السينما لتكون أول من

يشاهد أفلامه وتردد بفخر أمام الجميع "كل أفلام ابني جميلة"، هي المرأة التي أراد عمر دائماً نموذجاً يشبهها ليستطيع أن يرتمي في حضنها إلى الأبد.

"لقد كانت أمي دائماً موجودة فيَّ حياتي لدرجة أنني لم أكن أشعر بالحاجة لامرأة أخرى، وأنا إنسان حر أحب أن تكون لي صديقة أو حبيبة، لكن لا أحب أن أنام في فراش واحد مع أحد، فعندما يحين موعد نومي يجب أن أنام وحيداً في الفراش".

وانتهى ولعه بالعلاقات النسائية بنفس السهولة التي تخلى فيها عن عادة تدخين 100 سيجارة في اليوم، عقب أزمة قلبية عام 1994. حين انهار في فراشه بفندق جورج الخامس في باريس ووسط ألمه لم يستطع التفكير في أي شخص ليساعده، وعاش أكثر من عشرين عاماً بدون امرأة.

" لقد تعودت على الحياة بمفردي، أتناول طعامي بمفردي، أنام بمفردي، أشاهد التليفزيون بمفردي، أتكلم مع ابني ساعات وألعب مع أحفادي لأعيش لحظات سعادة خيالية. لقد تعودت على حياة العزوبية".

واختفى اسمه كعنوان بارز لقصص الحب والإثارة والتي كانت تغيظه حيناً وتضحكه أحياناً: **"أنا رجل أعزب بالتأكيد كنت مادة خصبة للشائعات، لكني إنسان بطبعي رومانسي**

جداً مثلي مثل كل الشرقيين وكان قلبي في فترات ما يسيطر على شخصيتي وربما أكون وقعت ضحية الابتزاز العاطفي نتيجة تلك الرومانسية المفرطة لكن ربما أدى الاحتكاك بالآخرين في بلاد الغرب والحياة الصعبة هناك إلى اكتسابي المزيد من القدرة على أن أجعل عقلي يسيطر أحياناً على عاطفتي".

لكن قبل هذا الاختفاء كان عمر الشريف بطل فضيحة كبرى فجرتها الصحافة في بداية العام 1996 حين ظهرت صورته تتصدر الصحف والمجلات وبجوارها صورة شاب إيطالي يشبهه تماماً اسمه روبين يقول أنه ابن غير شرعي لعمر الشريف، وأن والدته هي صحفية إيطالية تدعي "لولا دي لوكا"، وأنه يدعوه لحضور حفل تخرجه من الجامعة، وقال في حوار مع رضا حماد لجريدة أخبار اليوم (المصرية) أنه يسعده حضور عمر الشريف هذا الحفل ليكون صاحب أول يد تمتد إليه لمصافحته وتهنئته بمناسبة تسلمه شهادته الجامعية وإنهاء دراسته، وروبين الذي كان يبلغ حينذاك 25 عاماً قال أيضاً في نفس الحوار أنه يحلم باليوم الذي يستطيع فيه أن ينادي عمر الشريف "بابا".

وهي القصة التي تناقلتها الصحف والألسنة وسرت كالنيران تشتعل وتحرق في سيرة عمر الشريف الذي بدا كأن هذا الإعلان الذي فجره الشاب الإيطالي أشبه بالمفاجأة السخيفة التي

صفعته على حين غرة وأربكته، لكنه استعاد توازنه بسرعة وقال: **"أنا غير مقتنع بأنه ابني فلا يوجد ما يؤكد ذلك، هو شبهي طبق الأصل، وبطريقة تجعل البعض يقول أن الأمر معقول جداً، لكني غير مقتنع بذلك ولا أعرف أين الحقيقة بالضبط التي يمكن أن تؤكد لي أمر كهذا، بحثت عنها ولكني لم أجدها على الإطلاق، إذن فهي غير حقيقية ولا يمكن تصديقها".**

وحين ضاق عليه حصار الصحافة، وتساؤلاته روى تفاصيل الحكاية التي رتبتها له الصدفة ولم يكن يتوقع نتائجها، فقال: **"أم هذا الولد صحفية إيطالية جاءت لإجراء حوار صحفي معي منذ 25 سنة، وجلست معي خمس دقائق، ثم انقطعت أخبارها عني بعد ذلك، وبعد سنة اتصلت بي وقالت أنها أنجبت ولداً مني واسمه "روبن"، لا أعرف أين الحقيقة، فلم يكن بيني وبين هذه السيدة قصة حب حتى أعرف، إنني لم أقابل هذه السيدة أو أراها إلا مرة واحدة طوال حياتي ولم تنشأ بيننا علاقة بعد ذلك حتى هذا الشاب الذي يدعي أنه ابني لماذا صمت كل هذه السنوات وفضل أن يعيش بجوار والدته، فهو سواء مني أو من غيري فقد أحب والدته واختار الحياة معها، إذن فهو ابنها هي وأنا لا تربطني به أية صلة، مثلاً نادية ابنة فاتن حمامة والدها كان عز الدين ذو الفقار، لكني**

اعتبرتها ابنتي، لماذا؟ لأني أحببت أمها، أما امرأة لم أعرفها إلا عدة دقائق ولم أحبها كيف اعتبر ابنها ابناً لي".

وفي حوار آخر أجراه معه الكاتب الصحفي محمد تبارك لجريدة أخبار النجوم (المصرية) في عددها الصادر بتاريخ 24 فبراير 1996 عاد عمر الشريف ليؤكد إنكار أبوته للشاب الإيطالي روبن، فسأله محمد تبارك:

- ولكن الشبه بينكما أنت والابن كبير جداً، وربما إلى حد التطابق؟

- أنا معترف بهذا الشبه الكبير الذي يجعل الغير يقول معقول، ولكن أين الحقيقة التي يمكن تأكيدها الآن، مثلاً كل من "يربي شنبه" وله شعر أبيض يقول أنا عمر الشريف؟

- الابن .. أو الشاب الإيطالي يقول أنك التقيت به أكثر من مرة.. وفي كل لقاء بينكما كنت تعامله بود وحب..!

- لقد التقيت به بالفعل ثلاث أو أربع مرات وكنت رقيقاً معه، هذه طبيعتي مع كل من ألتقي بهم، ثم ما ذنبه هو إذا كانت والدته قالت له أن والده هو عمر الشريف، وطبيعي أن يصدق كل ما تقوله أمه ..

- إذن أنت تعترف معي بأن الابن في هذه الحالة مظلوم؟

- (قال عمر الشريف بصوت فيه شجن): من المؤكد أن الابن مظلوم، أنا معك في هذا، وكثير من أطفال العالم مظلومين.

- والأم؟

- أيضاً مظلومة، وأنا أيضاً مظلوم، فماذا فعلت حتى يطلب من الاعتراف بأبوة هذا الابن رغم عدم وجود الحقيقة التي تؤكد ذلك، فلو أنني كنت قد أحببت الأم ودامت العلاقة لتأكدت أنه ابني واعترفت به بلا أدنى تردد، أما أن أقحم في مثل هذه القصة فهذا أمر مرفوض تماماً، فما أؤكده أن الحقيقة ضائعة بكل المقاييس، وعلى هذا الأساس كل واحد يتحمل مسئولية تصرفاته وأعماله، أنا لم أعرف الكذب طوال حياتي، وكل من تعامل معي يعرف هذه الحقيقة جيداً، انهم يحاولون تأكيد أنه ابني، وأنا لا أعرف بالتحديد هل هو ابني أم لا، وعموماً كل إنسان في هذه الدنيا مظلوم في شيء ما وإلا لما كان هناك مظلوم وأديه كل مايريده ويمتلك كل شيء، فماذا ينقصه بعد ذلك.

- ألا تفكر في تغيير موقفك من هذه المشكلة الآن بعد النداء الذي وجهه إليك هذا الشاب الإيطالي "روبن" عبر الصحف؟

- ولماذا أغير موقفي الآن في فبراير عام 1996.. موقفي ثابت ولن يتغير، هو في الماضي كما هو في الحاضر!!...

تقول الوقائع والظروف والملابسات والشبه الأقرب إلى "نسخة كربون" أن روبن الإيطالي هو ابن عمر الشريف شكلاً هو قطعة منه أكثر من ابنه الشرعي "طارق" من زوجته الفنانة فاتن حمامة، لكن ظل إنكار عمر الشريف للشاب الإيطالي حائلاً يمنع إثبات الإبوة والتواصل بين شاب سعى بعد 25 عاماً للتواصل مع رجل قال أنه أباه وفشل، لكن هذا الحائل لم يمنع سيل الهجوم الذي انهال على عمر الشريف وخاصة من بعض جمعيات حقوق الإنسان التي اتهمته بالقسوة والظلم لإنسان جاء للدنيا بسببه ورفض حتى أن يحنو عليه، وهو ما أدهش عمر فقال: **"قد يكون هذا الشاب مظلوماً، لكني لست السبب، بل أمه التي جعلته يعيش في وهم أن والده عمر الشريف".**

بينما كتب صلاح الدين محسن في الحوار المتمدن عن حق المرأة الغربية المهضوم مستشهداً بواقعة عمر الشريف فقال: عن وجود ابن غير شرعي للممثل المصري العالمي عمر الشريف من صحفية إيطالية، ويشبه عمر الشريف تماماً أكثر من ابنه الشرعي من الممثلة الكبيرة فاتن حمامة !، صلته به ليست قوية وتكاد تكون قد انقطعت، لكن الابن الإيطالي الأم لعمر الشريف والذي تخرج من الجامعة منذ سنوات وكان يتمنى حضور الأب - عمر - معه حفل التخرج . ولم يحقق له عمر الشريف تلك الامنية - وقال أنه نتيجة علاقة مدتها 5 خمس دقائق مع

الصحفية الإيطالية وقتما زارته لأخذ حديث صحفي منه ! - وبكل بساطة يقول "ابني هو الذي أحببت أمه" !!! ويوم قرأت ذلك التصريح للنجم الكبير شعرت بالأسف .. فما دام أن إنساناً قد جاء للحياة. فلا ذنب له ولا شأن له بكون الأب أحب أمه أم لم يحبها ولا أن كانت الأم أحبت أباه أم لم تحبه .. طالما أن إنساناً قد جاء. فله حق يأخذه - حنواً وعطفاً إنسانياً. هو أضعف الإيمان (ولا يفوتنا أن نذكر بالخير الرئيس والمفكر الفرنسي الراحل "ميتران" الذي رد لابنته غير الشرعية حقها قبل مماته . وبينما هو في قصر الرئاسة فكان يصطحبها وصديقها. معه في الأماكن العامة بل وفي زياراته الخارجية لبعض الدول كرئيس لفرنسا) ! - والنجم الكبير - عمر الشريف- وأياً منا كان معرضاً لأن يكون في نفس وضع ذاك الابن المسكين ... ولكن ما يقلل من محنة ابن عمر الشريف والحالات المماثلة له كحالة الأمريكية السعودية الأب السابق الحديث عنها. أنه يعرف أن والده عمر الشريف وقد تولاه الأب لفترة قصيرة وأهداه بعض اللعب عندما كان طفلاً واشترى له بعض الحاجيات.

صمت عمر الشريف حين سمع مثل هذا الكلام ثم ابتسم وقال: **"تركت زوجتي من خوفي لأخونها، فربنا عاقبني وجعلني لا أستطيع أن أحب أبداً بعدها .. لم توجد امرأة واحدة أحببتها بدرجة تجعلني أرتبط بها.. وهذه السيدة الإيطالية لم يربطني**

بها شيء، فكيف يربطني بها ولد بعد كل هذه السنوات.. هذا أمر يتناف مع العقل.. أنا لا أستطيع أن أقول له "مرحبا أنت ابني"، فهذا أمر لا أجيده فعلاً، وأشعر أنني لو كنت فعلته كنت سأكذب وهذه ليست طبيعتي، صدقوني لقد بذلت جهداً حقيقياً ولم أستطع".

السياسة .. عزف منفرد

"القدر هو الذي اختار لي طريقي، فهناك أشياء في حياة الإنسان لا يتدخل في صنعها أبداً، حيث يجد نفسه وقد سار في طريق لا يستطيع أن يخرج منه، بالضبط مثل الدوامة". قالها عمر الشريف وهو يتذكر هذه السنوات العجاف في مشواره الفني وفي تاريخ وطن كان مكلوماً بهزيمة كبرى، هزيمة الروح وانكسار الذات التي خلفتها الهزيمة العسكرية، وأضاف: كانت مرحلة عسيرة جداً في حياتي جعلتني أتنازل وأقبل أعمالاً فنية دون المستوى، وعندما أجد نفسي أقوم بهذه الأعمال أفقد روحي المرحة وأصبح شخصية غريبة ومنفرة، وأجد كل أصدقائي يبتعدون عني لسوء طبعي وأخلاقي، فما أقسى وأبشع من أن يعيش الإنسان لحظات مفروضة عليه وليست باختياره، لكن "ما باليد حيلة"، فالفن هو مصدر رزقي.

كان عمر الشريف بالفعل فاقد الحيلة، فهو قد اختار وعليه أن يتحمل تبعات اختياراته، العالمية وهوليوود والتمثيل والسينما، ذلك هو العنوان الأبرز لاختياره وعليه أن يتشبث به حتى لا يجد نفسه في النهاية مستنداً على جدار ساقط في شارع الفن، اختار عمر أن يهجر مصر ولم يجبره أحد، وكان عليه أن يتابع أخبارها من بعيد كلما شعر بالحنين، وهو دائماً كان يشتاق إليها.

" قضيت 30 سنة أعمل مع الأمريكان والأجانب، وأغلبهم يهود متعصبون، وأنا كنت قادم من بلد عبد الناصر، وأحمل جواز سفر مصري ولم أغيره في حياتي،وقتها كنت أخاف أقول أي كلمة لأنهم كانوا سيرجعوني على بلدي أجر أذيال الخيبة والفشل".

سنوات غربته مرت، وهو يعاني الأمرين، اغترابه وشقاء حنينه لوطنه، وبينهما صورة جمال عبد الناصر نصب عينيه، ضابط الجيش القوي ذو النظرة الثاقبة، الحادة والحانية في ذات الوقت، الرجل الأسطورة الذي وصل إلى مصاف الآلهة، حسب تعبير عمر نفسه، واستطاع أن يغرس نفسه في وجدان أمته. شيء ما كان يجعله يتحمس لسماع تفاصيل هذه الأسطورة بإنصات واهتمام سرعان ما ينقلب إلى غيظ شديد وغضب دفين، شيء ما جعله لا يحب عبد الناصر الأسطورة، شيء في صدره لم يبوح به لكنه كان يزداد يوماً بعد الآخر كلما كبرت الأسطورة، ربما كان هذا الشيء هو وجوده في الغرب وأمريكا نفسها التي تعادي عبد الناصر وثورة يوليو الجامحة في مشروعها بالتحرير والتغيير، وتعادي أيضاً مشروع عبد الناصر العروبي ولم تستطع أن تروضه وتضمه تحت جناحيها.

"الأمريكان لو كانوا تسامحوا مع عبدالناصر، واستقطبوه ناحيتهم لكان مصير المنطقة تغير.. لكنهم للأسف لم يدركوا أن

هذا الرجل هو الذي يجب أن يتسايروا معه، فقد كان صاحب شخصية قوية جداً، وكان في منتهى الذكاء، والبلدان العربية تحبه بشكل جنوني".

(من حوار مع عمر الشريف لمجلة الشباب في عددها الصادر في نوفمبر 1999).

وربما كان هناك سبب آخر وهو أن عبد الناصر وقف في الجهة الأخرى المقابلة لعمر، هما بالفعل طرفان نقيضان متقابلان، فعبد الناصر رمز العروبة والداعي إلى القومية العربية وتوحيد الصف العربي في مواجهة الآخر، بينما عمر الشريف هو ابن الثقافات المفتوحة على هذا الآخر والمتماهية معه.

كان عمر، كعادته، يتابع أخبار مصر على شاشة التليفزيون أو على صفحات الصحف وينظر إلى صورة جمال عبد الناصر ثم يشرد، ويعود لينظر إليها مرة أخرى فيشعر أن هناك شيئاً ما تغير في ملامحه، ربما كان هذا البريق الذي كان يشع في عينيه قبل يونيو 1967 والذي يراه خافتاً الآن، هناك انكسار ما يبدو في الصورة، لكنه ممزوجاً بملمح عناد وتحد ليس واضحاً سوى للذين يعرفون تفاصيل هذا الوجه جيداً أو الذين يمتلكون شفافية خاصة، كان عمر يدقق في الصورة وكأنه يريد أن يعرف السر في أن صاحبها يسكن الأفئدة والقلوب العربية.. لماذا يعتبرونه على مدار السنين هو الحلم والأمل والرمز ونور الهداية.

علاقة غريبة ربطت عمر الشريف بالرئيس جمال عبد الناصر، فهو لم يقابله أو يصادفه ولو مرة، وربما لولا ظهور عمر على الشاشة الفضية ما كان ناصر عرفه أبداً، وكذلك لم يعطل عبد الناصر أحلامه في النجومية سواء في مصر أو خارجها، ومع ذلك لم يحبه عمر ولم يفهم حب الناس له، إلا أن هذا الشيء الذي يعتمل في صدره تجاهه ظل ثابتاً بداخله، وحين مات عبدالناصر في سبتمبر 1970 اهتز الكيان العربي كله وخرجت الجماهير العربية وراء جثمانه تشيع معه الأحلام وتحاول أن تقتبس منه آخر نور لآمالها في التغيير.

" أنا لم أكره عبد الناصر ولا ثورة يوليو أبداً، وكنت معها منذ البداية وشجعتها ودافعت عنها كثيراً في مواجهة والدي البرجوازي الذي خاف من الثورة، لأنه خاف على ماله وثروته، وفعلاً تعرض والدي للتأميم، ولو لم أكن اتجهت للتمثيل وأذعنت لوالدي الذي أرادني أعمل معه في تجارة الأخشاب كنا أفلسنا نحن الإثنين، ولكن بـ"فلوس" التمثيل ساعدته في السفر إلى مدريد وعاش مع والدتي هناك، واخترت لهم هذا المكان بالذات لما يمتاز به من أجواء شرقية تجعلهما لا يشعران بغربة، وبعد ذلك تغيرت نظرتي للأمور ولم أعد متحمساً للثورة".

اليوم الذي مات فيه جمال عبد الناصر كان عمر الشريف في بيروت أذهله مافعله اللبنانيون لحظة ماعرفوا خبر رحيل ناصر، مشهد الحزن الذي غطى لبنان كله كان رهيباً ومؤلماً، تأثر به عمر وأحزنه موت الرجل الذي لم يكن له أية مشاعر حب.

"كنت في بيروت يوم وفاة عبد الناصر، وكان تأثير وفاته على اللبنانيين فظيعاً جداً، واعتقد أن كل البلاد العربية كانت حزينة كذلك.. وأنا أيضاً حزنت بالرغم من أنني لست من المحبين لعبد الناصر أو من المؤيدين له أو من الناصريين".

عمر الشريف لم يحب جمال عبد الناصر، هو لم ينكر ذلك ولم ينساه، كان يظهر في كل مقابلاته الإعلامية ليعلنها مدوية، ثم يتحدث طويلاً كأنه يحاول أن يجد تبريراً لهذا الشعور الذي لازمه طول حياته، فينسبه إلى أحداث سياسية أو لاعتراضه على إنجازات الثورة التي لم يرها سوى "لخبطات" على حد تعبيره أفسدت المصريين ولم تساعدهم، بل أنها أفسدت الوطن كله، وهو ما يتناقض مع كلامه الذي سبق أن قاله في مجلة الشباب وكأنه حزين لأن أمريكا لم تستطع أن تستحوذ على عبد الناصر وتركته للروس، أي أنه باللغة الدارجة "استخسر عبد الناصر في الروس"، وهو ما تناقض مع تصريحات أخرى تخص رؤيته لعبد الناصر، كالتصريح الذي سبب أزمة كبيرة في يوم تكريمه بمهرجان القاهرة السينمائي الدولي في العام 2005، حين قال في

المؤتمر الصحفي الخاص بهذا التكريم أن "عبدالناصر كان عميلاً للأمريكان، يتلقى منهم الأموال والسلاح في بداية الثورة".. قالها، ولم يحسب عاصفة الاستنكار التي واجهته بحدة من الحاضرين في المؤتمر والذين وصفوا كلامه بأنه مثيراً للدهشة والسخرية، مما اضطره للتراجع والاعتذار عن وصف عبد الناصر بالعمالة ثم قال: "خانني التعبير ولم أقصد بالضبط أن عبدالناصر كان عميلاً للأمريكان وإنما ما أردت قوله هو أنه كانت هناك علاقات طيبة بينهما".. بدت هذه الإجابة هي الأكثر تعبيراً عن شخصية عمر الشريف النجم المحاط أحياناً بغلاف من الغموض، وفي كثير من الأحيان بغلاف أوسع من الصراحة الغير محسوبة والتي فاقت الحد في ذلك اليوم حتى أنه قال إنه كان يشعر بالإذلال خلال الفترة التي قضاها في مصر في عهد عبد الناصر، وكان يضطر للوقوف في طابور طويل من الراقصات للحصول على تأشيرة خروج من مصر لذلك اضطر لمغادرة مصر نهائياً وظل في الخارج 13 عاماً ولم يعد إلا في السبعينيات عندما التقي الرئيس أنور السادات في البيت الأبيض ووجه له الدعوة لحضور حفل زفاف ابنه.

بدا الأمر لحظتها وكأنه تصفية حساب قديم مع الزعيم الراحل جمال عبد الناصر أو مع ثورة يوليو، لكن عمر أنكر ذلك وقال: "لم يكن بيني وبين عبد الناصر أو ثورة يوليو ثأراً

شخصياً، حتى أنتهز الفرصة في هذا الجمع لأنتقم منه، لأنني لو رغبت في ذلك حقاً، لكان أمامي منابر كثيرة أخرى وعالمية ومنذ زمن طويل لأفعل ذلك، لكني أتحدث بصفتي مواطن مصري من حقه أن يتناول تاريخ بلاده وأن يكون له رؤية تجاهه".

وأضاف: "إنني في حقيقة الأمر أحببت ثورة يوليو إلى حد ما، حتى جاءت 1956 ووقع الأمريكيون في أكبر خطأ في التاريخ عندما أوعزوا إلى البنك الدولي برفض تمويل السد العالي فأعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس، وهاجمت إنجلترا وفرنسا وإسرائيل مصر، وتدخل الروس والأمريكان وقاموا بإخراجهم فتحول عبد الناصر إلى بطل أسطوري وعندما رأى صدام حسين والقذافي وغيرهما ذلك، وهما كانا يعيشان عندنا في مصر، عادا إلى بلادهما وقاما بحركاتهم الثورية لينالوا المجد الذي ناله ناصر، وصارت كل الأمور في يد الشيوعيين لأن روسيا أعطت لمصر السلاح والأموال لبناء السد العالي، وتطورت الأمور وساد التأميم كل شيء، وارتمينا في أحضان الشيوعية على الرغم من أننا كعرب ليس من طبيعتنا أن ندخل في خندق الشيوعيين.. وبالذات المسلمون.. وأنا بصفة شخصية لا أحب الشيوعية أبداً".

كلام عمر، لم يحمل صيغة متسامحة مع ثورة يوليو، وقد علل ذلك أكثر من مرة بأن أكثر ما أغضبه من يوليو هو تقسيم

الأراضي وقانون الاستصلاح الزراعي الذي اعتبره اتجاه غير عملي أفسد آلية الزراعة في مصر، كما سار على هوى أن حصول كل فلاح على خمس فدادين أفسد الزراعة وخفض من قيمة القطن المصري ولم يعد أحسن قطن في العالم بعد ما تفتت الرقعة الزراعية على فلاحين "غلابة" لا يمتلكون مقومات مادية كافية للنهوض بالزراعة، لم يتحدث عمر عن العدالة الاجتماعية التي حاول عبد الناصر أن يرسي دعائمها بعد أن كان 60% تقريباً من الشعب المصري تحت خط الفقر بينما كانت النسبة الأقل هي التي تتركز الثروة في كفتها، وراح يتحدث كما يتحدث المستشرقون عن مصر البلد الزراعي التي هجر فلاحوها الأرض ليعيشوا في العاصمة بسبب سوء تخطيط يوليو.

"حين أنظر حولي أكتشف أنني لم أعد أرى الفلاحين الذين شكلوا يوماً غالبية المصريين، والذين كنت أحبهم بدرجة كبيرة، لكنهم اليوم بعد هجرتهم إلى القاهرة تاهوا في شوارعها وتحولت القاهرة إلى كرة ملتهبة من المشاكل وصارت كالعلبة "الصفيح" التي كادت تنفجر من ضغط ماتحمله بداخلها، فالقاهرة التي تركتها في الستينيات وتعدادها 3 مليون نسمة صارت اليوم تحمل ربع سكان مصر أو أكثر، وصار أهلها لا يستطيعون العيش فيها، ولايوجد تشجيع كافي للفلاحة

والاهتمام بالزراعة، وكل هذا نتاج طبيعي لما خلفته ثورة يوليو".

هذا الكلام أثار استياء الكثيرين، حتى أن كاتب مثل الراحل رجاء النقاش قال مستنكراً: "لا أعرف ما الذي يريده عمر الشريف بالضبط، وما الغرض من كلامه هذا المرتبك، يبدو أن لديه أزمة لا نعلمها.."، ثم كتب النقاش في إحدى مقالاته واصفاً تصريحات عمر الشريف بأنها "خيبة أمل"، وأضاف: "هذا يذكرني بموقف حدث لي معه ذات مرة، فـ"النجم العالمي" كما يطلق عليه، جمعنا لقاء مع بعض الأصدقاء وفوجئت به يشن حربًا شعواء عالية الصوت على الصحفيين المصريين ويتهمهم بأنهم يلفقون كلامًا على لسانه، ويدلل على قوله بحديث نشر معه منذ سنوات خمس، حاولت استيضاح الأمر وسألته لماذا لم ينشر تكذيبًا وقتها، حاولت إقناعه بحقه في الرد، وحاولت إقناعه بالكثير من الأشياء التي من شأنها أن تجعله يخفض نبرة الغل والغيظ والصوت العالي، لكني فشلت فقد كان مصممًا أو ناويًا على ذبح الصحفيين المصريين على مائدة العشاء التي جمعتنا، وأوقعتني هذه المقابلة في حيرة من أمري وتدافع سؤال إلى رأسي، ماذا قدم لنا عمر الشريف؟ قفز إلى رأسي نموذج الفنان محمود مرسي الذي كان يعمل بإذاعة "بي. بي. سي" عام 1956 عندما وقع العدوان الثلاثي على مصر وكانت له مكانة مرموقة في هذه

الإذاعة ولكنه لم يتردد عن تقديم استقالته والعودة إلى وطنه احتجاجًا على مشاركة بريطانيا في هذا العدوان، المقارنة ليست في صالح عمر الشريف بالتأكيد، ففي ذروة الأزمة العربية طوال السبعينيات من القرن الماضي، كان نجم عمر الشريف يلمع ويصعد ويتألق".

المفارقة الغريبة التي ربما أحدثت هذا الدوي فيما قاله عمر الشريف عن عبد الناصر أو ثورة يوليو، أن قدره كان أن تكتب له ثورة يوليو شهادة ميلاده بطلاً في السينما المصرية الصاعدة مع بداية عصر الثورة وتعلن نجوميته المزدهرة بين جوانحها، وجاءت أفلامه معبرة عن آمالها وأحلامها واتجاهاتها، منذ أول أفلامه (صراع في الوادي) الذي قدم خلاله شخصية ابن الفلاح الذي يقف في مواجهة الباشا الطاغي، أو فيلم (أرض السلام) إخراج كمال الشيخ، والذي قدم فيه شخصية أحمد الفدائي المصري الذي يختفي داخل قرية فلسطينية، وتتعاون معه سلمى، وهي إحدى فتيات القرية، ويصور الفيلم معارك الفدائيين من أجل تحرير فلسطين والصعوبات العديدة التي يلاقونها من نسف خزانات الوقود، وبعد انتهاء أي عملية يعود أحمد مع سلمى دون أن يتمكن الإسرائيليون منهما، تنمو علاقة صداقة ثم حب بينهما تنتهي بالزواج، أو في فيلم (في بيتنا رجل) إخراج هنري بركات الذي يجسد فيه شخصية الفدائي إبراهيم

حمدي الذي كرس حياته من أجل الوطن، أو حتى دور الضابط خالد في فيلم (نهر الحب) إخراج عز الدين ذو الفقار، والذي يستشهد في حرب 1948 لتحرير فلسطين، وغيرها من الأفلام والأدوار التي تباينت وتعددت، لكنها قدمت نماذجاً خرجت من رحم التغيير الذي أحدثته ثورة يوليو في المجتمع المصري.

وهي المفارقة، أيضاً، التي عادة ما تثيرها أحاديث الفنانين في السياسة والتي غالباً ماتنقلب عليهم وتغضب جماهيرهم منهم، فحينما تدخل السياسة من الباب لا يخرج الفن من "الشباك" وإنما تفسد صورة النجم، و يثور الجمهور عندما يقول عمر الشريف أنه لا يحب جمال عبد الناصر ولا يحب عصره، وربما يطلبون منه أن يصمت، لكن عمر الشريف يقول بحسم: "أنا **لست رجل سياسة، لكني أتكلم كأي مواطن مصري يحب أن يناقش أمور بلده مثل كل المصريين، وأنظر إليها بعين المحب الذي يتمنى لها الأفضل دائماً**".

أصبح لدى عمر الشريف في الفترة التي أعقبت نكسة يونيو 1967 ثم رحيل عبد الناصر عام في سبتمبر 1970، مزاجاً حاداً.. ربما بسبب هذه الأحداث الجسيمة والمتلاحقة، وربما بسبب ضغوط العمل في بلاد لا ترحم وبسبب سخرية اليهود منه بسبب أصوله العربية وجنسيته المصرية التي رفض الاستغناء عنها واستبدالها بأية جنسية أخرى، كما قال، لكن المؤكد أنه واصل

طريقه على درب الشهرة والمال والمجد بلا تردد في ظل هذه الظروف، متنقلاً بين استوديوهات ومسارح وصالات القمار في أمريكا وباريس ولندن وروما، حيث صار النجم الأول في الإعلانات والفضائح وأرصدة المصارف في سويسرا وهلسنكي والسويد، كما كانت تؤكد عناوين الصحف والمجلات في تلك الفترة، فقد صنع لنفسه نوع مختلف من الحياة.. كلها صخب. وعمل عمر في العديد من الأفلام، وبالرغم من التحفظ العربي تجاه هذه الأفلام إلا أن صورة عمر الشريف لدى الجماهير العربية كانت تكبر وتأخذ حيزاً لا بأس به في عيون نظرت إليه نظرة محبة وإنبهار بالعربي الذي وصل إلى هوليوود وحظي بأدوار البطولة في أفلام أجنبية مشهورة إلى جانب عمالقة السينما الكبار، ولعلها نفس النظرة التي منحها له الرئيس المصري أنور السادات حين شاهده لأول مرة في البيت الأبيض، حسب رواية عمر نفسه، أثناء زيارة رسمية له هناك، مؤكداً أنه ذهب إلى البيت الأبيض أكثر من مرة، وتمت دعوته على العشاء، سواء من جيرالد فورد أو كارتر، وهناك قابل أنور السادات في حفل عشاء على شرفه وجاء من باريس خصيصاً لهذا الغرض، ولم يكن عمر قد زار مصر لأكثر من ثلاثة عشر عاماً، وطلب منه السادات أن يعود لزيارة وطنه مصر كما دعاه إلى حفل زفاف ابنه وقال له : "لو ماجيتش ياعمر مش حاكلملك تاني". وكان عمر يخشى لو ذهب إلى

مصر أن يرفضوا منحه تأشيرة خروج وهو ملتزم بعقود سينمائية عديدة في ذلك الوقت، وهكذا عاد عمر إلى مصر بدعوة من السادات، لتبدأ صفحة جديدة من حياته خط فيها السادات أول الحروف وأول الكلمات ليكرس لعلاقة قوية بين الرئيس الذي اقترب من أمريكا، وبين الفنان الذي عاش وعمل في أمريكا وله فيها حضور خاص، علاقة عبرت عن مرحلة جديدة لها معطيات مختلفة أحدثت زلزالاً في المجتمع المصري بل والعربي كله وتغيرت فيها الثوابت، فلم يعد هناك معنى أو جدوى للحديث عن المشروع العربي والقومية العربي وضرورة التواصل مع الأشقاء العرب في كل أنحاء الوطن، فهذه عناوين قديمة لا تخص سوى مرحلة مضت بحلوها ومرها، رحلت برحيل عبد الناصر وتلاشى صوت المقاومة والمعركة، أما المرحلة الجديدة فالصوت فيها منخفض والأذرع ممدودة بالسلام لا بالسلاح في وجه العدو، والسادات مضى في طريق السلام واقترب من أمريكا التي في كنفها يحيا عمر الشريف.

"كان السادات محبوباً جداً لدي الرأي العام الغربي، وأنا أيضاً كنت أحبه جداً، في الأول كنا نخجل من أن نظهر جواز السفر المصري بالخارج، وكنا نخجل من أن نعلن عن جنسيتنا، وبعد حرب أكتوبر 1973 صرنا نتباهى بجواز السفر المصري، وبأننا مصريون.. الواحد منا أحس أن شرفه رجع له،

وبدأنا نرفع رؤسنا مرة أخرى ونفخر بمصريتنا وانتمائنا لمصر وبجواز السفر المصري، فكل واحد منا شعر أنه استرد شرفه، وأحسست بأنني أخذت بثأري وأنا بالذات كانت همومي مضاعفة لأنني عشت سنوات الهزيمة الست بالكامل بالخارج، بعيداً عن مصر، وكذلك حدث نصر أكتوبر العظيم وأنا بعيد عن بلدي".

كان عمر بعيداً عن بلده، يرى الصورة من زاوية أحادية، لم ينتبه إلى زوايا أخرى لم تلتقطها كاميرا قدمت له فقط صورة مسطحة، فلم يعش انتفاضة 18 و19 يناير الشعبية حين خرجت جموع الشعب المصري تدافع عن حقها في الحرية والاستقلال والمعيشة الكريمة بعد ارتفاع الأسعار بشكل غير مقبول، فأسماها الناس "انتفاضة الخبز" في حين أطلق عليها الرئيس السادات "انتفاضة الحرامية"، لم ينتبه عمر الشريف للصورة الكاملة لمصر في تلك الفترة المرتبكة، صورة مصر الغريبة في عصر الانفتاح الاقتصادي الذي فرض سطوته منذ منتصف السبعينيات، حاملاً شعاره الاستحواذي" اكسب واجري"، عصر "انفتاح السداح مداح" كما وصفه الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين ملخصاً حالة العشوائية التي جرتها سياسة الانفتاح الاقتصادي على مصر والمصريين، وتكرست خلاله ظاهرة "الدولة الرخوة"، حسب تعبير د. جلال أمين، حتى أن السينما المصرية

نفسها اعتبرته بأنه خيانة لحرب أكتوبر كما أشار فيلم مثل "كتيبة الإعدام" لأسامة أنور عكاشة والمخرج الراحل عاطف الطيب، لكن عمر الشريف أحب الرئيس أنور السادات واعتبره فرصة مصر للانفتاح على الآخر، وكان عمر بالخارج يتابع السادات في الداخل بنفس النظرة الأحادية ويزيد إعجابه بسياسته التي توافقت مع هواه.

"أعجبتني سياسة السادات آه، لأنها سياسة سلام، أنا مش عايز الناس تموت. بيصعب عليّ أشوف وأعرف أن الناس بتموت، مابستحملش الموت ما بحبش الموت"، وعلى هذه الخلفية كان عمر من أوائل المؤيدين له في مبادرة السلام عام 1977 الذي وصفها بأنها كانت ضرورة وحلم بالنسبة له.

"أنا بطبيعتي أحب السلام لذلك كانت سعادتي بالمبادرة لا توصف، وهذه باختصار ليست وجهة نظر سياسية، إنما هي وجهة نظر إنسانية، فأنا أريد للشعب أن يأكل ويسكن ويفرح، ومن المؤكد أن الأموال الطائلة التي تنفق على السلاح وقت الحرب، سوف يستفيد منها الشعب لو وجهت إلى المشروعات القومية الكبرى بأن نبني مصانع ومساكن".

دخل عمر الشريف تاريخ صنع السلام العربي/الاسرائيلي بصمت وبدون علم أحد، حسب وصفه، حيث حكى أن السادات طلب منه أن يجس نبض الجانب الاسرائيلي تمهيداً لزيارته

الشهيرة إلى القدس عام 1977، كلف السادات عمر بمهمة "جس نبض" رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين في السبعينيات والاتصال بالقيادة الاسرائيلية لمعرفة مدى استعدادها لاستقباله في زيارة للقدس، وهي الزيارة التي مهدت لاحقاً لاتفاق السلام في كامب ديفيد، اتصل به السادات وقال له: "انت تتعامل في الأفلام مع اليهود وتعرفهم، كلم مناحم بيجين بالتليفون واسأله لو جاء السادات عندكم كيف سيكون استقبالكم له؟!" قال عمر أنه وافق على الفور واعتبر هذا الطلب تكليفاً وطنياً وواجباً لابد من القيام به، ثم ذهب إلى السفارة الإسرائيلية في باريس وطلب مقابلة السفير الإسرائيلي، وحسب روايته جلس في مكتب السفير الإسرائيلي ثم قال له:

- اطلب لي مناحم بيجين على التليفون فوراً.

اندهش السفير الإسرائيلي من هذا الطلب وتساءل:

- لماذا؟

- ستعرف حين تتصل به

أصر السفير الاسرائيلي أن يعرف السبب، لكن عمر رفض مصمماً على طلبه وقال له:

- لن أتحدث إلا مع مناحم بيجين.

عندها اتصل السفير الإسرائيلي بمناحم بيجين، وتحدث معه عمر الشريف على التليفون وقال: اتصل بي الرئيس السادات وطلب مني أن اسأل بالنيابة عنه ما إذا كنت على استعداد للترحيب بالسادات لو جاء في زيارة للقدس، فرد بيجين بالإيجاب وقال: "سنستقبله كالأنبياء، كالمسيح"، ثم عقب هذه المكالمة اتصل عمر من مقر السفارة الإسرائيلية بالرئيس السادات في القاهرة وأبلغه برد بيجين.

هذه هي الرواية التي رواها عمر الشريف بنفسه في أكثر من موقع وأكثر من مناسبة، كالمؤتمر السنوي لعرب أمريكا في واشنطن في العام 2006، وتناقلتها وكالات الأنباء، فأثارت جدلاً حول مصداقيتها من عدمه، حيث اعتبره البعض يحاول أن يخلق له دوراً بارزاً، وآخرون طالبوا بعدم التسرع في كيل الاتهامات، أما عمر فقال: **"أي دور الذي أحاول أن أخلقه؟.. لماذا؟ على أساس أنه كان ينقصني أدوار أو تنقصني نجومية، أنا رويت قصة حقيقية ليست بعيدة عن التصديق، ثم أنني طول الوقت أحكيها حتى قبل مؤتمر العرب الأمريكان في واشنطن ولم يعترض أحد أو يكذبني، فلماذا هذه الضجة الآن؟.. أنا اتصلت بالسفير الإسرائيلي في باريس فعلاً بناءً على طلب السادات، ووفقاً لقناعاتي كمصري يحب أن يتحقق السلام في بلده، واتصالي بالسفير الاسرائيلي في باريس كان**

سهلاً لأنني نجم تفتح له كل الأبواب، وهذا ما أدركه السادات بذكائه لذلك طلب مني ذلك، وحاول يستغل نجوميتي وأنا كنت سعيد بهذا الطلب".

روى عمر الشريف تلك الحكاية على طريقة من حقق إنجازاً مهماً لصالح بلده، يقول أنه ذهب للقاء السفير الإسرائيلي في باريس وتحدث مع مناحم بيجين، ولا يهتم بأنه بذلك فتح الطريق للتطبيع مع اسرائيل، لأنه كان يفتح طريق السلام بناء على طلب من السادات صاحب المبادرة، ثم أن كلمة التطبيع ليست أصلاً في قاموسه، صعب أن تكون لديه وهو الذي يعيش في الغرب منذ منتصف الستينيات ويتعامل مع كل الجنسيات والديانات، فهو بالتأكيد يملك زاوية رؤية مغايرة وليست لديه هذه الكلمة الجديدة التي انتمت إلى ثقافة جديدة بالنسبة له ولكنها شكلت جزءً من ثقافة المقاومة العربية، وجعلت حالة الرفض الشعبي مستمرة حتى اليوم في مصر للتطبيع مع اسرائيل أو إقامة أي نوع من العلاقات أو التعاون معها، فالسلام الذي وقع السادات اتفاقيته في 26 مارس 1979 مع اسرائيل، كان أسهل بكثير من التطبيع.

اتفاقية السلام أسعدت عمر الشريف، وكان من الطبيعي أن لا يلحظ حالة الإحباط والغضب التي سادت الشارع العربي منذ زيارة السادات للقدس، حتى أن وزير الخارجية المصري إسماعيل

فهمي أعلن استقالته، وتبعه بعد ساعات قليلة محمد رياض وزير الدولة للشؤون الخارجية، وفيما طالب توفيق الحكيم وحسين فوزي ولويس عوض الابتعاد عن "العروبية المبتورة" التي لا ترى العروبة إلا في ضوء المصلحة المصرية فقط، جاءت القطيعة العربية لمصر ضربة موجعة، ربما شعر عمر نفسه بمعنى القطيعة لمجرد المناداة بمقاطعة أفلامه الغربية عربياً، كانت هذه واحدة من تفاصيله المؤلمة، فما بال المقاطعة العربية لمصر؟

عمر الشريف الذي أسعدته اتفاقية السلام، لم يحسبها على هذا النحو، فهو من الأساس لم يحسبها من منظور سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، وإنما فقط برؤية إنسانية تخلو من أية حسابات أو تعقيدات أخرى، ما الذي ربحته أو خسرته مصر؟ .. سؤال ربما راوده، وربما أجاب "مصر ربحت السلام، ونجت من الحرب"، وهو صادق في جوابه لأنه عن عبر فعلاً عن إحساسه ويقينه الخاص، فهو فقط نظر إلى الشكل ولم يهتم إذا كان هناك مضمون، خطفه بريق الصورة دون إدراك ما تخفيه وراءه، النجم الذي ملأ الأعين في الشرق والغرب نظر إلى الصورة من بعيد، قال "ملعونة الحرب .. السلام أفضل" أو "ملعون القتال، الحوار هو الحل".

الحوار والانفتاح على الآخر جزء من ثقافته وتنشئته في مدينته الأولى "الاسكندرية" والذي زاد يقينه به في معيشته بالغرب محاطاً بتعدد ثقافي وعرقي كبير، لكن هذا اليقين بضرورة الحوار هو ما جعله يخسر رئاسته لمهرجان القاهرة السينمائي الدولي في مطلع عام 1998، حيث كان مرشحاً وقتها ليخلف الراحل سعد الدين وهبة، وكان قد التقى بوزير الثقافة الأسبق فاروق حسني وكانت هناك موافقة مبدئية من عمر وأيضاً ترحيب مبدئي من الوزير، حتى صرح عمر في حواراته الصحفية وقال بتلقائية أنه يرى أن القاهرة لا تصلح لإقامة المهرجان لأنها متخمة بالزحام والمشكلات وعوادم السيارات وأنه يقترح أن يتم نقل المهرجان إلى "طابا" ولم يمانع عمر وقتها من أن يشارك المنتجون اليهود في المهرجان وأضاف أن بين طابا واسرائيل خطوة واحدة فلماذا لا يشاركون في المهرجان؟!

تورط عمر في هذه التصريحات التي حاول أن يبدو من خلالها فناناً عالمياً، لم يرى في كلامه وآرائه ما يراه البعض بحتمية وجود تعارض بين الهوية القومية والنزعة الإنسانية أو العالمية، لم يرى أن الانفتاح على الآخر قد يعني التبعية أو التخلي عن الملامح الأصلية، لكنه فتح على نفسه باباً جديداً لهجوم عنيف أفقده فرصة رئاسة مهرجان القاهرة واتهمه في وطنيته، وهو ما سبب جرحاً لعمر الشريف الذي اكتفى بالرد المقتضب:

"لـم أسـع لرئاسـة المهرجـان مـن الأسـاس، ووطنيتي لا تقبـل المزايـدة، فلسـت صـهيونياً كمـا وصـفني الـبعض .. ومصـريتي شفافة ونقية".

وهكـذا ظـل عمـر يشـرق ويغـرب في العـالم، حياتـه كانـت مكشـوفة تحـت الضـوء، تفككـت تفاصـيلها في الغربـة ونمـت ذكرياتـه مضـرجة باحتيـاج أصـدقائه القـدامى، كمـا تحـول هـو شخصياً إلى ماكينة للتصريحات المثيرة للجدل وزلات اللسان التي أوقعتـه في مشـاكل كـثيرة ، لكنـه لا ينـدم ولا يعبـأ بتقـديم تبريـر لسلوكه، حتى في اختياراته لأفلامه وإن لم يرض عن بعضها فإنه لا يعلن ندمه عن تقديمها: **"أعرف أني لحظة فعلتُ ذلك كان عليّ أن أفعل. هذا كل شيء. ثم إني لا أحبّ النظر إلى الوراء".**

قرر أن يحيا دائماً لحظته الراهنة، لا أن يشغل باله في تتبع عثراته القديمة، ولا أن يختنق في أفق ضيقة رسمها له آخرون، اختـار الشـريف أن يعيش كل دقيقـة حسـب إيقاعـه المنفـرد، لا ينتمي لشيء سوى لنفسه التي تتحصن بفلسفته عابرة الزمان والمكان والهوية، يحقق قدراً كبيراً من النجومية والشهرة، لكنه يشعر أنه حراً أكثر حين يتحرر من وطأة واقعه المغترب ويفوز في مقامرة مجنونة، وهو من الأساس لم تشغله خسارة الأموال واتبع فقط لحظة اكتماله بالفوز الذي كان معادلاً لشغف بالاكتشاف مهما كلفه الأمر حتى لو مسه صاعق الوحدة وجنونها وخطفته

من خرافة الزمن السعيد لترميه في جُب الغربة الذي لا يعرف فيه مقلاعاً ولا مرساة.

"أرغمتُ على أن أعيش حياتي كلها مثل بدوي، ألعب دوماً دور الغريب، لا أملك في الحقيقة جذوراً. إني غربيّ الثقافة جداً وشرقي المزاج جداً".

تاريخه كان كما شاء، فالكائن البشري الذي بداخله دوّن مصيره بعفوية بعيداً عن نظريات التأمل والتدبير، فهذه نظريات تحد من خياله في المقامرة، دخل عمر الشريف اللعبة بحياته كاملة، فانتزع نفسه من جذوره، ترك دينه ليفوز بحبه وهجر عائلته واختار السفر إلى المجهول، انحاز لنرجسيته بحس المقامر وغريزة الاكتشاف والمنحى الإنساني العام الأوسع من مجرد حياة تقليدية.

الفصل السادس
المواطن مصري

سنوات صعبة وجافة مرت به، لذا في كل مرة يعود فيها يشعر بالراحة؛ فليس للغريب إلا بلاده، رجل كان مفعماً بالحياة يقف عند مفترق اليأس والتحرر، غمره الحنين إلى الجذور وأشياء كثيرة فاتته، فعاد إلى مصر في عام 1984 حين وجد نفسه وحيداً، بلا أصدقاء دائمين، ولا أموال، ولا صحة.. لماذا مصر؟ لماذا القاهرة وليست باريس أو لندن أو نيويورك أو روما؟ رغم أن كل هذه العواصم كانت ترحب به وتفتح له ذراعيها؟ هذا السؤال وجهته إليه "اليانور ميلز" مراسلة صحيفة "الأوبزرفر" البريطانية في حوار أجرته معه بأحد فنادق القاهرة، فأجابها: "انني ابن هذه الأرض، أنتمي لمصر، هنا أشعر بالدفء، لقد عشت سنوات طوال بدون كيان أو شخصية، كنت غريباً وأجنبياً في كل مكان، وعندما عدت للقاهرة والتقيت بأصدقاء الطفولة

أدركت أنني أريد قضاء سنواتي الأخيرة هنا، أجلس وأدردش وأثرثر عن الماضي مع الناس الذين ما زالوا يتذكرون".

استقر في باريس في بداية الثمانينيات، انغمس في المقامرة وانشغل عن السينما حلمه الذي تغرب من أجله، ولهذا انحسر نجمه لفترة طويلة، ثم عاود التمثيل في السينما المصرية، مع العلم أنه أثناء معيشته بالخارج وهو في أوج نجوميته، كان لا يتوقف عن العمل فى مسلسلات إذاعية مصرية منها (أنف وثلاث عيون) و(الحب الضائع)، بالرغم من هذه المسلسلات كانت لا تمنحه مالاً أو مجداً، لكنها كانت بمثابة الخيط الواصل بينه وبين مصر، وحين عاود العمل في السينما المصرية قدم (أيوب - 1984) و(الأراجوز - 1989) لهاني لاشين و(المواطن مصري - 1991) لصلاح أبوسيف، وفي الأفلام الثلاثة، تتشابك المصائر الإنسانية عند حد القلق الذي يكاد يعصف بالبطل على حاضره الذي يتثائب كأنه يراوغ النهاية، فيما يتملك هذا البطل حنين إلى ماضي لا يضع نقاطاً على حروف المستقبل وفيما يحاول أن يتفادى الوقوع في الهاوية، تكون حادثة بالفعل أخلت بالتوازن في مجتمع ثقل بهمومه وجنونه، وعلى تباين موضوعات هذه الأفلام تلون أداء عمر الشريف ما بين أداء صادق ومنفعل بالشخصية التي يؤديها أو أداء يمس حدود الشخصية من الخارج دون توغل حقيقي في لحمها ودمها، لكنه في كل الأحوال تجاوز فكرة نجومية

عمر الشريف لتصدق أن جزءً منه هو العمدة في (المواطن مصري) الذي يهندس الحياة ويخططها حسب رغباته وأطماعه في أن يمتلك الجغرافيا والتاريخ، أو الفنان العجوز في (الأراجوز) الذي يتوجس من القادم الغامض ومع ذلك يصدق يقينه ومن أجله يقاوم، في حين يحاول (أيوب) أن ينقذ نفسه من حبال ماضيه المخزي ولا يفتت المستقبل على صخرة الخوف، فيشع التحدي في عينيه التي لا شيء إلا ضوء الأمل فيها يرسم فجراً جديداً.

كانت المفارقة أن الخطوة الأولى في العودة منذ آخر أفلامه المصرية (المماليك) عام 1965، جاءت عن طريق التليفزيون وليس السينما، ففيلم (أيوب) الذي أخرجه هاني لاشين في أولى تجاربه الإخراجية كان من إنتاج التليفزيون المصري، وهو ما اعتبره البعض بمثابة نوع من قلة الحيلة جعله يقبل بالعودة عبر التليفزيون ومع مخرج مبتدئ حينذاك، لكن عمر الشريف الذي قبل بالمجازفة بخبرته وحسه الفني الذكي وعينه الخبيرة، رفض هذا الاتهام بشدة واعتبره مجرد دعاية مغرضة.

"لقد فكرت في الأمر ووجدت بأن التليفزيون يحظى بأغلبية ساحقة، فضلاً عن إنه يجمع العائلات في المنازل، ويقدم - وقتها - مستوى أرقى من مستوى السينما، أما مسألة إسناد الإخراج لفنان مبتدئ، فهي لم تكن مغامرة محفوفة المخاطر

كما قالوا وقتها.. إطلاقاً، لكني رأيت أنه لابد للشباب أن يأخذ فرصته ويثبت وجوده، وهذه الفرصة من يعطيها له إلا نحن!! وهاني أخرج لي ثلاثة أفلام تسجيلية تتناول السياحة والآثار في مصر، وهو مخرج له فكر وأسلوب يميزانه عن غيره".

كانت مجرد عودة عمر الشريف مثيرة للأسئلة والدهشة بالتأكيد، فترقب النقاد هذه العودة بكثير من الجدل، فهم لا يعرفون كيف سيعود عمر بعد سنواته الطويلة في السينما العالمية وعمله مع مخرجين وممثلين كبار لابد أن أكسبوه خبرة أكثر من خبرته في السينما المصرية، وهو نجح وشق طريقه بين صفوفهم ليس لشاربه الشرقي أو إجادته للغات، حسب تعبير الناقد الراحل سامي السلاموني، كانت مخاوف النقاد من حضور نجم عالمي في قامة عمر الشريف ليعمل في ظل ساحة متهالكة، لكن هذه المخاوف تلاشت مع أول فيلم في سلسلة أفلام العودة وهو (أيوب) الذي كتب له السيناريو الراحل محسن زايد. (أيوب) هو الرمز الذي أراده نجيب محفوظ في هذه الرواية ليكشف عن فساد استشرى في وطن يئن من ثقله، وذلك من خلال انهيار رجل الأعمال عبد الحميد السكري الذي يعود من الخارج بعد صفقة موفقة، ثم بعد مشادة من أحد العاملين معه يصاب بشلل مفاجئ دون أن تمكنه ملايينه من الشفاء ويجد نفسه في بيته منغمساً في مشكل زوجته المتسلطة وابنه الذي يسير على دربه

الملتوي وابنته البريئة التي تحب شاباً فقيراً، لكن هذه الحالة تجعله يستعيد صديقه القديم والشريف، ويستعيد ذاته التي خربت بسبب فساده وتكوين ثروته بالغش والاختلاس والقوادة، وهو مايقرر نشره في مذكراته ليفضح مجتمع سكنت فيه خفافيش الفساد ومصت دمائه. الفيلم كان مفاجأة حقيقية تليق بعمر الشريف الذي شبهه النقاد بأنه في هذا الفيلم "حوت تمثيل" طغى بأدائه وشخصيته وجاذبيته الخاصة على الجميع، فبدا وكأنه مثله مثل أيوب في الحكاية الشعبية، صبر كثيراً وعانى كثيراً ثم عاد لينال مراده في وطنه.

بعد فيلم (أيوب) ونجاح عمر الشريف الذي كان خارج دائرة التوقعات، جاءت المصادفة مرة أخرى لتحقق له رغبته في تقديم دور مسرحي، وذلك عندما تلقى عرضاً للقيام ببطولة المسرحية الانجليزية (الأمير النائم)، على مسرح "هاي ماركت" الذي يعد من أجمل مسارح العاصمة البريطانية، وكانت قد قدمت هذه المسرحية من قبل، حيث قام ببطولتها إمبراطور المسرح البريطاني الممثل الراحل "لورنس أوليفيه"، واستكمالاً لنجاح المسرحية، تم إنتاجها في فيلم لعب فيه "أوليفيه" دور البطولة أمام "مارلين مونرو". لقد تردد عمر في البداية بقبول هذا الدور، إلا أنه تراجع تحت إصرار المخرج، ورصده لتجربة زميليه "يول براينر" في مسرحيته (الملك وأنا)، و"أنتوني كوين" في تجربته المسرحية (زوربا

اليوناني)، عندها أدرك عمر بأن هذه الفرصة مثالية، لكي يثبت للجمهور كفاءته كممثل من جهة، ومن جهة أخرى ينقذ نفسه من الانهيار ويتخطى مرحلة الفشل والضياع والوحدة، حتى أنه تحمل نفقات وجوده في لندن والتي كانت كبيرة جداً ووصلت ثلاثة أضعاف أجره الأسبوعي في المسرحية، **"كنت أدفع ثمن الفندق والطباخة والسائق وتكاليف الحياة في لندن من جيبي"**، وهذا لم يثنِه عن رغبته في إثبات نجاحه عالمياً مجدداً، فنجح عمر الشريف ونجحت المسرحية، وكتبت الصحافة البريطانية والعالمية والعربية أيضاً، وأنصفت عمر في النجاح الذي حققه عبر هذه المسرحية.

"أنا عاشق للمسرح، وهذه المسرحية لم تكن للعرض التجاري، لكنها كانت معروضة في مهرجان، وأنا لم أقبل الدور سعياً وراء شهرة، فما كنت أبحث عنه هو رضى النفس عن النفس". وقد استمر عرض المسرحية أكثر من ستة أشهر، كانت بمثابة عودة الروح له بعد قيامه بالتمثيل في العديد من الأفلام غير الناجحة والتي لم يقتنع بها ولكنها جاءت في فترة حساسة من حياته.

"لقد أعطتني الأفلام السيئة حياة جيدة، ولكن الأزمة التي قامت إنما كانت بيني وبين نفسي، لقد كرهت نفسي بسبب تلك الأفلام، لذلك انطلقت وراء الليل وميادين السباق

وطاولات البريدج، على أمل أن يؤدي كل هذا إلى يقظة الطموح في أعماق نفسي، وعندما جاء عرض المسرحية قبلت به وأنا أدرك تماماً ما أنا مقبل عليه، إنها مسرحية مرحة لا تحتاج الى الكثير من الذكاء أو التذاكي. لقد جعلتني هذه المسرحية أشعر بأنني قد استعدت شبابي، وقلبت موازيني".

في النصف الثاني من عقد الثمانينات، اشترك عمر الشريف في عدة أعمال فنية، مثل قيامه بدور آخر قياصرة روسيا في الفيلم التليفزيوني (ناتاشا)، ثم قيامه بدور أحد الكهنة المقربين لأحد قياصرة روسيا في فيلم (بطرس الأكبر) الذي أنتجته محطة التليفزيون الأمريكي "إن بي سي" وتكلف إنتاجه ستة وثلاثين مليون دولار.

وفي عام 1989، عاد عمر الشريف إلى السينما المصرية مرة أخرى وأيضاً مع المخرج هاني لاشين وقام ببطولة فيلم (الأراجوز)، الذي لاقى هذا الفيلم نجاحاً فنياً وجماهيرياً، واحتفت به المهرجانات، وحصل على الجائزة الثالثة مع شهادة تقدير لعمر الشريف في مهرجان فالنسيا الدولي، كما حصل - قبل ذلك - على الجائزة الأولى مناصفة مع جائزة خاصة لعمر في مهرجان الاسكندرية السينمائي.

(الأراجوز) فيلم عن مصر في زمن بعد نكسة يونيو 1967 إلى الانفتاح الاقتصادي بعد حرب أكتوبر 1973، وتكشف أحداثه

شبح فساد راح يفرد جناحيه على البلد في ظل هذه الظروف الصعبة والتحولات العنيفة من خلال صراع بين الأب الأراجوز -يجسده عمر الشريف- الوطني الذي ينفعل للهزيمة وينفعل لحرب أكتوبر ويهتف "خللي السلاح صاحي"، وبين الابن الوصولي والانتهازي ومنعدم الضمير الذي يرقص بعد النكسة ويبيع زوجة أبيه ويجرف الأرض الزراعية ويسعى لبناء سوبر ماركت في قريته بعد حرب أكتوبر، هو صراع بين جيلين مختلفين، الجيل الأكبر ينتمي إليه الأب الذي يدين بالولاء لثورة يوليو ومنجزاتها، والجيل الأصغر ينتمي إليه الابن وهو جيل ثورة يوليو الذي صنعته الثورة ونشأ في رحابها، وهي النظرة التي اعتبرها الناقد الكبير سمير فريد غير موضوعية، وكتب عنها في مقاله (الأراجوز.. وماهو الحق الذي نطق به) المنشور في جريدة الجمهورية عددها الصادر بتاريخ 22 يناير 1990، يقول: "الواقع أن جيل الثورة هو الذي عانى من النكسة وليس هو الذي صنع النكسة. والواقع أن جيل الثورة هو الذي بقي في الجيش لمدة سبع سنوات وخاض حرب الاستنزاف ثم حرب أكتوبر. والواقع أن جيل الثورة هو الذي عانى ويعاني من الانفتاح الاستهلاكي، وليس هو الذي صنع هذا الانفتاح. ثلث جيل الثورة استشهد عام 1967، وثلث آخر من نفس الجيل استشهد عام 1973، وبقي الثلث الأخير يعاني حتى اليوم".

على أي حال فإن فيلم (الأراجوز) خلق حالة فنية مغايرة للسائد حينذاك، وكرس لحضور مختلف لعمر الشريف كفنان يتلون في أدائه بشكل مبهر يفرد له كممثل مساحة عريضة لاستعراض عضلاته، أو كما اعتبره الناقد سمير فريد تتويجاً لمسيرة عمر الشريف، وقال: "هو فيلم مصنوع من الألف إلى الياء لإبراز أداء الممثل.. وليس في هذا عيب ولا فضل. فالمهم الفيلم ذاته في النهاية، وكم من الأعمال الدرامية الكبيرة سواء في المسرح أو السينما صنعت من أجل الممثل رجلاً كان أم امرأة. وقد أبدع عمر الشريف في أداء الأراجوز".

في (المواطن مصري) قدم عمر الشريف تنويعاً جديداً، ففيما كشف الفيلم عن الانقلاب الذي حصل على ثورة يوليو وعلى منجزاتها، جسد عمر شخصية العمدة الإقطاعي عبد الرازق الشرشابي الذي استطاع بحكم قضائي عام 1973 ومصر تستعد لخوض حرب أكتوبر، استرداد أراضيه الزراعية التي سبق أن وزعها الإصلاح الزراعي على الفلاحين الفقراء الأجراء، موضوع الفيلم كان جريئاً وشديد الوعي بهذا التطور الذي يحدث في مصر وهي على أعتاب مرحلة جديدة، فالأرض التي وزعتها الثورة على الفلاحين تنتزعها المحكمة والشرطة عنوة لتعيدها للعمدة الذي ينحر الذبائح فرحاً بهذا الانتصار، بينما خفيره العجوز يبكي حسرة على الأرض التي سوف تنتزع منه أمام صورة جمال عبد

الناصر وهو يسلم له عقد هذه الأرض منذ عشرين عاماً، ولأنه يمكن أن يموت جوعاً بعد انتزاع الأرض يقبل بفعل غير إنساني وهو أن يذهب ابنه إلى الخدمة العسكرية بدلاً من ابن العمدة المدلل مقابل بضعة جنيهات، ويتم تزوير المسألة التي تكشف عن فساد ضارب بجذوره في مجتمع يعيش لحساب الأقوياء فقط الذين يسرقون حقوق الفقراء حتى في الموت، لأنه عندما يستشهد ابن الخفير الفقير في حرب أكتوبر، نسبت بطولته لابن العمدة، وعمر الشريف صنع كل شيء في طاقة أي ممثل لكي يلعب دور العمدة الظالم الذي يستغل نفوذه لإذلال الآخرين، وأبهر الجميع الذين لم يصدقوا أن خريج فيكتوريا كوليدج والنجم العالمي الذي يعمل ويعيش في الغرب من الممكن أن يجسد هذا العمدة الإقطاعي صاحب الجبروت، كما لم يصدقوا من قبل ذلك بسنوات طويلة أنه هو نفسه عمر الشريف الذي جسد ببراعة دور الصعيدي الساذج في فيلم (صراع في النيل).

وعموماً، فإن عمر الشريف كان قد عاد إلى وطنه ليذوق طعم النجاح مجدداً بعد أن تجرع مرارة فشله في فترة تخبط فيها كثيراً بين اختيارات سينمائية لم تكن جيدة ولم تكن ترضي طموحه الفني، وبين ارتباكه الشخصي سواء في لعب البريدج أو المقامرة على الخيول أو المغامرات النسائية، رغم أنه يؤكد دائماً

أنه لم يكن "بلاي بوي" بل كان فقط "صاحب مغامرات"، هذا التعبير يراه عمر أكثر دقة.

" لم أكن أبداً ولداً شقياً. أصحابي كانوا أكثر شقاوة مني، ربما كانت لي مغامرات نسائية في شبابي، عندما كنت ناجحاً ونجماً عالمياً ولكنها ليست كثيرة كما يتصور الناس".

عودة عمر للقاهرة كانت فأل حسن بالنسبة له جعلته يشعر بأمان يوازي نجاحه السينمائي بعد الأفلام الثلاثة وشجعه للدخول في فيلم رابع عام 1993 هو (ضحك ولعب وجد وحب) قصة وإخراج طارق التلمساني وسيناريو وحوار مجدي أحمد علي وشاركه بطولته يسرا وعمرو دياب، والفيلم بدا وكأنه جاء في مشروع خاص بعمر الشريف يستكمل من خلاله سلسلة أفلامه السابقة، بمعنى أن أفلام العودة الثلاثة السابقة (أيوب.. الأراجوز.. المواطن مصري) وجهت نقداً مريراً للمجتمع المصري في خارطته الجديدة التي برزت خطوطها بآلام النكسة والحرب وقامت أعمدتها على أنقاض زمن وبشر داستهم الجغرافيا كما دفنهم التاريخ، ومع (ضحك ولعب وجد وحب) يدخل عمر الشريف من نفس الباب مرة أخرى وكأنه يؤكد وجهة نظره هذه سواء على المستوى السياسي أو الفكري ولكن من خلال شكل فني وطريقة مختلفة. أشار الفيلم إلى هيمنة الحزب الواحد وسلبيات الشعارات السياسية، وغياب الاستراتيجية العسكرية،

وذلك من خلال أحداثه التي تدور في أواخر الستينيات، وفي مدرسة تضم أنماطًا مختلفة من روادها حيث يعيش بعض التلاميذ المتمردين على ما يحدث حولهم في المجتمع، من هؤلاء أدهم الذي يرفض تمامًا كل سلوك والده محمد شوكت ضابط المخابرات المنشغل دائمًا بأعماله خاصة بعد وفاة زوجته، والذي يشعر أدهم أنه السبب في وفاتها، فيحاول أن يفرض على الأب رأيه كنوع من التمرد، ويلتقي بالمرأة العاهرة "إش إش" التي تسكن في مواجهة المدرسة، ودفعتها ظروفها الاجتماعية أن ترتمي في أحضان المخابرات والرذيلة، ترتبط بأدهم الذي يصغرها بسنوات والذي يرى فيها شبهًا من أمه ويتزوجان في النهاية بعد أحداث كثيرة رغم معارضة الأب الذي حاول أن يستعير جزء من صورة الأب التقليدية والشهيرة في "غادة الكاميليا" ويبعد "إش إش" عن ابنه، لكنه لم يفلح. أحداث الفيلم لم تشِر من قريب أو بعيد إلى انعكاسات النكسة على المصري في ذلك الوقت وأحاسيس الإحباط والألم والرغبة الدفينة المترسبة هذه النكسة تتحول إلى نكتة يطلقها أحد الطلبة ليبرر ذهابه لمشاهدة ظهور العذراء في الزيتون: " عشان نعرف منها موشى ديان حيعمل فينا إيه عشان نعمل حسابنا في السنة الجاية".. وهكذا يتحول -الجد- إلى أمور هامشية تظلها ضحكات هزيلة ولعب عدواني وحب مراهق، حيث تبرز علاقة أدهم بـ"إش إش" لتكون هي محور

أحداثه، وكانت مساحة دور عمر الشريف في هذا الفيلم صغيرة، حيث قام بدور الأب، وبالرغم من حضوره المؤثر على الشاشة إلا أن النقاد لم يعجبهم الدور وقالوا أنه لا يرقى لمستوى وقيمة عمر الشريف، كما أن الفيلم أيضاً لم يحقق النجاح الجماهيري المتوقع.

وكما أن الصدفة لعبت دوراً كبيراً في العودة الطوعية لعمر الشريف إلى مصر ونجاح أفلامه السابقة، تحول فيلمه (ضحك ولعب وجد وحب) إلى علامة التوقف لعمر في السينما المصرية، حيث أصبح آخر فيلم له في التسعينيات، وحقق إطلالة أخرى بعده حيث تشارك مع الفنانة يسرا بطولة بعض الإعلانات وافق على استخدامه للدعاية السياحية، وهو ما انتقده البعض بسببها ولكنه لم يلتفت إلى هذا الانتقاد واعتبره انتقاداً مرفوضاً، مصرحاً بأن العمل بالإعلانات ليس عيباً بل هو أمر مشروع وكثير من الفنانين الكبار سواء على المستوى المحلي أو العالمي قاموا بأداء بعض الإعلانات ولم يشعر أحد لحظة أنهم قاموا بفعل معيب. بدا عمر بعد ذلك وكأنه اكتفى بالعمل في السينما، لكنه في الحقيقية لم يستطع العثور على مايدفعه للوقوف أمام الكاميرا، وصار متأرجحاً بين فكرة الاعتزال أو الاستمرار في العمل، وكان هو نفسه يرجع هذه الحالة إلى أنه شخص مزاجي.

"نعم أنا رجل مزاجي جداً، لو قمت من النوم وشعرت أن سنة من أسناني تؤلمني أتعكنن فوراً ولا أريد رؤية أحد، نفس الشيء لو الدنيا أمطرت أو غابت الشمس، كل هذه الظروف تؤثر على حالتي النفسية، ولو أن شخصاً جاءني وقتها في عمل أقول له اتركني في حالي، رغم أن العقد الذي أرفضه قد يغير حياتي تغييراً شاملاً، لكن أنا فعلاً إنسان مزاجي، وهذه طبيعة المصريين عموماً بيلخبطوا الشغل والحياة والمزاج مع بعض".

هذه المزاجية كان يتعامل بها عمر طول الوقت وربما منحته جزءاً مهماً من جاذبيته وسحره والكاريزما الخاصة به، بالضبط كبريق عينيه الذي كان عمر يرفض الاعتراف بأنه يختص به ويقول: "كل المصريين في عينهم بريق"، أو كصوته الحزين النبرة والذي يشعر الآخرين بحزن وقلق وخوف غامض.

" هناك ناس كثيرون يتعاطفون معي بسبب حزن صوتي، أما الخوف فأنا لا أعرفه ولا يلعب أي دور في حياتي، بينما القلق طبيعي، فهو مرض العصر، وعموماً أنا راضي عن نفسي في أشياء وغير راضي عن نفسي في أشياء أخرى، مثلاً أكون راضياً في حياتي العامة لمساعدة الآخرين الذين يطلبون مساعدتي، وغير راضٍ عن حياتي الخاصة. كلها كانت مغامرات لا أكثر ولا أقل".

وظل متأرجحاً في حالته المزاجية التي تخلط الحياة بالعمل حتى قام ببطولة مسلسل (حنان وحنين - 2007) إخراج الراحلة إيناس بكر وكانت مديرة أعماله في مصر منذ أكثر من 25 عاماً وشاركت في كتابة السيناريو والحوار لأعماله (أيوب والأراجوز والمواطن مصري)، وأبرز ما في هذا المسلسل هو التماس بين عمر الشريف وبطل المسلسل الذي يعود إلى مصر بعد 30 سنة، لكن بطل المسلسل يعود بغرض رئيسي آخر غير الحنين للوطن وهو البحث عن حبيبته التي كانت قد سافرت خارج البلاد وتزوجت غيره، وبعد عودته يكتشف أن الكثير من الأمور قد تبدلّت في مصر، إلا الحب الذي بقي في انتظاره. تزامن بدء تصوير المسلسل مع عيد ميلاده الخامس والسبعين، وبعيداً عن التحفظات النقدية تجاه المسلسل وعدم استحسان النقاد له، إلا أنه كان بمثابة خطوة متحمسة لعمر الشريف ليواصل المشوار بعده بحماس أشد وبقوة المتشبث بممارسة دوره في لعبة الحياة..

"فكرة تقديمي لمسلسل تليفزيوني كانت موجودة منذ زمن ولكن السبب في دخولها إلى حيز التنفيذ هو صديقي الفنان أحمد رمزي، فمنذ فترة فوجئت به يخبرني بوجود عمل درامي تليفزيوني يصلح لأن نقدمه معاً، وقرأنا خمس حلقات منه، لكن لم يعجبني المسلسل فرفضته، في هذه الفترة كانت إيناس بكر قد اقترحت عليّ فكرة مسلسل (حنان وحنين) فأخبرت أحمد رمزي بها فوافق، وأنا من ناحيتي أحسست برغبة

شديدة في التواصل مع الشعب المصري من خلال عمل تلفزيوني أهديه اليه. فكلما حضرت في زيارة لمصر وعند لقائي بالناس في الشوارع والأماكن العامة يسألونني عن أسباب عدم تقديمي عملاً للتلفزيون المصري، مؤكدين اشتياقهم لرؤيتي في عمل درامي. وقد تأثرت بتلك المشاعر فاتخذت القرار بالموافقة على (حنان وحنين)".

كان هذا المسلسل أيضاً ورقة جديدة للتأكيد على صداقة عمر الشريف وفاتن حمامة التي ساعدته في اختيار الممثلين الذين شاركوه بطولة المسلسل، حتى أن سوسن بدر ومادلين طبر اتصلت كلاً منهما بفاتن حمامة لتوجيه الشكر لها لقيامها بترشيحهن للمشاركة فى المسلسل التليفزيونى، وكانت مادلين وسوسن عرفن بالصدفة من عمر الشريف أن فاتن حمامة هي التي اختارتهما للمسلسل، حيث قام عمر بعرض اسماء الممثلات عليها لعدم معرفته بالممثلين والممثلات المصريين بشكل كاف بسبب غيابه عن الساحة الفنية المصرية فأبدت تحمسها لسوسن ومادلين بينما تحفظت على أسماء أخرى تم استبعادها من المشاركة.

المغترب الذي يعود إلى وطنه قدمه فيلم (المسافر) بشكل آخر، فالفيلم الذي أنتجته وزارة الثقافة وأخرجه أحمد ماهر في أول تجربة روائية له عن سيناريو هو كاتبه أيضاً، وعاد من خلاله عمر الشريف بعد 14 عاماً من الغياب عن السينما المصرية

متحمساً حتى أنه تنازل عن جزء كبير من أجره لصالح الفيلم الذي خصصت له وزارة الثقافة المصرية ميزانية ضخمة لكن كانت المفاجأة حين رأينا عمر الشريف بصورة مناقضة لحماسه الأول للفيلم، حيث نفد صبره ولم يحتمل أن ينتظر قليلاً بعد ما شاهد عرض الفيلم لأول مرة في مهرجان فينيسيا، وخرج مطالباً بمنع عرضه وانفلتت الأمور منه أكثر فوصف (المسافر) بأنه فيلم زبالة وأن أحمد ماهر مخرج سيء وخالد النبوي أسوأ ممثل في العالم، الصدمة بدت قوية جداً ككارثة حطت على رأسه، حيث شاهد نفسه في الفيلم الذي يتجزأ على ثلاث مراحل يظهر هو في المرحلة الأخيرة منها والتي تدور أحداثها في القاهرة في العام 2001 بعد أحداث 11 سبتمبر، بينما المرحلة الأولى في مدينة بورسعيد عام 1948 بعد انتهاء حرب فلسطين ، والثانية في الاسكندرية 1973 أثناء حرب أكتوبر، وكل مرحلة يكون البطل هو حسن في مراحل عمرية مختلفة، شريف رمزي، خالد النبوي، ثم عمر الشريف الذي هاله ليس فقط أنه ظهر كأنه كومبارس كما صرح، لكن أيضاً وجد الفكرة مشتتة ولا رابط بين الأحداث وثرثرة بصرية بغرض الاستعراض أهدرت الفيلم وجعلت عمر لا يستطيع أن يتحكم في انفعالاته.

الفصل السابع
الغاضب

لما كان يتحدث عمر، فإما أن يشعر المستمع بالنضج والحكمة وخبرة السنين، وإما كان لا يجد أمامه سوى عجوز منفلت، نعم هو كان رجلاً غاضباً وعنده لوعة، ومثله كان يُذاع له سر وينتشر، فالصحافة كانت دائماً جاهزة لالتقاط كل تفاصيله، كان يمد ذراعه إلى الفضاء البعيد معتمداً على أحلامه وواثقاً أنها ستحنو عليه، يقترب ويبتعد ويثرثر ويصرخ كأنه يمنح الوجود إشارته على أنه لم يزل حياً، وفى مثل هذه الأحوال كانت تنشط عنده غدة الغضب كحالم عاجز، عيناه على السماء البعيدة وقدماه فى الأوحال، فلا ترتفع المعنويات ولا يمسه ولو فرح خفيف لأنه كان يشعر بألم الخذلان لنفسه قبل خذلان الآخرين له، مضى فى لعبة التواطؤ المهلكة وحيداً، كم من مرة ودّ أن يقول: "آسف"، لكنها كانت تُهدر عند حدود غلاظة الآخرين التي تبدل الأحوال إلى أسوأ، وصارت الكلمات التي أرادها مؤجلة

حتى تحولت الذاكرة إلى متحف مكدس لا أبواب مفتوحة فيها، فيما كان يسخر بينه وبين نفسه من هوس إصرارهم على وضعه محبوساً داخل إطار "اللامنتمي"، مع أنه بالرغم من تصوراتهم الضيقة كان الأكثر انتماءً ووفاءً وانخراطاً في الحياة.

الغضب هذا الانفعال الذي يزيد معدل ضربات القلب وضغط الدم، ومستويات الادرينالين ويغير تعبيرات الوجه، ولغة الجسد، كان يستبد به فجأة، فينال من هيبته، ليُقدِم على تصرّفات يعود ويندم عليها أحياناً. كالتعرض إلى شرطي أو صفع صحفية، لكن كل المقربون منه عرفوه دائماً يحمل قلب طفل ولم يفهموا أبداً سر نوبات غضبه سوى أنها من عوارض الشيخوخة.

"يصبح الإنسان مع العمر أقلّ تسامحاً وأكثر غضباً، أتساءل كيف يحصل ذلك إذْ كنتُ أتصور ونحن شباب أننا نصبح أكثر حكمة مع التقدم في العمر، لكن ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق، الشيوخ ليسوا حكماء، ذاك لأنهم ببساطة، لا يملكون الوقت لإضاعته".

الشخصية، كما يقول علماء النفس، هي السلوك والتفكير والانفعال والعادات والفلسفة الخاصة والاهتمامات وموقف الإنسان من الحياة، ولكل إنسان شخصية خاصة به، وعمر الشريف له شخصية واضحة وآسرة، فهو لم يكن فقط هذا

الفنان الوسيم الذي حملته رياح النجومية من الشرق إلى الغرب، لكنه أيضاً إنسان حقيقي من لحم ودم، له أخطائه وضعفه البشري ولم يدعِ أنه ملاكاً أو أنه معصوماً من الخطأ، والمقربون منه يعرفون أنه كالأطفال بريء في أفعاله وربما هذا ما كان يشفع أحياناً لعدائيته التي تظهر فجأة في مواقف معينة ولم يكن هو ذاته يتوقع أن تحدث، كما حدث في صيف العام 2003 داخل كازينو يقع في ضاحية "أونجين ليبان" شمال باريس، حين قام بالاعتداء على شرطي خلال تواجده في الكازينو، حيث قال الشهود العيان أن عمر الشريف كان يلعب الروليت وانتابته حالة من الغضب فقام بإهانة الموظف المسؤول عن إدارة اللعبة كما أهان أيضاً الشرطي الذي وصل للمكان في وقت لاحق وقام بالاعتداء عليه مستخدما رأسه، فتحول الأمر لساحة القضاء وأصدرت محكمة باريس العليا حكماً بتغريمه 1500 يورو والحبس لمدة شهر مع إيقاف التنفيذ.

وبعدها بعامين أي في العام 2005 ظهر اسمه مرة أخرى في ساحات القضاء حين أقام ضده عامل في جراج دعوى يتهمه فيها بالاعتداء عليه، حيث قال العامل واسمه "خوان أندرسون" بأن عمر الشريف غضب عندما لم يجد سيارته البورش بانتظاره لدى خروجه من أحد المطاعم الكبيرة في ضاحية بيفرلي هيلز، ولما لم يقبل أندرسون ورقة من فئة العشرين يورو من الشريف

بدلاً من الدولارات، نعته الأخير بـ"المكسيكي الغبي"، بحسب وكالة الأسوشيتد برس، وجاء في الدعوى التي قدمها عامل الجراج أن عمر الشريف كان في حينها عدائياً وأنه وجّه للعامل لكمة بعد نعته بتلك الأوصاف وطالب أندرسون، وهو من جواتيمالا، بمبلغ 50 ألف دولار كجزاء مدني، وأتعاب المحامي وتعويضات غير محددة، كما رفض أي علاج طبي جراء الاعتداء، ولم يكن يبدو عليه أنه مجروح، لم يعلق عمر حينذاك على ذلك وإن صرح محاميه مارتن سينجر، إن موكله لم يهاجم العامل، وقال: "موكلي تشاجر مع موظف في جراج السيارات ولم يلمسه، لو لم يكن مشهوراً لما كان هناك دعوى في الأساس". فأمرت المحكمة التي شهدت الدعوى الأمريكية بأن يخضع عمر الشريف لبرنامج علاج نفسي مدته 15 ساعة ووضعه تحت رقابة قضائية لمدة سنتين، حتى يمكنه السيطرة على حالات الغضب والانفعال التي تنتابه، ولم يحضر عمر الجلسة وقد مثله محاميه الذي قال إن موكله يعترف بالتهمة الموجهة إليه وهي الاعتداء بالضرب على شخص.

وتعددت الحوادث ومنها تلك الصحفية التي فاجأها الشريف بصفعة على وجهها، أثناء وجوده حضوره مهرجان "الدوحة ترايبيكا السينمائي الثالث" عام 2011، حيث اقتربت صحفية منه وكررت طلبها بالتقاط صورة معه عدة مرات، لينفد صبر الشريف ويصفعها أمام حشد من الصحفيين والمعجبين، وصاح

بها قائلا: "قلت لك أنني موافق على التصوير، بلاش إلحاح"، ثم بعد ذلك اقترب منها والتقط صورة معها.

الغريب أن عمر الشريف لم يعلق تقريباً على هذه الحوادث أو على نوبات الغضب والانفعال التي يتهم بها سوى بجملة عابرة تحمل معنى السخرية من نفسه حين قال "يبدو أنني أصبحت رجلاً عجوزاً"، هي جملة لا تعبر عن لف ودوران منه، فهذا ليس أسلوبه، وإنما هو اعتراف يدل على شخصيته الساخرة والقوية في آن، والمثير أن كلمة "شخصية" مصدرها لاتيني وتعني القناع، فقد كان بعض الممثلين على المسرح الإغريقي يرتدون أقنعة لتخفي عيوبهم الخلقية، وتحديداً كان أحدهم يعاني حولاً في عينه وكان يرتدي قناعاً ليخفي هذا الحول، وهو ما أثار حيرة علماء النفس وجعلهم يتساءلون: هل هذا يعني أن الشخصية هي القناع الخارجي الذي يرتديه الإنسان ليخفي الحقيقة الداخلية..؟ حقيقة ما يفكر فيه وما يشعر به وبالتالي يسلك سلوكاً مخالفاً لما يريده حقاً كنوع من التكيف، ولكن حتى إذا كان هذا أمر حقيقي اتفق عليه علماء النفس الذين لمحوا أن الازدواجية هي سمة الإنسان وأن خارجه لا ينم عن داخله، فإن عمر الشريف من الشخصيات الاستثنائية التي شذت عن هذه القاعدة، لأنه لم يجيد العمل بهذه الازدواجية في الواقع، لم يجيد ارتداء الأقنعة، فكان هو النجم العالمي الشهير الذي يصرخ

ويواجـه بحـدة مـن يعانـده، كمـا يجلـب على نفسـه المتاعـب بتصريحاته الصحفية التي لا تخلو من صراحة صادمة، حتى أن كل إطلالة جديدة له كانت تبدو كأنها فرصة لتصفية حسابات، لأن صراحة آرائه اللاذعة أدت إلى هذا الاستنتاج المباشر، خاصة حينما شنّ هجومه المعروف على الرئيس جمال عبد الناصر في مهرجان القاهرة السينمائي عام 2005، متهماً إياه بالتعامل مع الأمريكان فأثار عاصفة مضادة من الانتقادات، لم تهدأ إلا بعدما اعتـذر عمـا قالـه، وحـين قـام مـرّة أخـرى بتسـليط الضـوء على ثروات الفنانين، ووصف المال الذي يدرّه الفن بأنه "حرام" وذلك في تصريحاته المثيرة التي فجرها خلال لقاء مع الإعلامي المصرى طـارق حبيـب فى حلقـات مسـجلة حـول مشـوار حياتـه عرضـها التليفزيون المصرى بعنوان "تجربتي"، حيث قال أنه لا يحب المال على الإطلاق وليس لديه أدنى تعلق به مشيراً إلى أنه يعتبر منذ بداياته الأولى بالتمثيل أن "فلوس التمثيل حرام" وأن إنفاقها هو الحل الوحيد للتخلص منها حتى يستفيد بها آخرون هم فى حاجة أكثر إليها، وأضاف باللهجة العامية المصرية : "**يعنى إيه أمثل شوية وأخد كل الفلوس دي، مش ده حرام .. كنت أقنع نفسى دائماً أننى أحصل على هذا المال مقابل العمل كبلياتشو أمام الكاميرا لعدة ساعات وأنه رزق العمال وأصحاب المهن الذين أتعامل معهم**". هذه التصريحات جلبت له متاعب كثيرة، حيث

غضب منه زملائه الفنانين الذين اعتبروها تصريحات غير مسئولة واندهشوا أنها تصدر عن فنان كبير في قيمة وحجم عمر الشريف، وفي نفس الوقت واجه عمر هجوماً صحفياً جديداً انتقده واعتبره يقلب "المائدة" على الفن والفنانين في وقت غير مسموح فيه بذلك، وخصوصاً في ظل ردة ثقافية اجتاحت الشارع المصري كله وحرمت الفن وأدانت الفنانين بمناسبة وغير مناسبة، كما اتهموه بأنه يفعل ذلك على طريقة المهزومين الذين تخلت عنهم النجومية وانحسرت عنهم الأضواء فراحوا يقذفون الجميع بـ"الطوب والحجارة"، وعلى قدر قسوة هذا الاتهام وعنفه على قدر غضب عمر الشريف الذي رد عليه: **"لست مهزوماً، ولا أنا فاشل أعاني عقدة الاضطهاد أو أعاني من فشلي، وتاريخي الفني لن تمحيه كلمة جارحة أو جرة قلم"**، ثم أضاف أن تصريحاته جرى تحريفها لأسباب لا يعلمها، وأنه لم يقصد أبداً أن المال الذي يدرّه الفن حرام بل كل ما قاله، أنه مبذّر إلى أقصى الحدود ولا يعرف قيمة المال، وهو لا يستحق الأموال التي يتقاضاها من مهنة التمثيل، وأضاف أن العاملين في مجال التمثيل يكافئون بأجور طائلة من دون أن يضطروا لبذل مجهود كبير أكثر من حفظ حوار يكتبه أخرون ثم يؤدوه أمام الكاميرا، وأن هناك طاقات بشرية أفضل وأدمغة خلاقة لا تجد ثمناً للقمة العيش.

وهذا الاتجاه في الحياة اكتسبه الشريف بعد تجاربه المثيرة التي نحتت له درباً مختلفاً في الحياة ظهر حتى على ملامحه واختياراته، فهو كان رجلاً يحاول التوازن.

"كل إنسان معرض للهزيمة، وهذا ليس عيباً لأنها طبيعة الحياة،المهم كيف يتوقف سلوكه بعد ذلك على رصيده من الموضوعية، أي نضجه الفكري وكذلك نضجه الوجداني، فهذا النضج هو ما يجعله قادراً على المواجهة الصادقة مع نفسه، فيعلن فوراً عن إحساسه الحقيقي بالحياة وعن مسئوليته، لا عن تخاذل ومحاولة كسب تعاطف الآخرين، ولكن ليبدأ في إعادة حساباته والتعايش في الواقع الجديد".

هنا، كان كلام عمر الشريف مناسباً لشخصية رجل لا ينسحب من الميدان ولا ينفصل عن ذاته مهما كانت حدة الهجوم الذي خلق علاقة شائكة بينه وبين الصحفيين جعلته يفقد الثقة في الصحافة، لكنه في نفس الوقت لا يدخل في معارك ضارية معها، فقط هو يتحدث بحريته وصراحته التي لا يستوعبها الكثيرون فيواجهونه وهو يقف أمامهم ليقول بهدوء أنهم دائماً لا يفهمون المغزى الحقيقي من كلامه وينقلونه حسب تصوراتهم الخاطئة، ثم يبدأ يشرح المقصود من كلامه ويبرره، إنها لعبة اعتادها عمر الشريف وكان يجيدها كما كل الألعاب الأخرى التي

يحبها وكما الحياة نفسها التي تعامل معها منذ البداية على أنها لعبة كبيرة.

وهكذا فإن لعبة الشد والجذب بين عمر الشريف والصحافة أخذت أشكالاً مختلفة مع كل إطلالة فنية أو إعلامية له، وهي تبدو لينة في مرات قليلة، حيث تلقى تصريحاته أو تعليقاته استحساناً كما حدث مثلاً في مقابلة تلفزيونية على قناة الحياة أعرب خلالهاعن رأيه في الشعب الأمريكي وقال: من خلال خبرتي الطويلة وتعاملي مع الشعب الأمريكي اتضح لي أنهم شعب جهلة، وأغلبهم لا يمتلك جواز سفر، وأن من يمتلكون جواز سفر لا يتعدى عددهم 10 بالمئة فقط مما يعني أن 90 بالمئة منهم لم يغادر خارج أمريكا، ولا يعلموا شيئا عن دول العالم الأخرى، لدرجة أنهم لا يمكنهم أن يستدلوا بسهولة على مواقع الدول على خريطة العالم، لربما استطاعوا أن يميزوا إيطاليا كونها تشبه (الجزمة) على حد تعبيره.

وعلى عادته فجر مفاجأة صحفية من العيار الثقيل حين أفصح عن حديث دار بينه وبين الرئيس الأمريكي جورج بوش قبل دخول العراق، وقال: "لقد نصحته بعدم إقحام نفسه في هكذا أمور، لأن الدول العربية ليست بلاد، هي عبارة عن طوائف، ربما دولة مصر هي الوحيدة التي بها ما يسمى شعب،عدا ذلك فكل البلاد العربية عبارة عن طوائف هنا

وهناك لا تجدي معها الديمقراطية. وقلت له إنك ستغرق هناك ولن تستطيع فعل أي شيء ، لكنه لم يصدقني وقال لي يجب أن يكون هناك ديمقراطية. قلت له أي ديمقراطية تتحدث عنها. أنا عندما كنت أعيش في مصر، كنت ألجأ إلى شيخ الحارة ليحل لي أي مشكلة تواجهني".

واستمرت اللعبة بين عمر الشريف والصحافة، كلاً منهما في مواجهة الآخر يترصد ويترقب حتى تحين الضربة الحاسمة، ورغم شغف عمر باللعبة إلا أنه كان لا يخجل أحياناً حين يعلن عن تعبه منها وخاصة عندما تأتي ضربة الصحافة موجعة بل وجارحة على غير المتوقع، وهو ما تذكره عمر دائماً خصوصاً عندما رشح كرئيس لمهرجان القاهرة السينمائي الدولي وطالب بنقل مكان المهرجان إلى إحدى المدن السياحية وقال حينها أنه يؤيد نقل المهرجان "حتى ولو عقد في طابا السياحية وجاء اليهود لحضوره". فلما احتد الهجوم عليه قال: "صيغة المبالغة هذه فهمت من قبل البعض بأنني تطبيعي وأنني أدعو إلى العلاقة مع اسرائيل وإلى غير ذلك وأبعد، رغم أن قصدي كان واضحاً تماماً في ضرورة نقل مكان انعقاد المهرجان".

الفصل الثامن

المتسامح

بين مد وجز، بين النوارس والأصداف، اسكندرية يا مدينة تبدأ فينا وتنتهي. ظلت جملة لورانس داريل تلح على رأسي كأنها تكشط الملح البحري عن جدران البيوت التي تصطدم بها عيني حين خانني السؤال وألحت عليّ فكرة الهروب من هذا الرجل الذي بدا لي أنه كان يمتحن زهده في مملكته التي صنعها في السماء، حضر إلى الاسكندرية ويمم وجهه شطر ذكرياته الأولى في مفارقة غريبة تشبهه تماماً، حيث كانت الاسكندرية هي محطته الرئيسية في تصوير فيلمه (حسن ومرقص) الذي قدم صورة مباشرة للتسامح الديني في مصر، كل ما أوتي به عمر من تسامح كان من هنا، حيث وجد نفسه ممتلئاً بالآخر في هذه المدينة العامرة بما يكفي لجمع الأضداد، هذا هو سر الاسكندرية التي يدور فقراؤها وأغنياؤها في دائرة هشة انسجم فيها عمر طفلاً وصبياً واشتد به لوع الحنين لما كبر، ابتعد كثيراً وجرى في

الاتجاه الآخر يثقب في الأرض عن سواها، وفي كل مرة يعود يطويه البحر ويدنيه من روحه، فلا تكن عودته هي عودة الابن الضال؛ خالي الوفاض، لكنها عودة بعالم حقيقي يعادل ذكرياته وسنين شقّها على مفارق طرق، وعلى هذا الأساس جاءت مشاركته في فيلم (حسن ومرقص) بمعنى عاطفي وثقافي، وليس على طريقة عادل إمام الذي وصفها بأنها ضرورية: "لأنها ليست فقط فرصة للوقوف أمام نجم عالمي وإنما أيضاً أمام فنان شُتِم كثيراً مثلما شُتِمت أنا"، كانت عيناه تتلفت على شيء ما في أوقات الراحة من التصوير، فيسير قليلاً بمفرده على كورنيش البحر دون أن يستمع إلى نصيحة الذين معه ألا يفعل ذلك حتى لا يتعرض لمضايقات وتحرش المارة، قالوا له: أنت نجم كبير والناس سيلتفون حولك ويضايقونك، لكنه مشى على الكورنيش محاولاً التواصل مع الناس ومستعيداً الكثير من الذكريات.

"أحب هذه المدينة التي ولدت وعشت فيها أجمل سنوات عمري، حتى أنني كنت أحرص على مدى السنوات الماضية أثناء زياراتي المتكررة لمصر على المجيء إلى الاسكندرية وقضاء بعض الوقت فيها، وعندما حضرت إليها لتصوير هذا الفيلم شعرت بحنين غريب ورغبة قوية في المشي على كورنيش البحر لعشقي لرياضة المشي أولاً، وثانياً لأني أردت أن أنفرد بنفسي مع البحر قليلاً بعيداً عن ضجة التصوير وصحبة العمل،

كانت الناس تصافحني وترحب بي وتتركني أمضي إلى حال سبيلي دون أي مضايقات، واعترف أنني على مدى عمري كنت أحب الشعب المصري، وهذا ماعلمته لأحفادي منذ نعومة أظفارهم، ليكونوا هم أيضاً مصريين وطيبين ومتسامحين، عندما طلبت منهم أن يحبوا الناس جميعاً وألا يكرهوا شخصاً لكونه أبيض أو أسود أو لكونه مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً، وفي الحقيقة قلت لهم إن من حقهم كراهية الأشرار فقط".

هي نصيحة تبدو عادية من جَد حرص على أن يكون أحفاده بشر طبيعيين ومُعافين لا يعانون من أمراض الكراهية والعنف الخبيثة، لكنها كانت أيضاً محور الفكرة الرئيسية لفيلم (حسن ومرقص) الذي شارك عمر الشريف في بطولته مع عادل إمام، وقدما سوياً دعوة للتسامح والتعايش السلمي في مجتمع المفروض أن يكون آمناً لا ينظر إلى أفراده على أساس عرق أو دين، خصوصاً في لحظة فارقة كالتي تم فيها تصوير الفيلم حيث كانت البلاد على شفا فتنة طائفية تطل برأسها من حين لآخر في سنوات الاشتعال الخامد، ربما نظر البعض إلى (حسن ومرقص) كفيلم كوميدي لا أكثر ولا أقل، لكن بصرف النظر عن تقييمه الفني أو التنظير النقدي حوله، إلا أنه استطاع أن يكون محوراً للجدل سواء على الساحة الفنية أو الشعبية في مصر، فقد استغل الكوميديا ليدعو من خلالها إلى الوحدة الوطنية بين

الأقباط والمسلمين، وهو ما أثار ضجة كبرى حول جدوى ظهور فيلم في ذلك الوقت ليحرص على الدعوة المباشرة للتسامح والتشبث بشعار "الدين لله والوطن للجميع"، هل هو تعبير عن أزمة حقيقية في مجتمع عصفت به التغيرات، وخبأت في خفاياه فتنة ما ينبه إليها الفيلم؟ هل هذه الفتنة الخفية تحت السطح ضيعت الملامح الأصلية للمجتمع، فلم يعد هو ذاته الذي سبق أن قبل (حسن ومرقص وكوهين) و(فاطمة وماريكا وراشيل) و(الراهبة) و(شفيقة القبطية) وغيرهم، بل صار هو الرافض أو الذي ينظر بارتياب لـ(حسن ومرقص) الجديد؟.. سؤال طرحه النقاش العاصف حول الفيلم الذي تناول في قالبه كوميدي قضية الارتقاء بالعلاقات الإنسانية المتجذرة وتحديداً بين المسلمين والمسيحيين، في محاولة للإضاءة على هذا التناغم التاريخي الأصيل بين عنصري الأمة. قدم الفيلم الشريكان، المسلم والمسيحي، نموذجان متسامحان يتواجهان ويواجهان معاً عداءً شديداً من المتطرفين في كلا الجانبين، فتوحدهما الأخطار وتربطهما الأقدار، وهو الملمح الأول الذي نعثر عليه بداية من الأفيش الذي يصور الاثنين في قيد واحد ينظران أمامهما في ذهول كأنهما يحاولان استكشاف المصير المجهول. دعا (حسن ومرقص) إلى التسامح وقدمه في صورة شاعرية تتفجر فيها نوستالجيا جارفة إلى علاقات متسامحة يعيشها الجميع بهدوء،

مثلما كانت في الزمن القديم الجميل، زمن ليلى مراد ونجيب الريحاني وأنور وجدي، كما أشار إليه الفيلم في ملمح عابر ومقصود بمشاهد من فيلم (غزل البنات) كتحية لهذا الزمن الجميل الذي رسمت فيه السينما المصرية صورة لمصر المتسامحة التي جمعت بين المسلم والمسيحي واليهودي.

عمر الشريف في الفيلم كان الشيخ محمود صاحب متجر العطارة والحريص على إقامة الصلاة بل وإمامة المصلين في المسجد، والرافض لفكرة التعصب الديني كما فعل شقيقه الذي ارتمى في أحضان التطرف حتى صار أميراً لإحدى جماعاته (أنا راجل مؤمن وعارف ربنا، وبأصلي فروضه وبأصوم، إنما أنا ماحبش يكون لي انتماء لجماعة دينية)، وهو ماعرض حياته للخطر مع زوجته وابنته، خاصة بعد ما فجر المتطرفون متجره، والمسيحي هو بولس (عادل إمام) أستاذ اللاهوت الذي يتشبث بدينه وهو أيضاً رافض للتعصب (نشكر الرب الذي منحنا هذا البلد الآمن لنعيش فيه جنباً إلى جنب متاحبين متآخين مسيحيين ومسلمين)، معارضاً المتطرفين المسيحيين (إن بعض المسيحيين الذين يثيرون الفتن والضغائن بين عنصري الأمة ليسوا مسيحيين وليسوا مصريين وإنما هم أعداء الكنيسة وأعداء الوطن)، جرأة بولس في الإعلان عن موقفه تعرضه مع زوجته وابنه لتهديدات بالموت بدأت بتفجير سيارته، لم يتعمق

الفيلم في جذور الأزمة، وقدمها بخفة وسخرية من أوضاع ملتبسة تسرق من عمر الوطن كما تسرق من عمر أبنائه الذين يعجزون عن العيش وبالتالي عن إقامة حوار جدّي، وهو ما جعل محمود وبولس يهربان بعد أن منحهما رجال الأمن اسماً آخر!! فصار بولس هو الشيخ "حسن العطار"، وأصبح محمود هو "مرقص" العائد من أمريكا بعد غياب 20 سنة. تبادلا الأدوار وهربا داخل الوطن، من العباسية إلى المنيا، ومن الهرم إلى شبرا ثم إلى الاسكندرية في النهاية، حيث التقيا في رحلة هروبهما وعاشا سوياً وهما لا يعرفان هوية بعضهما، وحين اكتشفاها انفصلا في حسرة، في نفس اللحظة التي بدأت فيها بوادر فتنة طائفية في الشوارع، حيث اشتبك المسلمون والمسيحيون بعنف، هذا العنف المخيف هو الذي جمع محمود وبولس مرة أخرى فمد كلاً منهما ذراعه نحو الآخر والدموع تملأ عينيهما ويسيران مع عائلتهما متشابكي الأيدي وسط العنف والهياج والتعصب، كل منهما تلقى ضربة عنيفة على خده، لكنهما استمرا في السير وحاولا الخروج من دائرة هذا العنف الأعمى، في إشارة إلى أنهما سيظلان معاً في هذا الوطن مهما كانت الأخطار التي تحيطهما. وهو اختيار حدده الفيلم قبل ثورة 25 يناير بثلاث سنوات تقريباً وقبل أن تصبح الدائرة فيما بعد أضيق من ثقب إبرة في ظل حكم ديني جر البلاد إلى دماء طائشة وأرواح مهدورة في عمليات قتل عبثية

وجراح، انتهى الحكم الديني ولا أحد يعلم ما الذي ستمطره سماء التطرف بعد قليل.

أعد عمر الشريف نفسه لهذا الدور بأن حفظ القرآن وأحضر أشرطة برنامج أحاديث الشيخ الشعراوي وشاهدها، بينما ذهب عادل إلى الكنائس وتابع عادات وطقوس رجال الدين المسيحي، ولم يغضب عمر من مساحة دوره الأقل من مساحة دور عادل، أو من ترتيب الأسماء على أفيش الفيلم، بل مازح عادل في المؤتمر الصحفي للفيلم وقال: **"عادل يقدمني كأنني وجه جديد ولست عاملاً في المجال منذ 54 عاماً"**.

عادل إمام ابن ثورة يوليو الذي صنعته الثورة بكل أحلامها الكثيرة، والمعروف بموقفه السياسي ضد التطرف الديني في أفلامه، كما أنه سافر بفرقته المسرحية إلى أسيوط - قلب التطرف الديني- في بداية التسعينيات، متحدياً جماعات التطرف الديني المسلحة، وعمر الشريف ابن الاسكندرية مدينته ومدينة الآخر، المثال الأبرز للتعددية في مصر التي لم تكن تهتم بديانة فنان مثل توجو مزراحي المخرج والمونتير والسيناريست والمنتج وصاحب الاستوديوهات اليهودي، صانع أفلام علي الكسار وأفلام أم كلثوم - جعلها ترتل القرآن في فيلم سلاّمة - أو بديانة منتجة مغامرة مثل آسيا، ولا بدين ينتمي إليه النجوم الذين ساهموا في تشكيل وتلوين أحلامنا مثل ليلى مراد وكاميليا ونجوى سالم

ونجيب الريحاني وماري منيب واستيفان روستي وإلياس مؤدب وحتى الموسيقار داود حسني وغيرهم كثيرون من فنانين كان الجمهور العادي لا يعرف ديانتهم المسيحية أو اليهودية، ولا يأبه لذلك، إلا بالصدفة.

رغم السنوات الطويلة التي فصلته عن هذه الأجواء العاطفية في حياته الماضية، لكن هذه الحياة التي شكلت وجدانه ظلت بالنسبة لعمر مثل الحائط الذي يستند عليه ويحميه في لحظات الضعف أو الذي يرمي عليه بطابات الإحباط والسعادة، فيشعر باطمئنان أشبه بالمعجزة وإن كان لم يحتاج للمبالغة في التعبير عن شعوره لأنه كان يرى ذلك تلخيصاً للانتماء وأن الانتماء ليس وجهة نظر مطروحة للمناقشة أو تجميع الأصوات لدعمها، كان يراه حقيقة لا يعوزها البحث عن مبرر أو امتحان، وإن سأله أحد كيف ظل على سجيته طوال هذه السنوات بالرغم من الشهرة والنجومية التي قد تصيب البعض بجنون العظمة، كان يرمق السائل بطرف ساخر ويقول: **أنا بشر.**

والسيد إبراهيم في فيلم (مسيو إبراهيم وزهور القرآن) كان بشراً، من الرعاة الطيبين لآدميتهم ولآيات الذكر الحكيم التي علمته السماحة والعبور على متاريس الخوف والكراهية ونبذ الآخرين، في وجهه شيء يختلط مع ملامح عمر الشريف نفسه بحيث يكون من الصعب الفصل بينهما عند مشاهدة الفيلم

الذي قدم شخصية هي الأقرب لشخصية الشريف في الواقع، ذلك البسيط الذي لا يتباهى بما يمتلكه، والمتسامح الذي لديه الوقت للتأمل وإعادة صياغة الأحداث من حوله وضبط الخلل فيها حسب استطاعته، عمر الشريف هو الوجه الآخر لهذا السيد "إبراهيم" كما قدمه الفيلم المأخوذ عن رواية بنفس الاسم للكاتب إريك إيمانويل شميت الذي أطلق عليه في فرنسا لقب «الفيلسوف الشعبي» أو «ديدور القرن الحادي والعشرين»، حيث يتميز بالقدرة على الخوض في القضايا الكبرى بشكل بسيط ولغة قريبة من المواطن العادي، وله مقولته الشهيرة التي تدل عليه: "دراستي الفلسفة مكنتني من سبر أغوار النفس البشرية، والتحقق من بواطن الأمور وجوانياتها؛ وبالتالي دفعتني الفلسفة إلى إدراك الجوهر الحقيقي للأديان، فوقفتُ على عظمة الإسلام، وفهمتُ أنه دين العدالة والتسامح". والفيلم من إخراج الفرنسي "فرانسوا دوبيرون"، منتمياً لزمن الستينيات في مكان ما بوسط باريس وفي أحد أحيائها الفقيرة، رجل صوفي عجوز حكيم أصله تركي مسلم، يراقب العالم من وراء الرفوف المليئة بالمعلبات في متجر البقالة الذي يمتلكه وينادونه في الحي بـ"العربي" لمجرد أنه مسلم، ومتجره كان يقع على ناصية شارع فيه عمارة يسكن في أحد شققها المتواضعة "مومو" أو موسى الصبي اليهودي المراهق لأب مهمل وقاسي ومكتئب وسكير، إبراهيم العجوز ومومو الصبي

طرفي معادلة متأرجحة بين الدين والظروف الاجتماعية الصعبة، والسماحة هي رمانة الميزان أو الثقل الذي يضبط هذه المعادلة، اعتاد مومو أن يأتي لمتجر العم ابراهيم يومياً لشراء احتياجات المنزل، وكان في كل مرة وعند خروجه من المحل يغافل العم ابراهيم ويسرق قطعة من الحلوى. في يوم ما، نسي مومو أن يأخذ قطعة الحلوى عند خروجه فنادى عليه العم ابراهيم، وأخبره أنه نسي أن يأخذ قطعة الحلوى التي يأخذها يومياً ذهل مومو، لأنه كان يظن أن العم إبراهيم لا يعلم عن سرقته شيئاً، وأخذ يناشد العم أن يسامحه، وأخذ يعده بأن لا يسرق مرة أخرى، فقال له العم إبراهيم: لا، بل تعدني بأن لا تسرق أي شيء في حياتك، وكل يوم عند خروجك من محلي، خذ قطعة الحلوى فهي لك. وأصبح العم إبراهيم المسلم بمثابة الأب للصبي مومو اليهودي، ثم قام بتبنيه بعد تصاعد في الأحداث ركز على التماهي بين الشيخ والصبي وعلاقة اتسعت بأجواء روحية تأكدت لما أخذ ابراهيم ابنه المتبنى إلى بلده في تركيا ويتعرف معه على صور مختلفة للأديان الثلاثة ويشهد معه رقص الدراويش والمولوية ويعلمه كيف ينمي حواسه ويُعمل قلبه لتسكنه المحبة ولا يترك فرصة للكراهية أن تتسلل إليه، وحين يموت السيد ابراهيم يكون قد ترك له متجر البقالة والمصحف الخاص به الذي فتحه فوجد فيه زهوراً بين صفحاته، والأهم تركه هو

شخصياً إنساناً آخر تغير كلياً حتى عندما زارته أمه لما كبر وسألته: ما اسمك؟ أجابها: محمد.

نال عمر الشريف جائزة "سيزار" للعام 2003، عن الفيلم وقال عنه في المؤتمر الصحفي إبان إفتتاح عرضه: "**عليّ القول أنه بالنسبة لي فهذا الفيلم ليس دينياً أو حتى سياسياً. ما أحببته فيه أنه قصة حب. فيلم عن البشر، إنه فيلم عن التسامح.. الشيء الوحيد الذي أريده أن يصبح الناس أسعد قليلاً، وأطيب قليلاً عندما يخرجون من الفيلم**".

السعادة والطيبة هو ما تمنى ورغب فيهما عمر الشريف للناس والجمهور من فيلم يدعو إلى قيمة التسامح ويقدمها في صورة شاعرية تختلط فيها نوستالجيا جارفة إلى علاقات متسامحة يعيشها الجميع بهدوء، لعلها صدفة أن يعود عمر الشريف إلى السينما بهذا الفيلم الفرنسي بعد أن كان قد انتابه نوعاً من الزهد في العمل ولكنه أحب رسالة الفيلم ورأى أن الوقت مناسب للمشاركة لأنه كما قال: "**يظهر أن بإمكاننا أن نحب بعضنا البعض رغم انتمائنا إلى أعراق وأديان مختلفة، أردنا أن نُظهر أنه يمكن التحاور بين الأديان، ويمكن توظيف الدين ليس من أجل شن الحروب فحسب، إنما من أجل الحب أيضاً. لا يجدر بنا تصنيف الناس حسب ألوان بشراتهم**

ومواطنهم، بل يجب أن نفهم الأشخاص ونجد الجوانب الطيبة في كل منهم".

جلب له هذا الفيلم الحظ السعيد وحصل عمر الشريف على جائزة التسامح من مهرجان البندقية في العام 2005 عن هذا الفيلم، وهي الجائزة التي قال عنها عمر: "اخترعوا جائزة عشاني مخصوص.. يعني مش جائزة تمثيل إنما جائزة القبول بالآخر"، كما كرمه مهرجان البندقية أيضاً وفي نفس العام بمنحه جائزة الأسد الذهبي عن مجمل أعماله في احتفال خاص وقال عن هذا التكريم: "ذلك هو عامي الخمسين على احتراف التمثيل. هذا في حد ذاته يستحق جائزة... أن استمر لخمسين عاماً"، وأضاف: "لا يوجد أجمل من أن يشعر الإنسان، أي إنسان، ولا أقول الفنان فقط بتكريمه وهو على قيد الحياة وبهذا الشكل". بل أن مورتيز دي هاديلن، مدير مهرجان البندقية قال وهو يسلمه الجائزة: "لا يسعني أن أعبر عن مدى فخري بتقديم الجائزة لعمر الشريف.. إنه رمز لرجل كان دوماً في صف الحوار بين الأديان".

فيلم التسامح والمحبة جلب لرجل التسامح السعادة والمزيد من الجوائز، حيث منحت له جائزة سيزار افضل ممثل في باريس على دوره في (السيد ابراهيم وزهور القرآن)، في نفس العام الذي فاز فيه فيلم (الغزوات الهمجية) للمخرج الفرنسي الكندي

دينيس أركاند بجائزة أحسن فيلم خلال حفل توزيع جوائز سيزار التي تقدمها الأكاديمية الفرنسية للفنون والتقنيات والسينما والذي يروي الفيلم محاولات أستاذ جامعي يساري وهو على فراش الموت المصالحة مع ابنه التاجر في بورصة الأوراق المالية. كما حصل فيلم (النهر الغامض) لكلينت استوود على جائزة سيزار لأحسن فيلم أجنبي وفاز فيلم (وداعاً لينين) لوولفجانج بيكر على جائزة أحسن فيلم.

بل كان الفيلم تميمة حظه فعلياً وأوصلته للحصول على ميدالية "التنوع الثقافي والحوار بين الشعوب"، وهي ميدالية كانت قد استحدثتها اليونسكو، وحملت اسم المخرج السينمائي الروسي الكبير سيرجيه آيزنشتاين وصورة منحوتة له.. ولحظة حصوله عليها قال له كويشيرو ماتسورا المدير العام لمنظمة اليونسكو: "إنكم إحدى الشخصيات التي تتمتع بأعلى درجات التقدير في السينما العالمية، والتي تعشقها جميع الجماهير.. إن الجانب البشري هو الذي يطغى على جميع الشخصيات التي أديتها.. كما أنك ورثت بنفسك ثقافات عدة: السورية واللبنانية والمصرية، ثم تبنيت الغرب من دون نسيان جذورك.. تجسّد بالأخص، في جوانب عدة، بدءاً من الأصول والمنشأ، ووصولاً إلى قصة حياتك، التعبير عن هذه التعددية الثقافية، التي تمثل ثروة لا تقدّر بثمن، من أجل الحوار بين الشعوب.". استمع إليه

عمر الشريف والتمعت عيناه بالدموع ثم اكتفى بالقول: "إنها أجمل شيء كان يمكن أن يقدمِ إليّ.. إذ أن هذه الميدالية تمثل كل ما أؤمن به".

كما حصل في واشنطن عام 2006 على جائزة أخرى من اللجنة العربية الأمريكية لمكافحة التميز، كشخص وفنان له دوره في مكافحة التميز، وهي من الجوائز التي حصل عنها عمر الشريف بعيداً عن الجوائز السينمائية أو جوائز التمثيل، لكنه أسعدته أكثر فقال: "دي جائزة عربية مش أمريكية. يعني هم إخواننا العرب اللي هم عايشين متأقلمين في أمريكا هم اللي يقدموا التشريف ده، وده بالنسبة لي مهم أوي أهم من جوائز السينما وجوائز التمثيل وجوائز الأفلام، دي جوائز بتيجي من قلب الناس، أنا بحبهم وهم يحبوني، أنا بحب العرب والعرب يحبوني الحمد لله. أسعد أيام حياتي لما بكون قاعد وحولي ناس يعني أعرف أخاطبهم وأعرف أهاليهم شكلهم إيه ما اعرفهمش شخصياً، لكن إحنا أهالينا كلهم زي بعض، يعني إحنا العائلة بالنسبة لنا بالنسبة للعرب شيء مهم جداً، يعني مثلاً أنا والدي ووالدتي عمرهم ما اتطلقوا، عاشوا طول عمرهم مع بعض، ربوني وحبوني وحبوا أختي أنا أتضايق أن نسمع إنه فيه سمعة لنا في أمريكا أو بلاد برة سمعة سيئة، ومن زمان أقول لازم نعمل جمعية، حتى كنت اقترحت أنا على

أصدقاء سعوديين زمان أو ناس من الخليج إنهم يشتروا محطة تلفزيون مثلاً يشتروا "سي إن إن" أو يشتروا "إيه بي سي"، بل نصرف على حاجات ثانية ممكن أوي نصرف نشتري، أولاً دي مش راح تخسر فلوس، وثاني حاجة يبقى عندنا مش عايز دعاية لنا، يكون صوت نقدر نتكلم".

وظل عمر ممتناً لهذا الفيلم ويذكره كثيراً ليكرس فكرته في الواقع:" أنا ما بفرقش بين الناس لا بأديانهم ولا بجنسياتهم مش مهم، الإنسان إنسان يا إما يكون الإنسان طيب يا إما مش إنسان طيب، مش مهم إنه الولد يهودي والراجل مسلم.. هم الاثنين وحدانيين في العالم، راجل كبير في السن ما عندوش حد وطفل صغير ما عندوش حد، تتبناه وبعدين كل ما اسأله على حاجة يقوله أنا اعرف بس بالقرآن بتاعي والولد اسمه مويس يعني موسى، قال له هو أنا بس مويس دي صعبة على لساني دي رح أسميك مومو، وفي الآخر بتيجي والدته اللي كانت سابته آخر مشهد في الفيلم، هو كبر وأنا مت وسبت له البقالة بتاعتي والقرآن بتاعي، وبعدين تيجي تقوله والدته تقوله مش أنت مويس قال لها لأ أنا اسمي محمد، يعني انتمى للإسلام في النهاية طيب فيه أحسن من كدة".

حمل (السيد ابراهيم وزهور القرآن) معاني التسامح والانفتاح التي تماست مع ابن الاسكندرية والأفق المفتوح،

الاسكندرية التي قال عنها عالم النفس اليهودي جاك حسون (وهو واحد من أبناء الأسكندرية) :" من يغادر الاسكندرية لا يغادر الاسكندرية أبداً"، وذلك حين اضطر إلى مغادرتها مثل الكثيرون من اليهود بعد عام 1956 ضحية لإرهاب وغطرسة دولة اسرائيل التي راح مناصريها يهددون الحياة في الاسكندرية والقاهرة بتفجيرات إرهابية، ورد في كتاب ابراهيم عبدالمجيد (غواية الاسكندرية.. ماوراء الكتابة)، أن حسون اختار مثل الكثيرين من المستنيرين ألا يذهب إلى اسرائيل وعاش في باريس يعمل ويكتب كتاباً جميلاً عن المدينة التي لم يشعر أبداً بالاغتراب إلا حين ابتعد عنها..

واجه عمر الشريف طوال الوقت عاصفة استفهامية عن ديانته:"مسلم ولا مسيحي ولا يهودي؟" سؤال الالتباس حول ديانته التي لا يعلمها الكثيرون، فقط يعرفون أنه أشهر إسلامه في الخمسينيات من أجل الزواج بنجمتهم المحبوبة فاتن حمامة، وكان عمر الشريف غالباً ما يستقبل هذا السؤال وهو يرد بنبرة تهكمية تسيطر على صوته ويقول: **لا أدري ما الغرض من هذا السؤال؟**.. لعل السؤال كان يستفزه لأنه ضد قناعاته بضرورة التسامح والنظر إلى جوهر الأشياء وليس إلى مظهرها الخارجي لأنه على حد تعبيره **"المظاهر تكون خادعة"**، لكن من الواضح أنه تعامل مع التسامح على أساس أنه ثقافة اكتسبها من مجتمعه

الذي ضم بين جوانحه جميع الأديان في سلام، ومن خبرة سنواته الطويلة التي أكسبته نضجاً بيناً، ومن أسرته المسيحية التي تقبلته بعدما صار المسلم اختيارا.. تركيبة فريدة لشخصية قدر لها أن تنعم بجنة التميز في مجتمع ظلت شخصياته إلى وقت ليس ببعيد حسب نظريات العلوم السياسية تتمتع بصفات المواطن الجيد ومن أبرزها صفة التسامح، وبالتالي فإن نزعة التسامح التي انسحبت بوضوح عليه لم تكن صدفة أو وليدة يوم وليلة، بل هي نتاج التجربة والتعايش في فضاء إنساني سمح لها بالنمو والإثمار. يقول عمر: "التسامح يحتاج مايعززه، كأرضية مناسبة نستطيع التحرك عليها وتمنحنا حق التعبير وحق الاختلاف والتحلي بالقدرة على الاستماع للرأي الآخر.. باختصار تحتاج مساحة حرية تضمن أن يتحقق عليها التسامح الذي نادت به كل الأديان". ويضيف: "الإسلام نفسه كان عنواناً بارزاً للتسامح ولديه تصورات كثيرة لتحقيقه، ومن يتوغل في الدين الإسلامي سيفهم ذلك وسيجد أنه يؤسس لهذ التسامح ويرفض التعصب وينادي بالحب لا الكراهية، بالحوار لا الصدام، بالرفق لا العنف، بالرحمة لا القسوة، بالسلام لا الحرب".

وبالرغم من كل ذلك كان يباغته السؤال: إنت مسلم؟.. وهو يجيب: "نعم.. وأنا سعيد أنني مسلم ولي علاقتي الخاصة بربنا..

كتير باكلمه وبطلب سماحه ومساعدته وعارف انه جاني بيحميني وبيوريني طريقي عشان ما اعملش الغلط.. وبعدين أنا راجل عمري ما كذبت في حياتي، عمري ما آذيت حد في حياتي كلها، وطول عمري اللي بيؤذوني بسامحهم، كل ده أنا يعني اعتقد أنه حصل لأن ربنا جني وعلمني كدة".

بساطة عمر في التعبير عن إيمانه لم تدل سوى على تلقائيته وفهمه لفكرة الأديان والتقرب إلى الله، وربما هذه البساطة التي يتحدث بها هي نفسها التي جلبت عليه من حين لآخر هجوماً عنيفاً بسبب الالتباس غالباً في فهم ما يريد الإفصاح عنه، بالضبط كما حدث في العام 2005 حين أدلى بحوار صحفي لصحيفة "الجارديان" البريطانية وقال: "أنا أؤمن بكل شيء ولا شيء لأن أول شيء تعلمته كان أن الله هو العدالة لكني لا أرى عدالة في هذا العالم!".. وهو ما أثار العديد من الأقلام العربية ضده، حيث انفتحت أبواب الجدل حول ديانته وسلوكياته وفضائحه، على حد تعبير الذين هاجموه واعتبروا أن لا حق له في الحديث عن الإيمان أو عن الله، وحتى أنهم رفعوا عنه صفة المسلم وقالوا هو يهودي الأصل فلا داعي للتمسح بالإسلام.

الهجوم كان عنيفاً لدرجة جعلته حزيناً ومستاءً لأنه لم يفهم سوى أن هذا العنف الذي واجهه كان عنفاً غير مبرر ولا معنى أو داعي له، لأنه حسب قوله صادر عن ناس لا يفهمونه وليس

لديهم حتى الاستعداد لذلك كما يبدو، ومع ذلك فإن الهجوم على عمر الشريف حينذاك قابله دفاعاً عن مسيرة فنان عربي صار أيقونة للفن العربي في سماء العالمية، حتى أن الجدل حول شخصية عمر الشريف وهويته الدينية وتصريحاته في هذه المرحلة قد طال الفضاء الإليكتروني وصنع حالة من الشد والجذب بين جمهور شبكة الانترنت، فعلى سبيل المثال حين كتب الكاتب اللبناني "شربل بعيني" كاشفاً عن الأصل المسيحي واللبناني للشريف، وقال أن الترويج لأصله اليهودي ربما يكون قد ارتبط بفترة وجوده في هوليوود التي يسيطر عليها اليهود، وقال: من حق فناننا الكبير عمر الشريف التنقل بين الأديان كما يتنقل من بلد لآخر، ومن حقّه أن يختار المذهب الذي يريد وساعة يريد، فحرية الإنسان لا تصادر، لا باسم السياسة ولا باسم الدين، فلقد خلقنا الله أحراراً، عقولنا تسيّرنا وتخيرنا بغية الحفاظ على وجودنا واستمراريتنا. ولكن من حقنا أيضاً أن نعرف الحقيقة، لا أن نذر فوقها ادعاءات فارغة لا صحة لها.. ثم أضاف: عمر الشريف وجه أمتنا العربية الحضارية، مسيحياً كان أم مسلماً أم يهودياً، وأحد أيقوناتنا الفنية التي بها نفخر، فبدلاً من أن نرهبه، وجب علينا تكريمه وتشجيعه، لأن الأمة التي لا تكرّم الفنان، لن يكرّمها أحد.

وهو ما لاقى قبولاً لجماهير الشبكة العنكبوتية فتجاوبوا مع المشكلة واعتبروها قضية تستحق الرد، فجاءت تعليقاتهم رداً على ماكتبه شربل بعيني تعبر عن ذلك، وهي التعليقات التي تناقلتها مواقع كثيرة على الإنترنت خصصت مساحة لعمر الشريف، وهذا بعض منها؛ فمثلاً قال الصحفي الليبي فاضل المسعودي :

ما تعرض له الفنان المصري العالمي عمر الشريف شيء مؤسف. وقد نشرت فى مجلة (الميدان الدولية) للأسف ثلاث مقالات لكاتب مصرى محترم لم أراجعها جيداً قبل النشر، وعندما اكتشفت ما فى وجهة نظر الكاتب من تحامل واصرار على التقليل من شأن عمر الشريف أوقفت نشر بقية المقالات . ومن غرائب الصدف أننى التقيت سنة 1951 بالشاب عمر الشريف فى مكتب والده السيد شلهوب بعمارته في شارع سليمان بك نجيب بالعتبة، عندما كنا ننهي معه تأجير شقة فى العمارة لنستعملها كمقر لنادى طرابلس الغرب الثقافى فى القاهرة، وقدم الرجل لنا ابنه الشاب، وذكر لنا بأن ابنه ميشيل شاب رياضى وعضو فى نادى المعادي. إن عمر الشريف أيا كان معتقده الدينى فهو فنان عالمي وممثل قدير لا يستحق هذا الذى يتعرض له من حين وآخر من الجهلة والمتعصبين والتوافه. شكرا لكم على كلمة الانصاف والموضوعية التى كتبتها عن عمر الشريف .

ورد عليه سعيد دلمن من البحرين: عمر الشريف فنان عالمي دينه كل الأديان ووطنه العالم .. دين الشخص أو الاعتقاد به مسألة شخصية بحته والانسان حر فيما يعتنق ويعتقد، أو أن هناك اخوة مستعربة أو أصولية تريد أن تطبق الشمولية والاستبداد الديني والتحكم بكوكبنا المسكين المبتلى بهذه الفصيلة من المخلوقات النادرة.....

أمام هذا الجدل الشعبي الذي اشتعل على صفحات التواصل الاجتماعي على شبكة الانترنت وتماوج بين الهجوم والدفاع، وقف عمر الشريف مذهولاً من سوء الفهم والتقدير لكلماته، وكيف تقوم الدنيا ولا تقعد بسبب كلمة لم يقصد منها كل هذه التأويلات التي قيلت أو اللغط الذي لا طائل منه حولها، ولم ينتظر من كلمة أو جملة تفوه بها كل هذه الاتهامات التي أشهرت في وجهه، هل يخونه الحظ حين يتكلم، أم أن هناك شيء غامض وملتبس فيما ينطق به فلا يستطيع مستمعوه أن يفهموه؟ أسئلة كثيرة طرحها عمر على نفسه خاصة وأنها ليست المرة الأولى التي يجد نفسه في مهب الهجوم بهذه الطريقة العنيفة، بل وصل الأمر إلى شائعة تهديد تنظيم القاعدة له بالقتل، كما نشرت الجارديان، لأنه قام بتمثيل فيلم (القديس بطرس) الذي سبب شقاقاً وجدلاً داخل الكنيسة القبطية حول جواز عرض الفيلم من عدمه خاصةً أن الكنيسة صرحت وقالت:

المنتج كاثوليكي ونحن أرثوذكس وسوف يكون نظرتهم للقديس بطرس مختلفة إلا أن الطائفة الإنجيلية رحبت بعرضه، وكان هذا التهديد الذي أشارت إليه الجارديان حيث كتب جون هوبر من روما تحت عنوان "دور القديس بطرس يجلب تهديدات بالقتل لعمر الشريف" يقول إن رسالة تم بثها في موقع على شبكة الانترنت لها صلة بتنظيم القاعدة هددت بقتل الممثل المصري العالمي عمر الشريف بعد أن لعب دور القديس بطرس في فيلم تلفزيوني إيطالي، قد جاء في نفس الوقت الذي تعرض فيه الكاتب والمفكر سيد القمني إلى تهديد من تنظيم القاعدة مما جعله يعتذر عن كل الكفريات - على حد قوله - التي كتبها في مجلة روز اليوسف، وهو أمر أشاع الفزع لدرجة جعلت مفكراً يتراجع عن طريقه، فماذا عن عمر الشريف الفنان الذي اتهم بأنه مسيحي، كما قالت بعض الكتابات، أهان الإسلام ويجب التخلص منه؟ لم يفهم عمر لماذا صدر هذا الاتهام؟ أو ما هي الإهانة التي وجهها للإسلام لأنه لعب دوراً في فيلم أو جسد شخصية مسيحية فيه؟.. وظل يتساءل كثيراً ولم يصل إلى إجابة شافية أو واضحة، بل وجد نفسه يسأل هل هذا كان يعني أن يقتل أنتوني كوين لأنه جسد شخصية المناضل الإسلامي والعربي عمر المختار؟ أو لأنه قام بدور حمزة عم الرسول محمد في فيلم الرسالة؟.. لم يجد عمر إجابة على أسئلته أبداً، لكن الأمر هدأ

بمرور الأيام ولم يعرف أحد حقيقة هذا التهديد الذي ذكرته "الجارديان" البريطانية.. وهل هو كان تهديد صادق أم مجرد ادعاء ومزحة سخيفة.. أم أنه كان فقط "كلام جرايد" بالمعنى الشعبي؟!

" أنا ممثل. وهذا شيء يسعدني جداً، ولا يحلم به أي سياسي. أقوم بتمثيل أي دور، شريراً كان أم طيباً. غضبت القاعدة مني جداً، وقالوا كيف تمثل فيلماً تقول فيه إن عيسى ابن الله، فقلت للجميع: أمثل أدواراً كثيرة وهذا لا يعني أنني أؤمن بها. كله تمثيل يحكمه نص، هذه مهنتي التي آكل عيش منها. ولا أتدخل في عقائد الآخرين. القرآن على سبيل المثال، كلام عظيم جداً، ومعجزة بلاغية، ولا يمكن أن يكون من تأليف النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - أبداً، هذه عقيدتنا، ولكن هل يؤمن غير المسلمين بذلك، بالطبع لا. أنتوني كوين ظهر في فيلم (عمر المختار) وهو يمجد القرآن ويقرأه، فهل يلومه المسيحيون على ذلك".

على أي الأحوال فإن هذه كانت بعض من المنغصات التي أعاقت طريق عمر وأفسدت عليه حياته بالضبط فكما ترددت شائعات كثيرة عن أصول أمه اليهودية والتي نفاها أكثر من مرة مؤكداً أنها مسيحية كاثوليكية، حدث في العام 1967 أن تعرض لغضب عربي عارم بعدما قام بتقبيل الممثلة اليهودية باربارا سترايسند في فيلم (فتاة مرحة) وطالبوا مقاطعته لأنه خائن يقبل

يهودية في الوقت الذي لم يزل العرب يتجرعون مرارة نكسة 1967.

" في الوقت ده اتنشرت صور البوسة دي، وقالوا إزاي يبوس الست دي، وقالوا عليّ راجل خاين وطالبوا بسحب الجنسية المصرية مني، وأنا وقتها كنت نجم كبير في هوليوود فصحفيين أمريكان كتير سألوني إيه رأيك في اللي اتكتب في الصحف العربية دا، وردك إيه على اللي قالوا عليك خاين لأنك بوست باربرا سترايسند، وكان لازم وقتها ألاقي رد لا يسيء لي ولا يسيء لبلدي، فقلت إن أنا عمري في حياتي ما سألت بنت عن جلسيتها أو عن ديانتها قبل ما أبوسها".

وكان أيضاً هدفاً للمتربصين الذين نصبوا له فخاً جديداً حين تحدث في حوار لمجلة "تايم" الأمريكية في العام 2003 يقول فيه أن لديه حفيداً يهودياً وآخر مسلماً والإثنان أبناء طارق ابنه من الفنانة فاتن حمامة مشيراً إلى أنه لن يتدخل فى ديانة أحفاده وسوف يترك لهم حرية اختيار الدين، كما وأنه لن يجبرهم على التمسك بالدين الإسلامي، حتى وإن كانت رغبة حفيده المسلم أن يصبح بلا دين.. وهو الحوار الذي أجراه بمناسبة عرض فيلمه (مسيو ابراهيم وزهور القرآن)، واعتبر البعض أن هذا التصريح يعدّ تخلياً من جانب عمر الشريف عن هويته كعربي يدين بالإسلام. فى حين اعتبره البعض الآخر، ضرباً

من الجنون واللامبالاة لكسب ود يهود أمريكا، أصحاب النفوذ في عالم السينما. فلم يلجأ إلى إخفاء ديانة أحفاده، لكنه قال بكل بساطه أنه لن يفرض عليهم أي شيء، وسيترك لهم حرية الاختيار.. وازداد الجدل حدة وفتحت أبواب التأويلات على مصراعيها خاصة أن عمر الشريف لم يقدم على تكذيب هذا الحديث، أو حتى يحاول تحسين صورته بعد هذه الزوبعة، بينما سارعت زميلته الفنانة القديرة نادية لطفي إلى تكذيب الخبر، ووصفته بأنه مدسوس. وقالت: أنشروا على لساني أن عمر الشريف لا يمكن أن يقول هذا الكلام، فهو أرق من هذا، وقيمة لا تسمح بذلك.

لم ينشر تكذيباً لعمر في "تايم" الأمريكية لأنه كما قال لم يقرأ الحوار إلا متأخراً ولم يعرف بأن المناخ العام في مصر اشتعل ضده إلا بعد أن عاد إليها حيث حرص على الإدلاء بتصريحات صحفية لصحف ومجلات مصرية وعربية قال فيها: **"كلامي لـ"تايم" كان واضح .. أنا قلت للصحفي إنه أنا ربيت ابني على التسامح وإنه يحب الناس .. وقلت ان ابني باس اليهودية والمسيحية والمسلمة واتجوزهم كمان، لأنه نسي يسألهم عن ديانتهم قبل ما يتجوزهم، ولما سألني عن حفيدي اليهودي قلت انه مش يهودي ولكن امه اليهودية بتربيه.. ودي مش نهاية العالم ولا الأزمة اللي تخلي مدافع الهجوم تفتح نيرانها عليّ لأن**

حفيدي وبالمناسبة اسمه عمر استطعت أن أجذبه لصفنا وهو يعرف جيداً انه مسلم وجواز سفره بيقول كدة وأبوه بيشوفه على طول وأنا باجيبه يقضي معانا الصيف كل سنة، وكنا بندلعه ونعمل له كل اللي نفسه فيه، وكان فعلاً بيعيش عيشة ملوك، وكان بينبسط جداً لأن الناس كلها بتدلعه، حفيد فاتن حمامة وعمر الشريف بقى، وده خلاه يحب مصر واللي فيها".

كأن عمر الشريف ربط بين حفيده من السيدة اليهودية وبين الصبي في فيلم (مسيو ابراهيم وزهور القرآن) حين سأله محرر "تايم" عن حفيده.. ففي الفيلم استطاع عبر علاقته الودودة بالصبي اليهودي أن يكشف له سماحة الدين الإسلامي، وهو مافعله مع حفيده تقريباً، حيث قال عمر: "في البداية لم أكن متحمساً من زواج طارق ابني من أم الولد وناقشته كتير لكنه كان مصمم ولم يستمر الزواج أكثر من سنة ونص بالتمام انفصلوا لكن بعد ما جابوا عمر ابنهم، ورحنا المحاكم وعملنا قضية عشان الحضانة، لكن ما جابتش نتيجة، وماكانش قدامي غير إني أروح القنصلية في كندا وأعمل لعمر جواز سفر مصري، بحيث إنهم لو منعوه عنا أتصرف وأرجعه مصر بأي طريقة، لكن أم الولد كانت لطيفة وكانت بتسمح لي إني أزوره، فبقيت على صلة بيها عشان الولد ما يشعرش إنه لوحده، أصل أبوه ما كانش بيكلم أمه خالص بعد الطلاق اللي ماكانش

ودي أبداً. والولد فضل معاهم وهما كانوا بيربوه على طريقتهم ومرة فوجئت بالولد وهو عنده 8 سنين بيقول لي إحنا وانتم، فسألته مين إحنا ومين أنتم؟ فقال لي إحنا اليهود وانتم المسلمين، فقلت له بهزار انت اسمك إيه، فقال لي اسمي عمر، قلت له عمر إيه؟ قال لي عمر طارق الشريف، طبعا قالها باللهجة بتاعتهم لأنه ماكانش يعرف عربي وقتها، فضحكت وقلت له ما ينفعش واحد يهودي يبقي اسمه عمر طارق الشريف، فضحك، وبقينا نهزر في النقطة دي، لكن أنا بيني وبين نفسي أدركت أن أنا داخل معركة ولازم أكسبها، وده حصل فعلاً بالحوار.. دي كانت الطريقة الصحيحة اللي كسبت بيها الولد، مش طريقة الاصطدام، واني أصدمه وأقول له أن اليهود دول ولاد كلب، لأن دا لو كان حصل كان كرهني، لكن العكس هو اللي حصل، وخلاص نسي حكاية إحنا وأنتم دي، بقي مصري مسلم زيه زي أبوه وزي جده اللي هو أنا".

الفصل التاسع
البطريرك

مولاي حسن مات. وتجمعت نساءه، الزوجة وثلاث بنات، تباطئن قليلاً قبل أن تقودهن صدمة الموت إلى هذيان الذاكرة التي أشرعت أبوابها لاستدعاء المسموح والمسكوت عنه والتخلص من الإرث الاجتماعي الثقيل في علاقتهن بالسلطة الأبوية، مولاي حسن هو الأب الذي اعتاد الجميع حضوره الاستحواذي ولم يستطع أحد أن يحدد ماهية شخصيته، هل هو الأب الحنون؟ نعم هو كذلك، أم الأب القاسي؟ وهو كذلك أيضاً، إنه هذا الخليط من الشراسة والحنين، القوة والرحمة، الإفراط والتوقف، هو بطريرك العائلة في مجاز يليق بسلطته الاستحواذية، وهو بالتأكيد ليس كبطريرك جابرييل جارثيا ماركيز، إنسان كانت سلطته من القوة بحيث سأل ذات يوم كم الساعة الآن، فأجابوه: الساعة التي تريدها سيدي الجنرال، لأنه كان يحوِّر لحظات النهار من أجل حسن سير أعماله وأيضاً يعدل تواريخ الأعياد المتوجبة كي يتمكن

من التطواف من عيد شعبي إلى آخر في سائر أنحاء البلاد، ولا هو كان يكفيه أن يشير ببنانه إلى الأشجار التي ينبغي أن تُثمر والحيوانات التي ينبغي أن تكبر والرجال الذين ينبغي أن ينجحوا، حتى أنه أمر بإلغاء المطر من الأماكن التي يعيق فيها المحصول وجعله ينزل في الأراضي الجافة، لكنه كان مولاي حسن الأب الذي بالرغم من موته تلفتت ابنته الكبرى حين أشعلت سيجارتها ثم أطفأتها خوفاً من أن يراها، وراحت الأم تشرف على تفاصيل الطعام المعد للعزاء حتى يكون في المستوى الذي يرضى عنه الزوج الميت، ومولاي حسن هو ذاته عمر الشريف فى آخر دور قدمه فى (روك القصبة) إخراج المغربية ليلى المراكشي، فيلم عرف أنه إشارته للوداع (سأشتاق لكم)، بدا حكيماً إلى درجة كبيرة حين كان يتسلل خلال الأحداث وهو الأب الميت الذي أربك نساء أسرته بهذا الموت الذي لم يعتدن عليه، وبدا ودوداً يسخر من كل التفاصيل، انشغالهم بطبيعته وشخصيته، استعدادات الجنازة، ثم ينظر إلى الكاميرا ويضحك كأنه يعبر حاجز الموت دون أن خوف لا داع له، هو الأب القوي؛ البطريرك الساخر من الأشياء الزائفة، وهو عمر الشريف الذي حاولوا تنصيبه بطريركاً لجمهورية "الفنانون العالميون". والبطريرك كلمة يونانية مكونة من شطرين، ترجمتها الحرفية "الأب الرئيس"؛ فكان يسخر كعادته بكلمات بسيطة لكنها تصيب الهدف :" اجتهدوا واتعبوا.. تنجحوا".

نداهة العالمية

صار عمر الشريف أيقونة العالمية في مصر وربما في الوطن العربي، والكثير من الممثلين تطلعوا إليه أملاً في أفق أرحب لطموحاتهم في كسب مزيد من الشهرة والأضواء، وإن كانت الخارطة تغيرت وخلت من النظرة القديمة التي لم تستوعب آلية العمل في هوليوود كعاصمة للصناعة السينمائية العالمية، والتي لم تر في هوليوود سوى أنها المكان الذي تحاك فيه المؤامرات الصهيونية ضد العرب من خلال الأفلام التي تلقى رواجاً في العالم كله، وبالتالي فإن أي عربي يعمل هناك فإنه يرتكب خيانة عظمى لبلاده، فإن هوليوود، في الأعوام الأخيرة، شهدت حضوراً سينمائياً عربياً لافتاً للنظر، فرأينا مثلاً فوز المخرج الفلسطيني هاني أبو أسعد بجائزة "جولدن جلوب" في فئة أفضل فيلم أجنبي لعام 2005 عن (الجنّة الآن)، رُشّح الفيلم لجائزة "أوسكار" في الفئة نفسها وإن لم يفز بها، لكنه على الأقل شارك وفتح الباب أمام أفلام عربية أخرى.

ظل عمر الشريف هو الصورة التي يتطلع إليها الممثلون العرب وخاصة المصريين وهم يحلمون بالوصول إلى فضاء العالمية، وفتحت هوليوود أبوابها أيضاً لبعض الممثلين الذين قدموا أدواراً متنوعة، فعلى سبيل المثال وليس الحصر؛ أطل الممثل السوري غسان مسعود في دور صلاح الدين الأيوبي في

فيلم (مملكة الجنة) للمخرج ريدلي سكوت، وكذلك ظهر في نفس الفيلم الممثل المصري خالد النبوي الذي قدم أيضاً فيلم (اللعبة العادلة) الذي جسد فيه دور عالم نووي عراقي وفيلم (المواطن) إخراج سام كادي، والممثل السوداني الأصل ألكسندر صدّيق في دور أمير عربي في (مملكة الجنة)، وهو نفسه الممثل السوداني الذي ظهر أيضاً في دور الأمير العربي ناصر السباعي في فيلم (سيريانا) للمخرج ستيفن جاجان، الذي شارك فيه أيضاً الممثل المصري عمر واكد في دور أصوليّ يعمل على تجنيد أصوليين إسلاميين لتنفيذ عمليات إرهابية، وكذا دوره في فيلم (بين نهرين) الذي يتناول حياة الرئيس العراقي السابق صدام حسين، ويلعب فيه عمرو دور صهر صدام حسين "حسين كامل"، ما تسبب في حملة هجومية كبيرة شنت ضده لأنه شارك في هذا العمل الذي يجمعه بممثل اسرائيلي وهو "يجال نائور". وشارك أيضاً عمرو واكد أمام سكارليت جوهانسون ومورجان فريمان في فيلم (Lucy)، كما قدم خالد أبو النجا دور الشاب العربي في فيلم (واجب وطني) إخراج جيف رينفرو، كما رأينا الممثلتين الفلسطينية هيام عباس والتونسية ريم تركي في دورين عابرين في فيلم (ميونيخ) لستيفن سبيلبيرج: الأولى كزوجة للمسؤول الفلسطيني محمود الهمشري، والثانية كزوجة للشاعر كمال عدوان، اللذين اغتالتهما إسرائيل عقب عملية فدائية نفّذتها

"منظّمة أيلول الأسود" في مدينة ميونيخ في العام 1972 ضد فريق رياضي إسرائيلي، وشاركت أيضاً هالة صدقي وشريف رمزي في الفيلم الأمريكي الانجليزي اليوناني (الأسكندر الأكبر) وإخراج اللبناني الأصل الأمريكي الجنسية جلال مرعي. إذن، تعددت الأسماء والمشاركات والحلم واحد لم يعد صعب التحقيق طالما أن الأبواب مفتوحة والأفلام تحتاج لشخصيات تعبر عن جنسيات مختلفة خاصة وأن الأفلام تغوص في موضوعات مختلفة ومتشعبة وليست قاصرة على الموضوعات الأمريكية والغربية فقط، بل هي تخرج لآفاق أوسع يمكن أن تشمل شخصيات وقصص خارج حدود الغرب ذاته، بل أنه حتى هذا الغرب يعيش فيه أشخاص ينتمون لجنسيات مختلفة قد يظهرون في السينما وبالتالي فلابد من الممثل الذي يجسدها على الشاشة.

"الأفلام الأجنبية بشكل عام تكتب أدوارها لممثلين أجانب يعني من نفس جنسية الفيلم، لذلك فأول صعوبة تواجه أي ممثل عربي في خطواته نحو السينما العالمية أن يجد دوراً مكتوباً له وبمواصفاته كممثل أجنبي بالنسبة لهذه الأفلام، وبالنسبة لي كممثل مصري واجهتني صعوبة أساسية. فبالرغم من أنني أتحدث الانجليزية جيداً إلا أن لهجتي ليست أمريكية أو انجليزية وأيضاً اللغة الفرنسية والإيطالية فلا أتحدث

كأهلها لذلك فالأدوار التي قدمتها ليست مثل الأدوار التي يقدمها الممثلون أصحاب اللهجات الأصلية وهذه كان فيها صعوبة."

شقّ عمر الشريف ميدان العبور للعالمية. قد تكون يد القدر هي التي دفعته لذلك أو قد تكون بصيرته النيرة التي فطنت إلى ضرورة أن يطرح العربي نفسه في قلب العالم ويجد لها مكاناً، ولعله هو ذاته لم يدرك هذه الفكرة حين غادر وطنه وعبر المحيط إلى هوليوود، لكنه بالتأكيد حين رأى الأجيال الجديدة من الممثلين تحاول أن تعبر طريقاً سبق أن مهده في الماضي، فإنه شعر بأن حلمه لم يكن ساذجاً أو مجرد نزوة عابرة، لكن المشوار بالتأكيد كان صعباً وخسر فيه أشياء كثيرة وغالية تساوي ما ربحه من نجومية وشهرة عالمية.

تنوعت أدوار عمر الشريف في أفلامه العربية والأجنبية، فقدم أنماطاً مختلفة ومتباينة من حيث قوة الفيلم نفسه أو خفته، الرجل الهادئ والغامض، ساحر النساء، الساخر، الرومانسي، وكلها أدوار كرسته في مساحة خاصة وصنعت توهجه، ومن المعروف أنه قدم كممثل ما يقرب من 117 عملاً، وكمؤلف قدم فيلمين، وكمنتج له فيلم واحد من إنتاجه. فيما ظهر باسمه وشخصيته الحقيقية 81 مرة في أعمال وثائقية وتليفزيونية.

وبالرغم من ذلك لازمته صورة النجم الرومانسي، نموذج لفارس الأحلام كما في الحواديت للفتيات في أجيال متعاقبة، فمثلاً عند تكريم الجاليات العربية في أمريكا له في العام 2005 استقبلته الفتيات الصغيرات بالهتاف والصراخ، كما كانت أمهاتهن تفعل من قبل، وفي حفل افتتاح فيلمه (حسن ومرقص) (2008) والذي غاب عنه وقفت فتيات في بداية العشرينيات يتطلعن إلى الباب وأصابتهن الحسرة عندما عرفن أنه لن يحضر، وقالت واحدة منهن "يكفي أن نراه على الشاشة"، وبعد العرض رحن يتحدثن عن أدائه وملامح وجهه التي اختلجت بتعبيرات صادقة، ثم تساءلت واحدة منهن: "تفتكروا عمر الشريف بيفكر في الزواج مرة أخرى؟".

عمر الشريف، الذي بلغ حينذاك منتصف السبعين، بالتأكيد لم يكن يراوده التفكير في الزواج مرة أخرى، وعاش المتبقي من عمره كما كان يعيشه دائماً حسب مزاجه وتلقائيته وبلا عقد أو حسابات للمستقبل أو الأيام القادمة، إنساناً بسيطاً للغاية، وليس سطحياً: **"لا أفكر في بكرة ، ولا أنظر لليوم الذي مضى، وسعيد وصحتي جيدة والحمد لله ، ولا أعمل حساب للغد ولا أنظر للخلف، أعيش يومي فقط بدون خطة وبدون تفكير في شيء آخر".**

كسولاً كمعظم المصريين، لكنه كان من عشاق الرياضة، منح لها من وقته اليومي قبل مرضه حيث كان يمشي ويجري لمدة ساعتين يومياً، وحين كان يدخل تصوير فيلم يكون استعداده بشكل جيد، كان يبذل جهداً حقيقياً في دراسة ومعرفة هذه الشخصية: **"أنا أحاول أن أعيش داخل الشخصية وأن أفهمها، واقرأ عنها ليس من قبيل الدراسة ولكن من قبيل الاستمتاع، هذه مشاعر داخلية للشخصية لابد من إبرازها خارجياً".**

أصدقاء عمر وابنه وأحفاده كانوا ينادونه بـ"عمر"، هو اسمه وتدليله الذي أحبه ولم يتخل عنه أو استعاض عنه بالألقاب، كان يحب التدليل كما يعشق السخرية التي تتخلل كلامه غالباً، حتى أنه حين قام ليتسلم الجائزة الأولى فى التمثيل عن فيلمه (السيد إبراهيم وزهور القرآن): **"كنت أعلم أننى سأفوز، لأننى حينما أبلغونى بترشيحي للجائزة، سألت من أعرفهم فى الوسط الفني عن متوسط عمر أعضاء لجنة التحكيم، فقيل لى بين أربعين وخمسين عاماً، فقلت إذن كانت أمهاتهم شابات فى الستينيات ومعجبات بي، وأكيد سوف يتصلون تليفونياً بأبنائهم ويقولون لهم من أجل خاطرنا أعطوا أصواتكم لعمر، فشكراً لأمهات أعضاء لجنة التحكيم"**. وذات مرة سأله مقدم برنامج كان ضيفه بالتليفزيون الفرنسي: سمعنا أنك كنت مقرباً من الكاتب المسرحي صمويل بيكت، فقال نعم.. **كنت ألعب على**

المسرح إحدى مسرحياته ونصحني المخرج بأن أتناقش معه كي أفهم الشخصية، فكنت أنا وبيكيت نتناول العشاء وحدنا على مدى أكثر من شهر. وماذا كان يقول لك؟ سأله المذيع، فقال عمر الشريف: كان صامتاً وأنا الذي أتحدث، كنت أحكي له حواديت كثيرة من الشرق ومن الغرب، أحكي له عن نفسي وعن الآخرين. كم كنت أحمق، لقد احتكرت الحديث ولكنه كان سعيداً بما أقول.

نال عمر الشريف الكثير من الجوائز منذ العام 1962 حين رشح لجائزه أوسكار عن دور مساعد فى فيلم (لورانس العرب)، وحتى العام 2004 حيث تم منحه جائزة مشاهير فناني العالم العربي تقديراً لعطائه السينمائي خلال السنوات الماضية، وحاز أيضاً في نفس العام جائزة سيزار كأفضل ممثل والمسماة أيضا بالأسد الذهبى عن دوره في فيلم (السيد ابراهيم وزهور القرآن) للمخرج فرنسوا دوبيرون، هذا غير التكريمات المختلفة التي نالها على مدار رحلته الفنية الطويلة .

البطريرك الزاهد مات

- ماذا تفعل؟
- أبحث عن شيء وقع مني.
- هنا؟
- ربما!
- كأنك التقطت شيئاً!
- لا شيء .. أصلاً أنا لا أمتلك شيئاً، ولا شيء يملكني.
- لكنك عمر الشريف!
- يعني؟
- النجم.
- يقولون ذلك.

تتلاشى الكلمات مع وقع خطواته الواثقة لرجل ثمانيني متأنق يدلف إلى قاعة صغيرة في فندق كبير حيث انتظرته كاميرات التصوير ليسجل سهرة تليفزيونية بمناسبة أعياد رأس السنة، وقف في منتصف القاعة وألقى نظرة عامة على الجميع الذين سارعوا للتصوير معه ثم ابتسم خجلاً وأشار بأنه اكتفى، وحين تحدث جاءت كلماته قليلة ومقتضبة كمن يمرن ذاكرته ألا تندمج في الضياع.

الكل أعلن انزعاجه لما أصاب عمر الشريف في أواخر العمر، والكل لا يدرك بالضبط كيف كانت الأمور حين لم يكبح الزمن سرعة عجلة النسيان التي اقتحمته بلا تمهل ونثرت ذاكرته على مفارق الطرق، فضاعت التفاصيل والسيرة سدى كأنها لم تكن، وكأن الشيء المغاير في حياته عَبَر خلسة دون أن يبصر نفسه في المرآة ودون أن ينظر إلى أثر، كان ينتقي من البدايات فصول الماضي البعيد ليحكيها، وحين طال تأمله وصمته وأخطأ في عد أيام الأسبوع، ابتسم ثم نام كطفل انتهى للتو من اللعب والصخب، كان تأمله وصمته إشارته على أن حريته الجديدة في النسيان، فهو اختار من الماضي ما يجلب له لحظة طمأنينة أو سعادة ولم يدقق كثيراً في الضباب حتى لا يرهق عينيه إن نظر إلى منحنى كاد يوماً أن يكسره، حر هو في إدارة شأنه الشخصي بلا رقيب لذكرياته، إنه الألزهايمر الذي فرّغ ذاكرته من الزحام ومسح قصصاً كانت قد تجلب له الوجع أو تُهين المزاج الصافي، في البداية ارتبك وتشوشت الذكرى عنده، نسي بعض الأشياء والأسماء والأماكن وصار يكرر نفس الجمل والكلمات ويصعب عليه متابعة محادثة، وأصبح عنيداً صاحب مزاج متقلب لا يثق في الآخرين، ما جعله منطوياً يُظهر بعض العدوانية إذا خاف. وعلى صعوبة الأمر أن تجد الشخص الذي كان يملأ العالم ضجيجاً وقصصاً مشاكسة تصنع الأخبار الساخنة، يتلاشى

ببطء في عالم لم يعد له فيه مكاناً ويقضم المرض ساعات عمره ثانية ثانية، فهو لم يعد فتياً وموته حدث تدريجياً. فإن الوجه الآخر للحكاية يغلب عليه بقايا صورة رجل كما الأسطورة لم يترجل عن مكانه وحضوره البهي في أعين جماهيره التي كانت تتلمس فرصة أن تحظى بسلام منه إذا رأته صدفة في الشارع يتأبط ذراع صديق، فيما كان عمر بالرغم من إصابته بالمرض يبدو في صمته ونظرة متحلقة من عينيه العميقة كأنه لا يشعر بنقص في الوجود ولا يشتاق إلى عالم يطفو على أمواج من المشاكل المستعصية. ولا يُغريه فعل التكرار أملاً في أن يعيد عصره الذهبي، بل نجا من أن يقسو على نفسه من فخ السؤال: ماذا أفعل في خطوتي القادمة؟

إنه غموض الخريف الذي لا يحتاج إلى الضوء والصخب، ويتقاطع فيه الحزن والفرح كمنعطف آمن للعبور لا يُنتظر منه سوى العبور فقط، فلا متسع في القلب لهمسة أو معركة، ففي هذه اللحظة القاطعة تصبح كل الأشياء سواسية. كان يردد الجميع اسمه ويتعاملون معه كصفة، من هو؟ ميشيل أم عمر؟ وما معنى الاثنين الساكنين في جسده الذي يضعف يوماً بعد الآخر؟ الكل كان يجلس مع اسمه وهو ذاته نسي لماذا حمل هذا الاسم؟ الكل غير مكترث سوى بالاسم، وعمر الشريف في الغالب كان صامتاً يتأمل فضولهم وربما لاحقه سؤال داخلي: ما شأني أنا

بكل ذلك؟ فقد كان في حالة لا تسمح للإغواء أن يتسلل إليه وأن يشغله بما سيكتب التاريخ عنه، فالنسيان قادر أن يمحو رحلة العنفوان. نفسه الجامحة هدأت ومشت على ما تبقى من العاطفة صوب نقطة لم يدركها، لكنها كانت تشبه البياض حيث مُحيت القصص القديمة وتوابعها، فلم يتذكر الرومانسي الذي سحر قلوب النساء، أو صاحب العقل الذي يحمل النقيضين: المتسامح والغاضب، أو العالمي الذي استسلم لمصيره، اتبع دربه خطوة، خطوتان، وثلاث ولما رأى انعكاس صورته على من حوله وكيف تأثرت الأماكن بحضوره، لم يكن واقعياً ليصدق هذه الصورة المكسورة على خط يضغط على الذاكرة فتضيق بتفاصيلها.

تساءلوا: هل شعر عمر الشريف بالزهد تجاه الأضواء في أيامه الأخيرة؟ هو السؤال الذي حيّر عمر نفسه قبل أن يجيب: **"لم أبحث عن الشهرة، أحببت التمثيل ونجحت فتحققت شهرتي، كنت أتمنى أن يحدث ذلك دون ضوضاء، كل ما أردته التمثيل فقط. ولو عاد بي الزمان إلى الوراء، كان من الممكن جداً ألا أسافر لتمثيل فيلم (لورانس العرب) وأظل في مصر مع أصدقائي دون الحاجة أن يعرفني الآخر."**

لكن الزاهد احتشد بنسيانه في مواجهة الغياب، مات أغلب أصدقاؤه وأحس بشرك الموت حين رحل رفيق عمره أحمد رمزي

أولاً ثم بعد الرحيل المفاجئ لفاتن حمامة، فلم ينتظر كثيراً حتى يطوي صفحته ويصنع فينالة هادئة لحياته الصاخبة، رحل كأنه انسل من الحرير لم تخدشه سوى شائعات الإهمال التي تشابهت مع دراما التشويق والإثارة حول نجم لم يتعامل معه الجمهور يوماً باعتباره بشراً عادياً من لحم ودم، لكنه في مخيلتهم النجم الذي كان يترجل أحياناً لينزل من سمائه ويمشي على الأرض، تدور به الريح وكان يعرف كيف يلجمها. وحين مات لم يفسخوا معه العقد المبرم بينهما كنجم مترف بالأوصاف النقيضة أغوته النجومية كما سكنه التسامح والسخرية ممن تصوروا أنهم حققوا الكمال.

فيلموجرافيا

عمر الشريف ممثلاً (117 عمل)

2012 Rock the Casbah - Moulay Hassan

2009 I Forgot to Tell You - Jaume

2009 The Traveller

2009 The Last Templar (TV mini-series) Konstantine

2008 Hassan wa Morcus - Hassan/Morcus

2008 10,000 BC - Narrator (voice)

2007 Hanan Wa Haneen (TV mini-series) - Raouf

2006 One Night with the King - Prince Memucan

2006 Kronprinz Rudolf (TV movie) - Hans Canon

2006 The Ten Commandments (TV movie) - Jethro

2006 Fire at My Heart - Principe Nicola

2005 Imperium: Saint Peter (TV movie) San Pietro

2005 The Search for Eternal Egypt (TV movie) Narrator

2004-2003 Petits mythes urbains (TV series) Taxi driver

– Une nuit inoubliable (2004) ... Le chauffeur de taxi/Taxi driver

– Égaré (2004) ... Taxi driver

–À tout prendre (2004) ... Taxi driver

–Un bon père de famille (2004) ... Taxi driver

–Chambre 301 (2004) ... Taxi driver

2004 Hidalgo - Sheikh Riyadh

2003 Monsieur Ibrahim - Monsieur Ibrahim Deneji

2001 Shaka Zulu: The Citadel (TV movie) The King

2001 The Parole Officer - Victor

2001 Censor

2000 Going Public (video)

1999 The 13th Warrior - Melchisidek

1998 Mysteries of Egypt (documentary) - Grandfather

1997 Heaven Before I Die - Khalil Gibran

1996 Catherine the Great (TV movie) - Razumovsky

1996 Gulliver's Travels (TV movie) - The Sorcerer

1996 Ça-Va? (Short)

1994 Red Eagle (TV movie) - Safar Khan

1993 Mother (TV mini-series) - Hagop

1993 Laughter, Games, Seriousness and Love

1992 Mrs. 'Arris Goes to Paris (TV movie) - Marquis Hippolite

1992 Tengoku no Taizai - Tsai Mang Hua

1992 Beyond Justice - Emir Beni-Zair

1992 Mother - Hagop

1991 Memories of Midnight (TV movie Constantin Demiris)

1991 Mother - Hagop

1991 Il principe del deserto (TV mini-series) - Emir Beni-Zair

1991 Al-moaten Masry

1990 Viaggio d'amore - Rico

1990 The Rainbow Thief - Dima

1990 Mountains of the Moon

Arab chief in Cairo (uncredited)

1990 Le roi de Patagonie (TV mini-series) - Le consul d'Aninot

1989 Quattro piccole donne (TV series

1989 The Puppeteer - Mohamed Gad El Kareem

1988 Les pyramides bleues - Alex

1988 Les possédés - Stepan

1988 Keys to Freedom - Jonathan

1987 Grand Larceny - Rashid Saud

1986 Anastasia: The Mystery of Anna (TV movie) - Czar Nicholas II

1986 The Mind of David Berglas (TV series)

—Episode #1.4 (1986)

1986 Harem (TV movie) - Sultan Hassan

1986 Peter the Great (TV mini-series) - Prince Feodor Romodanovsky

1985 Edge of the Wind (TV movie) - McCorquodale

1985 Vicious Circle (TV movie)

1984 Top Secret! - Agent Cedric

1984 The Far Pavilions (TV mini-series Koda Dad)

—Part Three: Wally and Anjuli (1984) ... Koda Dad

—Part Two: The Journey to Bhithor (1984) ... Koda Dad

—Part One: Return to India (1984) ... Koda Dad

1983 La Martingale (TV movie) - Alex Joski

1983 Ayoub

1981 Green Ice - Meno Argenti

1981 Inchon - Indian Brigadier (uncredited)

1980 Pleasure Palace (TV movie) - Louie Lefevre

1980 Oh Heavenly Dog - Bart

1980 The Baltimore Bullet - The Deacon

1980 S+H+E: Security Hazards Expert - Baron Cesare Magnasco

1979 Bloodline - Ivo Palazzi

1979 Ashanti - Prince Hassan

1977 Mysteries of the Great Pyramid (TV movie) - Host

1976 The Pink Panther Strikes Again - Egyptian Assassin (uncredited)

1976 Crime and Passion - Andre Ferren

1975 Funny Lady - Nicky Arnstein

1974 Juggernaut - Captain Alex Brunel

1974 The Tamarind Seed - Feodor Sverdlov

1973 L'île mystérieuse (TV mini-series) - Le capitaine Nemo

—Le secret de l'île (1973) ... Le capitaine Nemo

—Le drapeau noir (1973) ... Le capitaine Nemo

—L'abandonné (1973) ... Le capitaine Nemo

—Territoire interdit (1973) ... Le capitaine Nemo

—Les naufragés de l'air (1973) ... Le capitaine Nemo

1973 The Mysterious Island - Captain Nemo

1972 Le droit d'aimer - Pierre

1971 The Burglars - Abel Zacharia

1971 The Horsemen - Uraz

1971 The Last Valley - Vogel

1969 Three Men on a Horse - Un turfiste (uncredited)

1969 Bracken's World (TV series) - Cameo

- Fade-In (1969) ... Cameo

1969 Che! - Che Guevara

1969 The Appointment - Federico Fendi

1969 Mackenna's Gold - Colorado

1968 Mayerling - Archduke Rudolf

1968 Funny Girl - Nick Arnstein

1967 More Than a Miracle - Prince Rodrigo Fernandez

1967 The Night of the Generals - Major Grau

1966 Poppies Are Also Flowers - Dr. Rad

1965 Doctor Zhivago - Yuri

1965 Marco the Magnificent - Sheik Alla Hou, 'The Desert Wind'

1965 Genghis Khan - Temujin-Genghis Khan

1965 The Mamelukes

1964 The Yellow Rolls-Royce - Davich

1964 Behold a Pale Horse - Francisco

1964 The Fall of the Roman Empire - Sohamus

1962 Lawrence of Arabia - Sherif Ali

1961 Bidaya wa nihaya

1961 The River of Love Khalid

1961 The Agony of Love -

1961 My Only Love –

1961 I Love My Master

1961 There Is a Man in Our House - Ibrahim

1960 Agony of Love

1959 Struggle on the Nile - Muhassab

1959 Lady of the Castle - Adel

1959 For the Sake of a Woman

1959 Scandal in Zamalek

1959 Rendezvous with a Stranger (as Omar El-Cherif)

1958 Goha - Goha (as Omar Cherif)

1958 Hidden Shore

1958 No Tomorrow - Aziz

1958 The Fault of My Love

1957 Land of Peace - Ahmed

1956 The Lebanese Mission - Mokrir (as Omar Cherif)

1956 Dark Waters - Ragab

1955 Our Best Days - Ahmed

1954 Devil of the Sahara

1954 Siraa Fil-Wadi

عمر الشريف مؤلفاً

2009 Road to Las Vegas

2003 Petits mythes urbains (TV series)

عمر الشريف منتجاً

1962 The Sun Will Never Set (co-producer)

ظهر باسمه وشخصيته الحقيقية 81 مرة في أعمال وثائقية وتليفزيونية

2013 Stardust Hollywood - Sternenstaub und Götterwelten (TV documentary)

2011 A la recherche des Mangeurs de Morts (video documentary)

2010 Chasing Mummies (TV series documentary)

2010 Bats

2010 Cinémas (TV series)

– Episode dated 10 April 2010 (2010)

2010 Dancing with the Stars (TV series)

– Round One: Part 1 (2010) ...

2009 A Night at the Movies: The Gigantic World of Epics (TV documentary) Interviewee

2009 Días de cine (TV series)

– Episode dated 18 June 2009 (2009)

2009 La traversée du désir (documentary)

2008 Il était une fois... (TV series documentary)

– Lawrence d'Arabie (2008)

2007 In the Tracks of Maurice Jarre (TV documentary)

2007 British Film Forever (TV mini-series documentary)

– Corsets, Cleavage and Country Houses: The Story of British Costume Drama (2007)

2007 Greatest Ever Romantic Movies (TV documentary)

2007 Fred Zinnemann - Der Mann, der 'High Noon' machte (TV movie)

2006 Corazón de... (TV series)

– Episode dated 17 November 2006 (2006)

2006 Sfuoco su di me (video documentary short)

2005 Tavis Smiley (TV series)

– Episode dated 17 June 2005 (2005) ... Himself

2005 La méthode Cauet (TV series)

– Episode dated 3 March 2005 (2005)

2004 Double je (TV series documentary)

– Episode dated 25 November 2004 (2004)

2004 Ombre et lumière (TV series documentary)

– Episode dated 29 September 2004

2004 Friday Night with Jonathan Ross (TV series)

– Episode #6.5 (2004)

2004 Comme au cinéma (TV series documentary)

– Episode dated 30 March 2004

2004 On ne peut pas plaire à tout le monde (TV series)

– Episode dated 14 March 2004

1980-2004 La nuit des Césars (TV series documentary)

– 29ème nuit des Césars (2004)

– 5ème nuit des Césars (1980)

2004 Hollywood Legenden (TV documentary)

2003 The 100 Greatest Musicals (TV documentary)

2003 Tout le monde en parle (TV series)

– Episode dated 13 September 2003

2003 '75' Years of the Academy Awards: An Unofficial History (TV special documentary) - Interviewee

2002 Building the Great Pyramid (TV documentary) - Nakht (voice)

2000 Legends (TV series documentary)

2000 The Making of 'Lawrence of Arabia' (video documentary)

1996 Umm Kulthum (documentary) - Narrator (voice)

1996 Especial humor: Vaya... y vuelta (TV movie)

1996 Lights, Camera, Action! A Century of the Cinema: A Star Is born (TV documentary)

1996 Lebanon... Imprisoned Splendour (documentary)

1995 'Doctor Zhivago': The Making of a Russian Epic (TV special documentary) - Himself/Host/Narrator

1995 Aquí no hay quien duerma (TV series)

– Episode dated 24 November 1995

1995 The Tonight Show with Jay Leno (TV series)

– Episode #3.293 (1995)

1995 ¿Qué apostamos? (TV series)

– Episode dated 24 February 1995

1995 Vaya nochecita (TV series)

– Episode dated 9 January 1995

1993 Encantada de la vida (TV series)

– Episode dated 22 October 1993

1993 Querida Concha (TV series)

– Episode dated 16 May 1993

1993 Parabéns (TV series)

1993 Bridge Deluxe with Omar Sharif (Video Game)

1991 Jonathan Ross Presents for One Week Only: Alejandro Jodorowsky (TV documentary)

1990 AFI Life Achievement Award: A Tribute to David Lean (TV special)

1989 This Is Your Life (TV series documentary)

– Omar Sharif (1989)

1988 Gran premio internazionale della TV (TV series)

– 5th Edition (1988)

1988 Le divan (TV series documentary)

– Episode dated 26 March 1988

1988 Àngel Casas show (TV series)

– Episode #3.49 (1988)

1988 Mysteries of the Pyramids (video documentary)

1986 Bob Hope's Royal Command Performance from Sweden (TV movie)

1986 Aspel & Company (TV series)

– Episode #3.3 (1986)

1984 Champs-Elysées (TV series)

– Episode dated 31 December 1984

1984 Mardi cinéma (TV series documentary)

– Episode dated 12 June 1984 (1984)

1980 The Tonight Show Starring Johnny Carson (TV series)

– Episode dated 13 May 1980

1978 Over Easy (TV series)

– Episode dated 10 July 1978

1978 Good Morning America (TV series)

– Episode dated 19 May 1978

1978 The Jim Nabors Show (TV series)

– Episode #1.23 (1978)

1977 Donahue (TV series)

– Episode dated 9 December 1977

1977 Saturday Night at the Mill (TV series)

– Episode #2.5 (1977)

1974 V.I.P.-Schaukel (TV series documentary)

– Episode #4.2 (1974)

1974 Glen Campbell & Company (TV movie)

1971 The David Frost Show (TV series)

– Episode #3.198 (1971)

1971 Show Petula Clark (TV movie)

1971 Gala de l'union (TV series)

– 38 ème gala de l'union des artistes (1971)

1970 Della (TV series)

– Episode #1.171 (1970)

1970 The Festival Game (documentary)

1969 Girl Talk (TV series)

– Episode dated 25 August 1969

1969 Die Drehscheibe (TV series)

– Episode dated 27 April 1969

1968 Sophia: A Self-Portrait (TV documentary)

1967-1968 The Joey Bishop Show (TV series)

– Episode #2.232 (1968)

– Episode #2.16 (1967)

1968 This Is Streisand (documentary short) - Himself / Nicky Arnstein

1968 Vienna: The Years Remembered (documentary short) - Himself (uncredited)

1967 The 39th Annual Academy Awards (TV special) - Himself - Co-Presenter: Best Cinematography

1967 Cinema (TV series documentary)

– Omar Sharif (1967)

1966 Zhivago: Behind the Camera with David Lean (documentary short)

1965 I've Got a Secret (TV series) - Guest star

– Episode dated 15 November 1965 - Guest star

1965 Moscow in Madrid (documentary short)

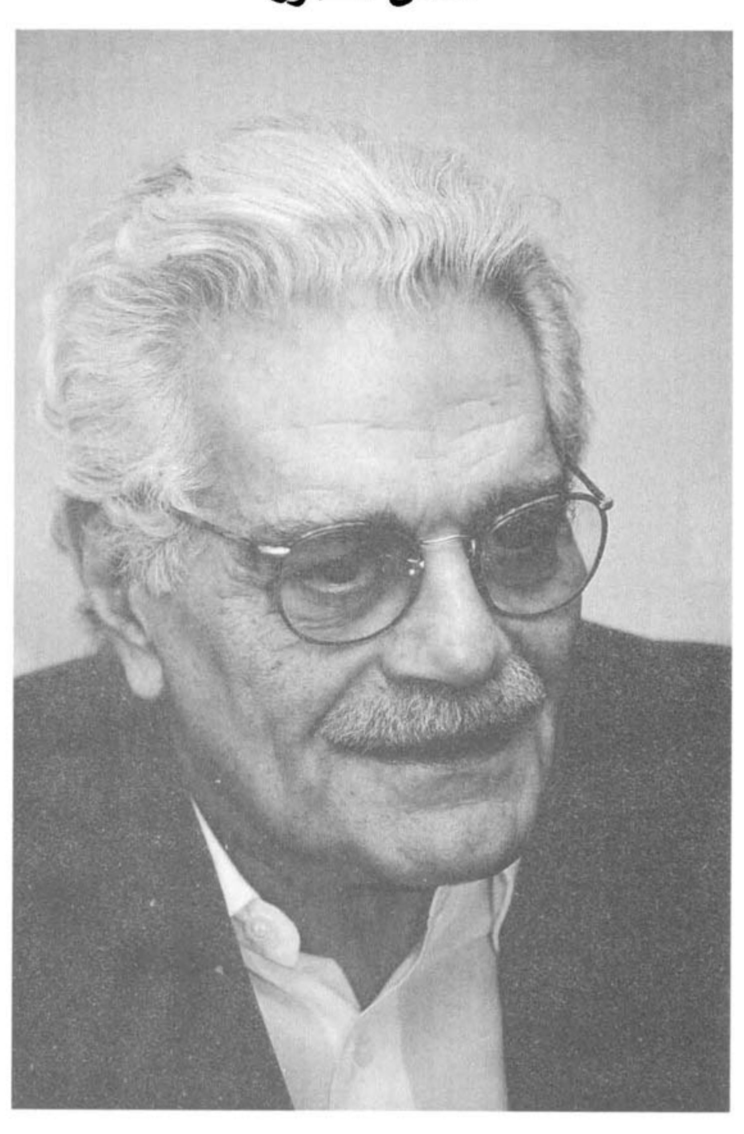
1965 Pasternak (documentary short)

1963 Cinépanorama (TV series documentary)

– Episode dated 23 November 1963

1963 The 35th Annual Academy Awards (TV special) - Himself - Nominee: Best Actor in a Supporting Role

ملحق الصور



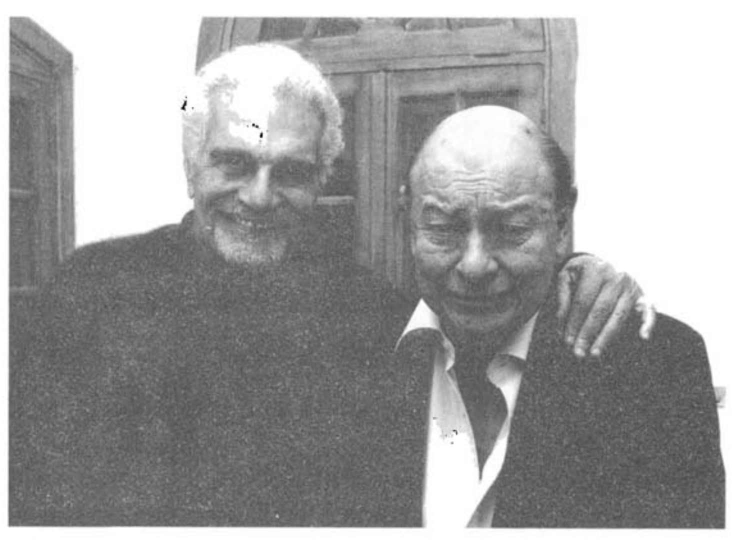

566

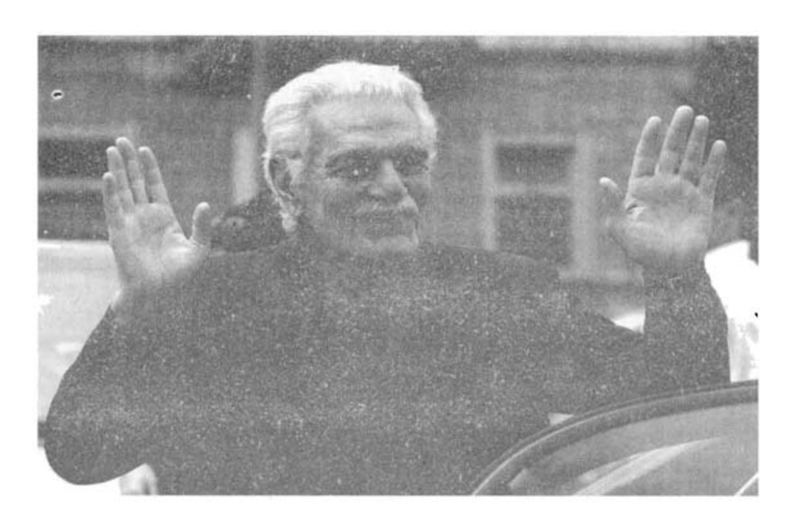

فاتن حمامة
عمر الشريف
صراع فى الوادى
فريد شوقى
زكى رستم
إخراج
يوسف شاهين
فاتن حمامة
عمر الشريف
صراع فى الميناء
احمد رمزى
حسين رياض
فردوس محمد
تصوير
أحمد خورشيد
إخراج
يوسف شاهين


فاتن حمامة
عمر الشريف
و
عبد الحليم حافظ
أيامنا الحلوة
NOS BEAUX JOURS
إخراج حلمي حليم
الوجه الجديد أحمد رمزي
زهرة العلا
زينات صدقي
سراج منير
تصوير وحيد فريد
فاتن حمامة . عمر الشريف
سيدة القصر
إخراج
كمال الشيخ









المراجع

(1) حوار خاص مع عمر الشريف

(2) حلقات "المسافر" بجريدة الجريدة الكويتية

(3) حواره مع الكاتبة الفرنسية "ماري تريز جوينشار" عن حياته وأمه وأبيه وعلاقته بالنساء والبريدج، نشر في كتاب قام بترجمته عبدالمنعم سليم

(4) مذكرات إدوارد سعيد

(5) مقالات د.جلال أمين

(6) (السينما المصرية 1896- 1935 سنوات التكوين) د. محمد كامل القليوبي

(7) حواره مع جيزيل خوري في برنامجها "بالعربي" على شاشة العربية

(8) مذكرات محمد كريم إعداد محمود علي

(9) نجوم الرومانسية.. مقدمات ونماذج تأليف د. أحمد شوقي عبدالفتاح وحليم ذكري مليكة

(10) يوسف شاهين.. حياة للسينما تأليف وليد شميط

(11) صفحات من تاريخ السينما المصرية.. دراسة د. أحمد يوسف

(12) اللؤلؤة .. مقال للأديب خيري شلبي

(13) مقال فاتن حمامة.. ثروة قومية، ضمه كتاب (فاتن حمامة.. نجمة القرن) تأليف طارق الشناوي

(14) مقال مصطفى العقاد للناقد اللبناني نديم جرجورة

(15) خفايا نظام النجم الأمريكي تأليف السينمائي بول وارن

(16) العرب السيئون.. كيف استطاعت هوليوود تشويه أمة تأليف جاك شاهين

(17) الاستشراق تأليف إدوارد سعيد

(18) "أسرار في حياتك" تأليف د. عادل صادق

(19) أخبار النجوم في العدد الصادر بتاريخ 24 فبراير 1996

(20) من حوار مع عمر الشريف لمجلة الشباب في العدد الصادر في نوفمبر 1999

(21) مقال (الأراجوز.. وماهو الحق الذي نطق به) لسمير فريد / جريدة الجمهورية العدد الصادر بتاريخ 22 يناير 1990



المؤلفة

ناهد صلاح

كاتبة وناقدة سينمائية

صدر لها:

(1) الفتوة في السينما المصرية (كتاب اليوم - العدد 571 - يونيو 2012)

(2) محمد منير.. حدوتة مصرية (مطبوعات مهرجان الاسكندرية لسينما دول البحر المتوسط – الدورة 30 – 2014)

(3) حسين صدقي .. الملتزم (مطبوعات مهرجان القاهرة السينمائي الدولي – الدورة 36 – 2014)

(4) الحتة الناقصة .. حكايات افتراضية (مركز المحروسة للنشر والتوزيع – 2014)

(5) سمير صبري .. حكايتي مع الزمان (مطبوعات المهرجان القومي للسينما المصرية 2014)

(6) الفلاحة في السينما المصرية (تحت الطبع)

فهرس

عُمَر الشَّرِيف

"بَطَلُ أيامِنا الحُلْوَة"

هل كان عمر الشريف "الشرقي" خائناً وعميلاً لـ"الغرب"، دفعته شهوة الرغبة في العالمية إلى التمسح في اليهود، وارتكابه نزوات سينمائية مناقضة لقيم مجتمعنا العربي؟ أم كان فناناً كبيراً رفع اسم مصر في السينما العالمية ومحافلها؟ الإجابة الحاسمة نجدها في مسار طويل من التحدّيات والأسئلة والتفاصيل الحياتية والإنسانية لفنان استطاع أن يصنع أسطورته الخاصة، الفاتنة. في هذا الكتاب نبحر في العوالم الأسطورية لعمر الشريف، ونتعرف على تفاصيل غامضة في تكوينه الشخصي، وفي أسرار عائلته، وقصة حبه وزواجه وطلاقه من فاتن حمامة، وهجرته وغربته، وعلاقته بالقمار والنساء والسينما التي ترك على خارطتها عناوين كبيرة وكثيرة تؤرخ لنجوميته وتنتصر للممثل بداخله، وحيرته بين حريته في الخارج وحنينه إلى وطن تركه برغبته وكامل إرادته، ورحيله و.. أشياء أخرى كثيرة صنعت من حياة عمر الشريف فصولاً تستحق أن تُروى.

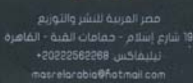
تصميم الغلاف كريم آدم






ISBN 978-977-428-073-3
9 789774 280733

مصر العربية للنشر والتوزيع
19 شارع إسلام - حمامات القبة - القاهرة
تيليفاكس +20222562268
masrelarabia@hotmail.com



٦ شارع البستان السعيدي - وسط البلد - القاهرة
بجوار مقهى زهرة البستان
atyafbookshop@yahoo.com
محمول 01020097171